
سجلات
إلاريون
ثمن الحقيقة

المحتويات

الجزء الأول — الأرض وإلاريون 5

١. الأرض: بستان جثسيماني 7

٢. الأرض: قبلة يهوذا (٢) 12

٣. إلاريون: شمس إلاريون 14

٤. الأرض: مريم المجدلية 20

٥. إلاريون: نيترا، عاصمة الاتحاد 41

٦. الأرض: قبلة يهوذا 61

٧. إلاريون: الدائرة الذهبية 73

٨. الأرض: يوم الفصل 76

٩. إلاريون: الطبقة 82

١٠. الأرض: التينة الملعونة 97

١١. إلاريون: ماريا ليورن 120

١٢. الأرض: يسوع على الجبل 127

١٣. إلاريون: أريين كورفيث 132

١٤. الأرض: مولد جيل جديد 163

الجزء الثاني: تجزئة جريمة واحدة 170

١٥. ثلاثون عملة 170

١٦. للجرح ميزانية 176

١٧. مؤسّسات الحماية 182

١٨. ذكاء اصطناعي حيوي بلا كراهية 189

١٩. مختبرات بلا خريطة 194

٢٠. شكوك ماريا..... 200
٢١. امتحان العمى..... 209
٢٢. الاستثناءات..... 223
٢٣. الدفعة الأخيرة..... 233
٢٤. الحمّى الأولى..... 251

الجزء الثالث: طاعون الدائرة الذهبية..... 268

٢٥. بيوت أوريولا..... 268
٢٦. أنظمة لا ترى الكلّ..... 279
٢٧. الاسم الذي خافوا أن ينطقوا به..... 290
٢٨. الدائرة الذهبية وراء الزجاج..... 298
٢٩. صوت جيساير والجسر إلى الإلار الموحّد..... 309
٣٠. الثلث..... 328
٣١. وراء الزجاج..... 349
٣٢. الآتون..... 356

الجزء الرابع: إلاريون بلا الثلث..... 369

٣٣. الأيدي الغائبة..... 369
٣٤. نصيب الأحياء..... 384
٣٥. الهيكل المالي للجائحة..... 396
٣٦. الرجل الذي كانت الخريطة في يده..... 407
٣٧. ليس أريين وحده..... 420
٣٨. المحفل بعد الثلث..... 427
٣٩. إلار واحد..... 447
٤٠. كتلة السلطة..... 461

درس للأرض.....493

تعاظم سلطان التكنولوجيا على الكوكب واستعصاؤه على الضبط.....493

الفساد والدولة قليلة الكفاءة.....494

مشكلات التهرّب الضريبي.....494

إنهاء النزاعات المسلحة والكشف الفوري عن كل تلاعب بالأموال.....495

إقرار الدخل الأساسي الشامل بعدالة وشفافية.....496

تحدّيات الحياة الأبدية وحلّ مشكلات السكّان على الكوكب بشفافية.....497

الحركة السياسية https://HumanityUnitedMovement.org.....498

الحسّ السليم أساس السياسة.....499

الأكاديمية السياسية.....500

حركة عالمية لعالم مترابط.....502

الشفافية أساس الثقة.....504

التقدّم التكنولوجي ومستقبل العمل.....507

تكافؤ الفرص وكرامة الإنسان.....508

التفكير على المدى البعيد والمسؤولية عن المستقبل.....509

كيف ينبغي أن تعمل الحركة نفسها؟.....509

ما الذي نريد حقًّا أن نحقّقه؟.....510

نداء إلى الجيل الجديد.....512

الجزء الأول — الأرض وإلاريون

ليس كل بُعد في الكون فراقًا.

ثلاثون سنة ضوئية هوّة للجسد. وهي للنور طريق طويل. أما للذاكرة فلعلها أقل من ذلك. في ناحية من فضاء النجوم كان كوكبان يدور كلٌّ منهما حول شمسه. لم يتكوّنا من مادة واحدة، ولم ينتميا إلى نجم واحد. ومع ذلك تشابها كما قد يتشابه حلمان متباعدان.

كان لكليهما بحار تستحيل فضة عند الصباح. وكان لكليهما سحاب وجبال وأنهار وصحارى وبلاد ترسم الريح في ترابها، دهرًا بعد دهر، حروفها الصامتة. وفي كليهما كان المطر يقع على الحجارة، والأشجار تنبت من الأرض، والكائنات الحية تتعلم أن تميّز الألم من الشوق، والخوف من الرجاء، وما أُعطيتْه مما يسعها أن تغيّره.

كان أحد الكوكبين يُدعى إلاريون.

أما الآخر فكان سيُسمّى الأرض.

تباعد الكوكبان، ولكن بُعدهما لم يبلغ حدًّا يمنع أن يعبر ما بينهما يومًا ضوء، أو فكرة، أو إرادة، أو شيء أخفت من ذلك كله. فللكون مسالك غير مسالك السفن. فيه تيارات بطيئة يمتد بها الأثر، ووشائج خفية تصل تاريخًا بتاريخ، وعودة غريبة لأشياء حُسب أنها ضاعت. كان ما يصل العالمين أعمق من شبه عارض.

لم تكن صلة بسيطة. ولا من النوع الذي يُرسم للتوّ على خريطة أو يُدوَّن في سجل. كانت وشيجتهما من تلك الأشياء التي لا تتجلى إلا لمن ينظر وراءه بعد أن يتمّ القدر، فيدرك فجأة أن الوقائع التي بدت متفرقة لم تكن قطّ إلا أجزاء من جملة واحدة.

كان الناس في إلاريون قد ارتقوا شوطًا بعيدًا. لامست مدنهم السماء، وعرفت سفنهم الظلمة بين الكواكب، وصارت آلاتهم تحسب أشياء لم تكن يومًا تتخطى حدود الحدس.

تعلّموا إطالة العمر، ومداواة الجسد، وتغيير وجه الصحارى، وتشييد عوالم تحت القباب، والنظر إلى مستقبلهم بجرأة كائنات بدأت تؤمن بأن قلّما يستعصي شيء إلى الأبد.

لكن حتى أرقى الحضارات تبقى بشرية ما دام فيها مَن يحبّ ويحسد، ويصفح ويخاف، ويتوق إلى السلطة. وحيثما كان الإنسان، لم يكن التاريخ يومًا تاريخ التقنية وحدها. إنه تاريخ القلب أيضًا.

في ذلك الزمان عاش على إلاريون إنسانان.

جيساير دافيون.

ماريا ليورن.

لم يكن اسماهما قد دخلا الأسطورة بعد. كانا مجرد اسمين يترددان في الغرف، وعلى الطرق، وفي الحدائق، بين الأصدقاء ومن عرفوهما عن قرب. لكن لبعض الأسماء مصيرًا عجيبًا. يكون الاسم أولًا لصاحبه. ثم للألم. ثم للذاكرة. وأخيرًا يعود في صورة لا يكاد أحد يتبيّنها على حقيقتها. تبدأ هذه الحكاية على إلاريون، في ضوء شمس غريبة.

غير أن صداها لن يبقى هناك إلى الأبد.

فثمة حيوات لا تنتهي عند تخوم عالم واحد. ولقاءات كأنها تسبق نفسها. وثمة محبّات تعود في التاريخ، لا لعجزها عن الرحيل، بل لأن في نفسها كلامًا لم تقله بعد.

١. الأرض: بستان جثسيماني

حين فرغوا من إنشاد مزامير الفصح، وكانت أورشليم تغوص في الليل، خرج يسوع مع تلاميذه إلى ما وراء وادي قدرون. كانت المدينة خلفهم لا تزال تتنفس دفء النهار، لكن البرد كان قد استقر في الأودية. وخيّم السكون على جبل الزيتون، كأن الحجارة نفسها حبست أنفاسها.

بلغوا موضعًا يدعونه جثسيماني. كان فيه بستان زيتون، جذوع أشجاره ملتوية ولأوراقها حفيف خافت. عرفه التلاميذ. كان مكانًا عاديًّا لا مهابة احتفال فيه، خلوة يأوي إليها المرء متى احتاج أن يكلّم الله من غير شهود.

توقّف يسوع. كان في وجهه سكون، لكنه غير السكون الذي يرتسم على وجه المرء حين تهون عليه الحياة. كان سكونًا يلمّ شتات شيء رجّته هزّة في الأعماق.

قال بصوت خافت: «اجلسوا ههنا ريثما أمضي فأصلّي».

ثم أخذ بطرس ويعقوب ويوحنا إلى أبعد قليلًا. سار الثلاثة وراءه من غير سؤال. أحسّوا أن أمرًا يجري يفوق فهمهم. يسوع، الذي شفى المرضى أمام أعينهم، وأسكت العاصفة، وتكلّم بسلطان لم يسمعوا مثله من أحد، غدت خطاه فجأة أثقل. كأن لكل خطوة حملًا لا يرونه.

وأخيرًا التفت إليهم هم أيضًا.

قال: «نفسي حزينة حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي».

وقعت كلماته عليهم أشدّ من عتاب. فتح بطرس فمه كأنه سيعاهده على الوفاء مرة أخرى، لكن يسوع كان قد مضى. لم يبتعد، ظلّ على مرأى منهم، على بضع خطوات فحسب، ومع ذلك انفتحت بينه وبينهم فجأة مسافة لا يقوى أحد على عبورها.

وقف يسوع عند زيتونة. مسّت الريح ثوبه. وفوق رأسه ارتجفت الأوراق الفضية، وعلى الأرض امتدت الظلال كماء مُراق.

جثا على ركبتيه.

ثم خرّ على وجهه إلى الأرض.

وفي تلك اللحظة ازداد الليل من حوله عمقًا.

أقبلت عليه في صور حيّة، أحدّ من الأحلام ومن مألوف الذكريات، لا تلين ولا ترحم.

رأى مشاعل بين الشجر.

رأى وقع أقدام رجال مسلحين، وسمع صليل الحديد، والهمس والأوامر. وبينهم يهوذا. كان وجهه شاحبًا، لكن أمارات العزم بادية عليه. تقدّم كمَن اجتاز حدًّا وبات يخاف أن ينظر وراءه. دنا منه، وبدل أن يشير إليه بسيف أو بتهمة، دلّهم عليه بقبلة.

أحسّ يسوع في الرؤيا بمسّ شفتي يهوذا على وجهه، وعلم أن بهذه العلامة سوف يُسلَّم.

«يا صاحب». ترددت في داخله الكلمة التي سيكون عليه أن يقولها. وآلمته أكثر من القيود.

تبدّلت الصورة.

رأى فناء دار رئيس الكهنة. نارًا. وجه جارية تضيئه ألسنة اللهب. بطرس يتدفّأ بين غرباء ويتجنّب العيون. سمع السؤال: «أكنتَ أنت أيضًا معه؟»

ثم سمع جواب بطرس.

«أنا لا أعرفه».

أغمض يسوع عينيه، لكن الرؤيا لم تتبدّد.

إنكار ثانٍ. ثم ثالث. رفع بطرس صوته، وقد أفزعه ما يصدر عنه، وأقسم أنه لا يعرف ذلك الرجل. وإذا صياح ديك يسري في الليل. حادّ. قصير. رهيب الوضوح.

ورأى يسوع عيني بطرس في اللحظة التي سيتذكّر فيها.

رأى في عينيه صديقًا كسره خوفه.

ارتجف يسوع.

همس: «يا أبتِ، إنهم تراب. إنهم ضعفاء. وأنا أحبّهم».

ثم أقبلت صورة أخرى.

فناء. سخرية. وجه تواريه الضربات. قصبة في أيدي الجنود. شوك مغروز في الرأس. صياح الجموع يتموّج كنار في الريح. أيدٍ تضربه وتجهل مَن تمسّ. أفواه تستهزئ به ولا تدرك أن الله هو الذي وهبها الأنفاس.

ثم التلّ.

خشبة الصليب.

المسامير.

رأى يسوع يديه ممدودتين على العارضة. ورأى الحديد يُوضَع على جلد معصمه. رأى المطرقة مرفوعة. وقبل أن تهوي، توتّر جسده من الألم، كأن المستقبل اخترق الحاضر وأدركه منذ الآن.

أفلتت من شفتيه أنّة خافتة.

تندّت جبهته بقطرات العرق. كانت رائقة أول الأمر، ثم أظلم لونها. سالت بين خصلات شعره وعلى صدغيه، ثقيلة حمراء كقطرات الدم. وسقطت على أرض جثسيماني، في التراب بين جذور الزيتون.

كان يسوع يرتجف، ولم يهرب.

قال بصوت لم يسمعه إلا الليل: «يا أبتاه، إن أمكن، فلتعبر عنّي هذه الكأس».

صمت.

لم يكن صمتًا خاليًا، بل صمت الآب، الأقرب من النَّفَس، الذي لا يرفع عن ابنه مع ذلك طريقًا لا بدّ من قطعها.

ضغط يسوع براحتَيه على الأرض وغاصت أصابعه في الطين. ولم تنقطع الرؤى. رأى أمّه تحت الصليب. رأى التلميذ الذي كان يحبّه واقفًا إلى جانبها. رأى أناسًا يُشيحون بوجوههم. رأى السماء التي ستتلبّد. رأى جسده يرتفع متشنّجًا ليلتقط نَفَسًا. رأى العطش.

رأى الوحشة. رأى الموت. ورأى مريم المجدلية تمسّ بثلاث أصابع معصمه الذي نفذ فيه المسمار.

ومع ذلك رأى وراء ذلك كله شيئًا آخر.

لم يتبيّنه إلا غامضًا، كخيط من نور على طرف الليل.

رأى وجوهًا لم تُخلق بعد. أناسًا من أزمنة وبلاد بعيدة. رأى خطاة سيبكون على إثمهم. ومرضى سيتمسّكون باسمه. ومنكسري القلوب سيجدون في جراحه رجاء. رأى بطرس ينهض مرة أخرى بعد سقطته. رأى التلاميذ يتشتّتون ثم يعودون. ورأى أن المحبّة تستطيع أن تعبر الخيانة والخوف والموت، ما دامت لا تكفّ عن أن تكون محبّة.

قال أخيرًا: «لا كما أريد أنا، بل كما تريد أنت».

حين نطق بها، لم ينقطع ألم جسده. لم يزل خوفه. ولم تنصرف عنه الساعة الآتية. لكن طاعة هادئة رسخت في أعماقه، طاعة كانت عطيّة، ولم تكن هزيمة.

رفع رأسه.

وتضرّع: «يا أبتِ، أعطني قوة أحبّهم بها إلى المنتهى. أعطني القوة كيلا ألعن الذين سيضربونني. أعطني القوة لأنظر إلى بطرس بعين الرحمة. أعطني القوة لأتلقّى قبلة يهوذا بغير بغض. أعطني القوة لأحمل الصليب حين يخذلني جسدي وأهوي. أعطني القوة لأظلّ ابنك حتى حين أبدو إنسانًا تخلّى الله عنه».

عندئذ هبّت نسمة في البستان. حَفّت أوراق الزيتون كأن يدًا غير منظورة مرّت فوقه. ظلّ يسوع يتنفّس في مشقة، لكن أنفاسه باتت أكثر انتظامًا. وأخذت قطرات الدم على جبهته تبرد رويدًا.

وحين عاد إلى تلاميذه، وجدهم نيامًا.

كان رأس بطرس مطرقًا، ويعقوب ساكنًا في نومه، ويوحنا يتنفّس في قلق، كأن الرعب المقترب يمسّه هو أيضًا. أضناهم الحزن. ضعفاء في الجسد. بشر.

أطال يسوع النظر إليهم برهة.

وسألهم: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟»

لم يكن في صوته عتاب وحده. كان فيه ألم إنسان بقي وحيدًا في أشقّ ساعاته. وكان فيه أيضًا حنان مَن عرف ضعفهم قبل أن يقرّوا به هم أنفسهم.

قال: «اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أمّا الروح فنشيط، وأمّا الجسد فضعيف».

ثم استدار من جديد نحو عتمة البستان.

لم يعلموا إلا أنه ماضٍ ليصلّي.

أمّا هو فعلم أنه يمضي للقاء ساعة كانت قد سلكت الطريق إليه حاملة مشاعلها.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

يستند هذا النص إلى حدّ بعيد إلى وصف مشهد بستان جثسيماني في العهد الجديد. أمّا رؤى يسوع لما سيأتي فمن إضافتي.

٢. الأرض: قبلة يهوذا (٢)

حين اقترب من يسوع في البستان، عادت إليه ليلة الجدار بمثل تلك الحدّة التي حجبت عنه للحظة الجنود والمشاعل.

ها هو يقف أمامه من جديد. يحسّ بأنفاسه مرة أخرى. ويسمع من جديد: كفى.

غير أن وراءه هذه المرة رجالًا مسلّحين.

قال: «السلام يا معلّم».

نظر يسوع إليه، وأدرك يهوذا أنه يعلم بأمر رؤساء الكهنة والفضّة، لكنه قبل كل شيء يفهم لماذا اختار هذه العلامة بالذات.

وقبّله يهوذا.

بدت القبلة هذه المرة أهدأ. خاطفة، على الملأ، على ما جرت به العادة. وهذا ما جعلها أشدّ هولًا. كانت القبلة الأولى زلّة هوى. وهذه توأمها الميتة: لم تعد رجاءً في أن يُقبَل، بل إشارة إلى الضحيّة.

قال يسوع:

«يا يهوذا، أبقبلةٍ تُسلّم ابن الإنسان؟»

وسمع يهوذا في تلك العبارة أخرى لم ينطق بها:

أبهذا نفسه، الذي اضطررت يومًا أن أمنعك إياه، تسلّمني الآن؟

تراجع يهوذا.

انتظر أن يحسّ في داخله بنصر. ولو صغيرًا. ولو مريرًا. ولم يأتِ شيء. مجرّد فراغ بدأ يهوي فيه.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

يستند هذا النص إلى حدّ بعيد إلى وصف المشهد في العهد الجديد. وقد أضفت خواطر يهوذا وتخيّلتها على نحو ينسجم مع بقية الكتاب.

٣. إلاريون: شمس إلاريون

كانت الشمس تشرق بتمهّل فوق أواسط إلاريون، كأنها هي أيضًا تحتاج إلى مهلة تتأمّل فيها هذا العالم الذي تبدّل تحتها في القرون الأخيرة أكثر مما وسع أحدًا أن يتخيّل.

كانوا يدعونها ببساطة شمس إلاريون. كان لها في اللغات القديمة أسماء كثيرة. في أغاني السيلينيين كان اسمها رقيق الوقع كأنفاس الغابة، وفي خرائط الفيرانيين الملاحية كانوا يعيّنونها برمز طيفي دقيق، وفي سجلات الأنساب الأوريليّة كتبوا عنها أنها عين تذكر السلالات كلّها. أمّا عند أكثر الناس فكانت الشمس وحسب. ضوءًا فوق المدن، ودفئًا فوق البحار، وبريقًا على حوافّ الحلقات المدارية المعدنية.

من الأعالي بدا إلاريون كوكبًا ما عاد شيء قادرًا على جرحه.

كانت شبكة من حقول الطاقة العائمة تصل بين محيطاته. وفوق القارّات توالت طبقات للنقل تجري فيها بصمت حركة ممرّات الشحن ومركبات الركاب والسفن ذاتية القيادة وأنظمة الإنقاذ. وعلى الجانب الغارق في الليل من الكوكب لم يكن ثمّة مكان ينطفئ تمامًا. كانت المدن تتوهّج كالجهاز العصبي لكائن حيّ هائل.

حول خط الاستواء امتدّت في قوس عظيم حلقة مدارية. ولم تكن متّصلة كدائرة ترسمها يد طفل. كانت تتألّف من آلاف المحطّات والأحواض ومراكز التعدين وحدائق الأبحاث ومراسي الطاقة. وبينها تمضي أساطيل من السفن الآلية صوب ثايرون، الكوكب الثاني في المنظومة.

كان ثايرون فيما مضى مجرّد كرة صلدة تحت سماء رقيقة. فيه ماء، لكنه لا يكفي. له غلاف جوّي، لكن هواءه يحتاج إلى معالجة لكي يصلح للتنفّس. وليله أطول مما ينبغي، وفي صحاراه ريح تفعل فعل العدوّ. ومع ذلك عزم أهل إلاريون منذ قرون على ألّا يتركوه ميتًا.

أرسلوا إليه الآلات أولًا.

ثم المحطّات.

ثم المدن تحت القباب.

ثم الحدائق المغلقة وقباب الغابات.

وأخيرًا جاء الأطفال. وُلدوا على ثايرون تحت القباب، وألفوا ضوءه القاسي كأن لا ضوء سواه.

كان ثايرون هو الذي علّم إلاريون أن يفكّر على مقياس الكون، لسبب عمليّ جدًّا: فحضارة في متناول يدها عالم ثانٍ لا يحقّ لها أن تظلّ مشدودة إلى عالم واحد. كان ثايرون نَفَسًا احتياطيًّا. ومستودعًا للموادّ الخام. ومختبرًا للمستقبل. ومكانًا يتّسع لأن تُنقل إليه صناعات بأكملها، وبرامج بحث كاملة، وأحلام بقاء بما فيها.

وهكذا نما إلاريون.

نما سريعًا.

ولعلّه أسرع أكثر مما ينبغي.

في المئتي سنة الأخيرة تعلّم أهله أن يشفوا أمراضًا كانت تُخلي مدنًا بحالها. زرعوا طعامهم في مزارع مغلقة، واستعانوا في البناء بآلات ذاتية العمل، ونقلوا الماء عبر القارّات. واستطاعوا تجديد الأعضاء التالفة متى أُمهل المريض وصمد جسده خلال العلاج الطويل. لذلك بدأ الموت يبدو لبعض العلماء مسألة قد يحسنون فهمها يومًا. أمّا في المستشفيات فظلّ حقيقة ملموسة.

كان الذكاء الاصطناعي يعمل في المستشفيات والمدارس ووسائل النقل والشبكات المالية. وكان سريعًا في تبيّن الأنماط في البيانات التي تُعطى له. لكن الأنظمة المختلفة كانت ملكًا لدول ومؤسسات مختلفة. فحتى أفضل النماذج لا يستطيع المقارنة بين سجلات لا يُؤذَن له بالاطلاع عليها، وحتى أدقّ الحسابات لا تغني عن الإنسان الذي عليه توقيع القرار.

بلغ عدد سكان إلاريون نحو تسعة مليارات نسمة.

ثلاثة فروع كبرى.

الأوريليون.

السيلينيون.

الفيرانيون.

كانوا جميعًا من أهل إلاريون. تشاركوا الكوكب والمدن والتاريخ والمدارس، وقصص الحبّ والنزاعات والقوانين، والكوارث التي ألمّت بهم معًا. لكن اختلافاتهم تجاوزت الثقافة والسياسة. كانت منقوشة في موضع أعمق، في البنية الداخلية للجسم، وفي الوراثة، وفي الطريقة التي تنتقل بها بعض الصفات من جيل إلى جيل.

حمل الأوريليون في عيونهم دائرة ذهبية.

لم تكن تُرى في كل حين. كانت تلوح في ضوء بعينه، وفي الحُمّى، وعند اشتداد التركيز، وفي الألم، وفي اللحظات التي يلامس فيها المرء أقصى حدود نفسه. رآها الأوريليون علامة على الاستمرار. ورآها الشعراء دليلًا على أن للروح حافة من نور. ورآها الأطبّاء ظاهرة وراثية، والسياسيّون مسألة هوية حسّاسة، ورأى فيها بعض الناس باعثًا قديمًا على الارتياب.

اشتهر السيلينيون بحسّ يُدركون به توازن المنظومات. برعوا في الطبّ وعلم النفس والشبكات البيئية، وفي العناية بالأرض والمياه ومداواة آثار الصدمات. لم يرق لهم أن يوصفوا بالرقّة. لم تكن الرقة إلا ما يظهر على السطح. وتحتها، في كثير من الأحيان، صلابة الجذور.

كان الفيرانيون أهل تنظيم. إداريين ومخطّطين ومفاوضين وبناة مؤسسات. في دول كثيرة كان لهم نفوذ في الشبكات المصرفية والاتحادات التجارية ومجالس الإدارة وأنظمة النقل وبعض الهيئات خارج الكوكب. وليس من الإنصاف القول إنّهم كانوا يتعطّشون إلى السلطة. والأدقّ أنهم فهموا لغة السلطة في وقت مبكّر جدًّا ولم ينسوها قطّ.

لم يكن إلاريون موحّدًا.

كانت فيه أربعون دولة. بعضها قديم قِدَم الكتابة، وبعضها لم ينشأ إلا قبل أجيال قليلة. وكان لكلٍّ منها تقريبًا عملتها ومصرفها المركزي، وقواعدها الضريبية واستثناءاتها المحاسبية وتصوّرها الخاصّ للحرية.

حوّلت بعض أصغر الدول ضيق مساحتها إلى مصدر للكسب. لم تكن فيها مدن كبرى ولا مصانع ولا مراكز أبحاث. كان فيها ضرائب منخفضة وسجلات ملّاك مغلقة وقوانين تجعل الكتمان خدمة تؤدّيها الدولة. في بلاد أخرى كانت تنشأ القيمة، وفي بلاد أخرى يشتغل الناس وتنتج الآلات، لكن الأرباح، على الورق، كانت تولد هناك بالذات. لم تكن المصانع هي التي تهرب من إلاريون. كان يهرب منه الوعاء الضريبي الذي يُفترض أن يموّل المدارس والمستشفيات والحصّة المشتركة للمواطنين.

كانت أكبر دوله وأشدّها نفوذًا، تكنولوجيًّا وسياسيًّا، دولة الاتحاد.

وكانت عاصمتها نيترا. مدينة شُيّدت على نهر وسبعة تلال.

كثيرًا ما كانت نيترا تبتّ في أمور تتّخذ لنفسها مظهر الشأن الوطني، وهي في واقعها تمسّ الكوكب كلّه. في نيترا اتّخذت مقرّاتها المجالس المالية، وأكبر مراكز الحوسبة، والبعثات الدبلوماسية، والائتلافات الصحية، والمراكز المصرفية، ودور المحفوظات التي لا يستطيع دخولها حتى بعض الوزراء.

من المدار كان إلاريون يبدو قصّة نجاح.

ومن اقترب رأى الشقوق.

كان الذكاء الاصطناعي ينتج أكثر مما يقدر الناس على استهلاكه، لكن شرائح واسعة من السكّان كانت تفقد عملها التقليدي قبل أن يتمكّن المجتمع من أن يمنح حياتها مغزى جديدًا. تزايد الإنتاج، وانحصرت ملكية أنظمته في أيدٍ أقلّ. تحدّث الساسة عن الدخل الأساسي الشامل، وما من أحد يملك جوابًا منصفًا حين يُسأل على أيّ أساس يُحسب، ومَن يُفصح عن الأرباح الحقيقية، ومَن يقرّر ما نصيب الإنسان في عالم لم يعد يصنع خيراته بيديه.

كان التقدّم الطبي يبشّر بأعمار أطول فأطول، ولعلّه يبشّر يومًا بحياة تكاد تخلو من نهاية طبيعية. أما آنذاك فلم تكن قد بدأت تبرز إلا على استحياء أسئلة عمّا سيحلّ بالحضارة إن ظلّ الناس يولدون وأخذوا شيئًا فشيئًا يكفّون عن الموت.

تحدّثت السلطة عن الأمن.

وتحدّث المواطنون عن الحرية.

وتحدّثت المصارف عن الخصوصية.

وتحدّثت الدول عن السيادة.

ومن تحت الكلمات كلّها جرى المال.

بعضه على مرأى العيون. وأكثره في الخفاء.

وهناك كان يختبئ السقوط الآتي.

لم يكن ذلك السقوط ليأتي من قلّة الذكاء. فقد أوتي إلاريون منه أكثر مما أوتيت أيّ حضارة سبقته.

ولم تعوزه الآلات أيضًا. كانت قادرة على استشراف العواصف والأوبئة وتقلّبات الأسواق والتوتّر في المدن.

وما ندر فيه الكلام عن الأخلاق. بل فاض عن حاجته.

كان موطن ضعفه في مكان آخر.

تعلّمت السلطة أن تتحرّك بحيث لا يبقى لها ظلّ يُرى.

وحين لا يبقى للسلطة ظلّ، يظنّ بسطاء الناس أن لا أحد يحول بينهم وبين النور.

في السنة التي تبدأ فيها هذه الحكاية، أشرقت شمس إلاريون على كوكب ظنّ أن أعظم الأخطار صارت من الماضي.

كانت قباب جديدة تفتح أبوابها على ثايرون.

وفي نيترا كانت الاستعدادات جارية لنقاش واسع حول الدخل الأساسي الشامل.

وفي بيت دافيون الأوريليّ، كان رجل يعترض مرّة أخرى على أن يدعوه الناس وارث المعجزات.

وكانت امرأة تبتّ في أمر رحيلها إلى الأبد عن رجل تعلّمت أن تخافه.

وكانت أخت لا دائرة ذهبية في عينيها تتأمّل بيانات مالية، وتحسّ أن شيئًا ينبغي له أن يُرى قد غاب عنها.

وكان فيرانيّ خلط بين الحبّ والتملّك لا يعلم بعد أنه سيجعل لألمه يومًا ميزانية.

كان العالم جميلًا.

ولفرط جماله أبى الناس أن يصدّقوا أنه قابل للانكسار.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

كلّ ما يرويه الكتاب من أحداث تجري على إلاريون من نسج الخيال. ومع ذلك أرى أن احتمال وجود حضارات لكائنات شبيهة بالبشر على كواكب أخرى كبير جدًّا. ويرجّح أن تشترك حضارات كثيرة منها، في الخطوط العامة لمصيرها، مع البشرية على الأرض.

٤. الأرض: مريم المجدلية

كانت المجدل على الماء، وكان الماء فيها في كل مكان.

كان في الشباك التي تلمع صباحًا على الشاطئ. وفي أيدي الصيّادين ينفضونه عن الحبال وعن شعورهم. وكان في جرار الفخّار التي تحملها النساء وهنّ يَجُبْنَ الأزقة قبل طلوع الشمس. وكان في الهواء، في نَفَس البحيرة المالح، في صيحات الطيور، وفي زَنَخ السمك اللصيق بالمدينة كجلد ثانٍ.

ومع ذلك كانت مريم تحسّ بالعطش.

كان عطشها أعمق من الحلق والجسد. عطشًا فظًّا يوقظها في جوف الليل ويرغمها على الجلوس في الظلام، تصغي إلى نَفَسها وتنتظر لترى إن كان سيخرج منه مرّة أخرى صوت غريب.

كان أهل المجدل يتهامسون بأمرها.

قال بعضهم إنها مريضة. وقال آخرون إنها ملعونة. وقال غيرهم إن شيئًا أصابها ما كان ينبغي أن يصيب امرأة، وإن روحها منذ ذلك الحين تجول في الدار كالدخان. خافها الصغار، ورسمت النساء إشارة الصليب عند رؤيتها، وتظاهر الرجال بأنهم لا يبصرونها. إذا مرّت بالسوق سكت الحديث. وإذا رفعت عينيها أشاح الناس بوجوههم.

وتعلّمت مريم أن تمشي دون أن تعترض طريق أحد.

لكنّ داخلها كان يضجّ.

لم تكن أصواتًا في كل حين. كانت أحيانًا مجرّد هبّات، كما تضرب الريح بابًا. وأحيانًا كانت تحسّ بأن أفكارها ليست لها. بأن كائنات عديدة تقيم فيها ولكلٍّ منها مراد. واحدة تضحك. وواحدة تبكي. وواحدة توسوس لها بأن الله نبذها. وواحدة ترغمها على تذكّر ما

أرادت أن تنساه. وواحدة تخاف الناس. وواحدة تزدريهم. وواحدة تريد أن تعدو إلى الماء ولا تعود.

أمّا السابعة فكانت صامتة.

وكانت أسوأها.

كانت تجثم في أعماقها بلا صوت ولا اسم، وتنتظر وحسب. وحين تحضر، لم تكن مريم تحسّ بشيء. لا ألم ولا عار ولا خوف. فراغ فقط. كأن أحدًا انتزع قلبها وترك في صدرها تجويفًا تصفّر فيه ريح باردة.

في ذلك اليوم سمعت بيسوع قبل أن تراه.

قال الناس إنه جاء من كفرناحوم. كان يعلّم في المجامع، ويتكلّم عن ملكوت الله على غير طريقة الكتبة. يشفي المرضى، ويلمس الأنجاس، ويأكل مع مَن يأنف أهل التقوى أن يجالسوهم إلى موائدهم. ومن الناس مَن قال إنه يأمر الأرواح الشريرة فتطيعه.

ضحكت مريم أوّل الأمر.

من غير صوت. في سرّها وحده. بمرارة.

رجل قدّيس آخر، قالت في نفسها. واحد آخر سيتحدّث عن الخطيئة والتوبة والطهارة، فإذا رأى امرأة مثلها جمع طرف ثوبه لئلا تمسّه.

لم تذهب في طلبه.

هكذا ظنّت على الأقلّ.

لكن بعد الظهر، حين تحرّكت المدينة نحو الشاطئ، تحرّكت هي أيضًا معها. في بادئ الأمر لم ترد إلا أن ترى لِمَ يتدافع الناس جميعًا في اتّجاه واحد. ثم لأن الجموع حملتها معها. وفي آخر الأمر لأن شيئًا في داخلها، لم يكن صوتًا ولا شيطانًا بل بقيّة من إرادتها هي طواها النسيان من زمن، أراد أن يسمع ولو عبارة واحدة لا يرنّ فيها صوت الإدانة.

كان يسوع يقف على مقربة من الماء.

لم يكن على الصورة التي تخيّلتها. لم يكن في لباسه ما يميّزه عن سائر رجال الجليل. نعلاه مغبرّتان. وثوبه بسيط. ووجهه متعَب من السفر والشمس. ووقف إلى جانبه رجال عرفت بعضهم من كلامهم وأيديهم: صيّادون. كان أحدهم ضخم البنية، في عينيه قلق. وآخر أصغر سنًّا، قليل الكلام، كأنه يستودع ذاكرته كل شيء.

وكانت هناك نساء أيضًا.

أدهشها ذلك. لم يقفن جانبًا ولا اكتفَيْن بالإصغاء على هامش الجمع. وقفن قريبًا منه. لواحدة منهنّ سَمْت امرأة من بيت ذي مكانة، وتحمل أخرى سلّة خبز، وثالثة تتحدّث إلى التلاميذ بعفوية مَن هي واحدة منهم.

كان يسوع يتحدّث عن زارع.

عن حبّ وقع على الطريق، وعلى الصخر، وبين الشوك، وفي الأرض الطيّبة. أصغت مريم وأحسّت أن كل كلمة تسقط في موضع غير الذي سقطت فيه الأخرى. بعضها على ما تحجّر فيها. وبعضها في المواضع الضحلة حيث لا يثبت شيء. وبعضها بين أشواك الخوف. وواحدة، واحدة لا غير، في مكان أعمق.

قال يسوع: «مَن له أذنان للسمع فليسمع».

إذ ذاك انتبه إليها.

أو لعلّ الأمر لم يكن كذلك تمامًا. لعلّه انتبه إليها من قبل، قبل أن ترفع عينيها عن التراب. لعلّه رآها منذ اللحظة الأولى، حين تحرّك الجمع فوجدت نفسها بين أناس تعلّموا أن يتحاشوها كما يتحاشون حجرًا في الطريق.

سكت يسوع في منتصف جملة.

كان بطرس واقفًا قربه فمال نحوه، كأنه يريد أن يسأله إن كان سيمضي في كلامه. ونظر يوحنا حيث نظر المعلّم. والتفت بعض مَن في الجمع أيضًا.

أحسّت مريم بالأمر قبل أن تدركه.

نظرة.

لم تشبه نظرته إليها شيئًا ممّا ألفته في المجدل. لم يكن فيها خوف ولا نفور ولا فضول، ولا تلك الشفقة المتعالية التي يتصدّق بها الأطهار، والتي قد تكون أقسى من الاحتقار.
لم تكن تلك النظرة تبحث عنها لتفضحها.

تلك النظرة كانت تعرفها.

ولهذا بالذات أرادت أن تهرب منها.

كان يسوع يقف قرب الماء وينظر إليها. وكأنّه في تلك اللحظة ما عاد يسمع صياح الصيّادين ولا همهمة الجمع، ولا خضخضة الموج ولا أسئلة تلاميذه القلقة. نأى كل شيء، ولم يبق أمامه سوى امرأة في طيّات رداء، يدَاها مضمومتان إلى جسدها تخفيهما، وكتفاها مرتفعان قليلًا كأنها أبدًا تتوقّع ضربة.
رأى فيها الألم.

كان ذلك بيّنًا.

ورأى فيها ظلمة التصقت بروحها حتى كأنها جلدها. رأى ليالي ممزّقة وعارًا وخوفًا وغضبًا وفراغًا. رأى سبعة ظلال تتنازع في داخلها على اسمها.
لكنه قبل هذا كله رأى فيها شيئًا آخر.
أُلفة.

جاءته بغتة وفي صمت. كأن يدخل المرء بيتًا غريبًا فيشمّ رائحة عرفها طفلًا. أو تتردّد في أغنية نغمة لم يسمعها منذ سنين، وهو مع ذلك يعرف ما يليها. نظر يسوع إليها فتحرّك فيه شيء أقدم من الذكرى.
لم يجد له اسمًا في كلام البشر.

كان كأنّ روحَيهما مرّت إحداهما ذات يوم بمحاذاة الأخرى في النور الذي يخرج منه الناس إلى الدنيا، ثم تعارفتا الآن لحظة من وراء التراب والمرض والعار والأجساد البشرية.

مريم من المجدل.

لم ينطق أحد بالاسم بعد، ومع ذلك خُيّل إليه أنه يعرفه.

لم يعرفه معرفة المرء اسمًا سمعه، بل معرفة الراعي صوت نعجة تاهت في الليل. ومعرفة الأمّ خُطى طفلها خلف الباب. ومعرفة الله للإنسان قبل أن يتعلّم الإنسان النطق باسمه.

وقفت مريم في الجمع تصارع نفسها.

رأى يسوع شفتيها تتحرّكان قليلًا وهي صامتة. ورأى أصابعها تنقبض على القماش. ورأى في داخلها شيئًا ينهض في وجهه قبل أن يكلّمها.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، كانت هناك تحته، هي.

تحت المرض والعار وكلّ الأسماء التي وسمها بها الناس، رآها هي، ببساطة.

ومريم هذه، المستترة عن العيون، هي التي أحسّ من فوره أنها قريبة منه.

كان قربًا يعجز عن تفسيره.

حتى آلمه.

فهو لم يرَ في تلك اللحظة وجهها الحاضر وحده. رأى ما يشبه ظلال طرق لم تسلكها، ومع ذلك كانت فيها. رأى صبيّة عند الماء، لم تتلوّث بعد بالكلمات التي سوف يلصقها الناس بجلدها. رأى امرأة تفيق مذعورة في الليل ولا تدري ألها الصوت الذي في رأسها أم لغريب. ورأى مستقبلها قبل أوانه: خُطاها من ورائه، ويديها تحملان الخبز، ووجهها تحت الصليب، وبكاءها عند القبر.

وفي ذلك المستقبل البعيد، في بستان والظلام باقٍ، رآها ثانية.

ستقف وقد كسرها الأسى، وتظنّ أنها فقدت حتى آخر نور لها. ستبحث عنه بين الموتى. وسيناديها مرّة أخرى باسمها.

مريم.

منذ الآن تردّد في داخله ذلك الاسم.

قبل أن يجهر به.

خطا نحوها خطوة.

رفعت عينيها فجأة. والتقت نظرتاهما.

تسمّرت مريم.

كانت تعرف نظرات الناس. الخوف. الإدانة. فضول الرجال. احتقار النساء. ونظرات أولئك الذين يريدون أن يُعينوا المتألّم، لكنهم يحتاجون أولًا إلى أن يبدو على الصورة التي رسموها هم للألم.

اختلفت هذه النظرة.

لم تقتحمها عنوة. ولم تتفحّصها. لم تبحث عن وصمة تسمّيها. ولم تزن ذنبها. ولم تُقدّر ثمنها. كان يعرفها.

وكان ذلك أشدّ ما يخيف.

وأجمل ما يكون.

أحسّت مريم فجأة أن لا سبيل إلى الاختباء من هذا الرجل. لا لأنه يريد فضحها أمام الناس، بل لأنها في حضرته ستُضطرّ إلى أن تكفّ حتى عن الاختباء من نفسها. وكان ذلك أقسى من نظرات المجدل المحتقرة كلّها.

تراجعت خطوة.

همست: «لا».

توقّف يسوع.

«لا تخافي».

أصابتها الكلمتان بقوّة لم تتوقّعها. كم مرّة قال لها الناس ألّا تخاف؟ لكن ما عنوه كان دائمًا: اهدئي فأنت تفزعيننا. أو: تمالكي نفسك فأنت تضايقيننا. أو: اصمتي فإنّا لا ندري ما نصنع بك.

أمّا على لسانه فكان لهما معنى آخر.

لا تخافي، فإنّي أعرفك.

لا تخافي، فما أنتِ هذا وحده.

لا تخافي، فليس الذي يستمسك بك أقوى من الذي يدعوك.

ارتجفت مريم.

قالت: «أنت لا تعرفني».

أطال يسوع النظر إليها، بيقين هادئ أيقظ فيها ذكرى لشيء لم تعشه قطّ.

قال: «بلى، أعرفك».

صمت الجمع من حولهما.

سألت مريم: «من أين؟»

في صوتها تحدٍّ، وتحته رجاء.

لم يُجب يسوع على الفور.

نظر إلى البحيرة. مرّت الريح فوق صفحتها فشطرت الضوء ألف شرارة صغيرة. ثم التفت إليها من جديد.

قال بهدوء: «من هناك، من حيث ينادي الله كلّ إنسان باسمه قبل أن يولد».

لم تفهم مريم الكلمات، لكنّها فهمت النبرة.

وفي تلك اللحظة، وعلى غير انتظار، تردّد في داخلها صدى ذكرى بلا صورة. أحسّت أنها وقفت أمامه يومًا، في مكان خارج المجدل والبحيرة وخارج هذه الحياة التي ضاقت واشتدّ ألمها عن أن تتّسع لنور كهذا.

كأن روحها عرفته قبل عينيها.

وهذا بالذات ما لم تَطِقْه الظلمة التي فيها.

دار رأسها أوّلًا، ثم انقبض حلقها. وبدا الجمع بعيدًا فجأة على الرغم من إحاطته بها. تكسّرت الأصوات شظايا حادّة: ضحكة طفل، حفيف ثوب، خضخضة الموج، سعلة رجل، نبض قلبها.

قالت في نفسها: ليس الآن.

ليس هنا.

أرادت أن تمضي فلم تطعها ساقاها. لاحظت امرأة إلى جانبها أن وجه مريم يشحب فتنحّت. نطق أحدهم باسمها. وقال آخر شيئًا عن الشياطين. وانفرج ما حولها من الناس بالسرعة التي ينفرج بها الماء أمام حجر.

ثم جاء الصوت.

لم يكن صوت يسوع.

بل الصوت الذي فيها.

همست مريم: «ابتعدوا». ولم تدرِ أتقولها للجمع، أم لنفسها، أم لما كان ينهض فيها.

أخذت يداها ترتعشان. أرادت إخفاءهما تحت ردائها، لكن الأوان كان قد فات. تراجع الناس. وأبصرت الخوف في وجوههم. ذلك الخوف المألوف الذي لازمها سنين. الخوف الذي يقول لها: أترين؟ هذه أنتِ. وهكذا ستكونين أبدًا.

ثم شقّ يسوع طريقه في الجمع.

لم يحتج أن يفسح له أحد. تنحّى الناس من تلقاء أنفسهم.

أطرقت مريم. لم ترد أن ترى وجهه. لم ترد أن ترى النفور. ولو وجدت شفقة لكانت أشدّ وقعًا.

وقف أمامها.

قال: «انظري إليّ».

لم يكن في صوته قسوة. ولا لين أيضًا. كان ثابتًا، كأنّه يستند إلى شيء لا يتزعزع.

لم ترفع مريم رأسها.

همست: «لا أستطيع».

«لِمَ؟»

ضحكت. ضحكة قصيرة منكسرة.

«لأنك ستراهم».

«مَن؟»

«الذين في داخلي».

ساد الصمت هنيهة.

ثم قال يسوع:

«أنا أراكِ أنتِ».

أصابتها كلماته بأقوى مما تفعل صرخة.

أراكِ أنتِ.

أراكِ أنتِ. من وراء المرض والعار والأصوات والحكاية التي راحت المدينة تتناقلها عنك.

أنتِ.

رفعت مريم عينيها.

نظر إليها يسوع من غير فضول ولا خوف ولا نفور. ولهذا تحديدًا لم تحتمل نظرته. لو أدانها لعرفت ما تفعل. ولو تراجع أمامها لأكّد لها أن الدنيا هي التي تعرف. لكنه بقي واقفًا. قريبًا. ساكنًا. كأنّه ما رأى فيها موضع خراب، بل ميدان معركة جاء لينقذ منه أحدًا.

قالت: «لا تقترب».

«لِمَ؟»

«سأؤذيك».

قال: «كلّا».

«لا يمكنك أن تعرف».

«أنا أعرف».

إذ ذاك نهض فيها عصيان. لم يكن عصيانها هي. كان عتيقًا، ضاريًا، وحشيًّا. انفتح فمها، ولم تكن الكلمات التي خرجت منه كلمات رجاء.

«ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ؟»

شهق الجمع.

سمعت مريم صوتها ولم تعرفه. غمرها الخزي كالدم الحارّ. أرادت أن ترتمي على الأرض، أن تغطّي فمها، أن تختفي. لكنّ يسوع لم يتحرّك.

قال: «كفى».

كلمة واحدة خافتة، لكن مريم أحسّت بالسماء كلّها تعبر فيها.

انتظر بعضهم صيحة. تعويذة. إيماءة عظيمة. شيئًا يروونه في المساء حول النار.

لكنّ يسوع ظلّ واقفًا أمامها وحسب، وتكلّم بسلطان رجل لا يستأذن الظلمة.

«لن تسكنوها بعد اليوم».

انحنت مريم كأن أحدًا وضع على كتفيها حجرًا ثقيلًا. انتُزع من حلقها نحيب، ثم صرخة، ثم لا شيء. خرّت على ركبتيها واستندت بيديها إلى الأرض. التصق التراب براحتَيها. وأحسّت الأصوات تنطفئ فيها واحدًا تلو الآخر.

قاوم الأوّل بالغضب.

والثاني بالسخرية.

والثالث بالخوف.

والرابع بالذكريات.

والخامس بالعار.

والسادس باليأس.

أمّا السابع، ذاك الصامت، فكان أطولها تشبّثًا بها. لم يقل شيئًا. ظلّ يجرّها عائدة إلى الفراغ، إلى البرد المألوف حيث لا حاجة إلى الرجاء، لأن الرجاء هناك ضرب آخر من الألم.

جثا يسوع إلى جوارها.

ونادى: «مريم».

اسمها.

نطق يسوع باسمها وحده، عاريًا من الألقاب والتهم وكلّ ما ظلّ الآخرون يلحقونه به سنين.

مريم.

وفي تلك اللحظة تمزّق آخر ما فيها من الفراغ.

لم تكن صرخة. كانت أشبه بشهيق. أوّل شهيق حقيقي بعد سنين.

شمّت رائحة البحيرة. أحسّت بالتراب تحت يديها وبحرارة الشمس عند قفاها. وسمعت الطير. والناس. والموج. وتحت ذلك كلّه سكون. غير سكون الشيطان السابع الميت، بل سكون ما بعد العاصفة، الذي يمكن للمرء أن يعيش فيه.

وأجهشت بالبكاء.

بكت براحة مَن فُتح له باب حجرة موصدة وقيل له: اخرج. ما عاد عليك أن تمكث في الداخل.

لم يبادر يسوع إلى وضع يده على رأسها. بقي إلى جانبها وانتظر حتى هدأ نَفَسها.

ثم مسّ كتفها بتلقائية أخ.

قال: «أنتِ حرّة».

لم تفهم مريم.

كانت الحرية كلمة للرجال الذين لا دَين عليهم. وللشعوب التي لا تخضع لرومة. وللطيور فوق البحيرة. أمّا هي، فلا.

سألت: «ماذا أفعل الآن؟»

ابتسم يسوع ابتسامة خفيفة.

«عيشي».

كاد الجواب يُغضبها. من فرط بساطته. ومن فرط صعوبته.

«لا أعرف كيف».

«ستتعلّمين».

«سيظلّ الناس يذكرون».

«نعم».

«سيتكلّمون».

«نعم».

«سيخافون».

«بعضهم».

«وأنت؟»

«أنا أعرف مَن تكونين».

نظرت مريم إليه وقد امتزج الارتياح على وجهها بالارتياب. كأنها تخاف أن تنهار كلّ كلمة طيّبة مع النَّفَس التالي. كأنها عاشت عمرها على أرض تنفتح من تحتها، وهي الآن، لأوّل مرّة، لا تدري ما تفعل بالأرض الراسخة تحت قدميها.

مدّ يسوع يده إليها.

وتأمّلت مريم يده برهة.

كانت راحته دافئة متينة عادية. راحة إنسان يسير في الدروب، ويلمس المرضى، ويكسر الخبز، ويرفع الأطفال عن الأرض. لا أثر فيها لجبروت يستعرض نفسه. ومع ذلك أحسّت مريم حين مدّ إليها يده أن رحمة العالم بأسرها تنحني نحوها.

وضعت راحتها في راحته بتمهّل.

نهض هو أوّلًا وأعانها على النهوض.

وعندئذ بالذات حدث شيء لم يتنبّه إليه أحد كما تنبّها إليه.

كان على مريم أن تُفلت يده. فقد وقفت. وما عادت تحتاج إلى ما تستند إليه. بدأ الجمع يتحرّك من جديد. وتنفّس التلاميذ الصعداء. وجاءت امرأة بالماء. وطفل كان قبل قليل قد اختبأ وراء رداء أمّه، أطلّ الآن برأسه يتطلّع إليها بفضول.

لكن يد مريم تحرّكت من تلقاء نفسها.

وبدل أن تُفلت يسوع وضعت ثلاث أصابع على باطن معصمه.

برفق.

وبدقّة.

مثل مَن يعرف الإيماءة قبل أن يتعلّمها بزمن.

بُهت يسوع.

لم تدم سوى لحظة. وكانت من القصر بحيث لم يرَ بطرس إلا أن المرأة لمست يد المعلّم. ولم يرَ يوحنا إلا أن يسوع سكت هنيهة. وأمّا يَوَنّا، التي وقفت على مقربة، فلم ترَ إلا أن مريم لم تستعد توازنها تمامًا. ولم يرَ الجمع إلا نهاية واقعة عجيبة ستتحدّث عنها المدينة كلّها عند المساء.

لكنّ يسوع أحسّ بتلك اللمسة.

ثلاث أصابع على المعصم.

ومع اللمسة جاء شيء لا ينتمي إلى هذا الشاطئ، ولا إلى هذا اليوم، ولا إلى هذا الجسد.

همست مريم:

«لا تمضِ وحدك».

وما إن قالتها حتى جفلت هي نفسها.

أفلتت الكلمات من فمها قبل أن تدرك معناها. نظرت إليه كأنها تهمّ بالاعتذار، ولم تدرِ عمَّ تعتذر. كان في عينيها ارتباك. لم يكن خجلًا ولا خوفًا من الجمع، بل دهشة عميقة تملك إنسانًا نطق لتوّه بعبارة من حلم لم يذكره قطّ.

همست: «لا أعرف لِمَ قلت ذلك».

لم يُجب يسوع على الفور.

نظر إلى معصمه، إلى الموضع الذي ظلّ يحسّ فيه بضغط أصابعها الثلاث. ثم نظر إليها.

اعتلج في وجهه شيء من الرقّة بحيث كان ليحسبه مَن لا يُمعن النظر شفقة. ولم يكن شفقة وحدها. كان فيه ألم ودهشة، ومعرفة صامتة لم يرد بعد أن يقرّ بها حتى لنفسه.

قال: «لعلّك تذكّرتِ شيئًا لا تعرفين له اسمًا بعد».

حبست مريم أنفاسها.

«ماذا تذكّرت؟»

تطلّع يسوع للحظة نحو البحيرة. كان الضوء ينكسر على صفحتها، وتحمل الريح عن الماء رائحة السمك والملح والحبال المبتلّة. كلّ شيء مألوف. ومع ذلك خُيّل إليه أن أبوابًا أخرى انفتحت لبرهة وراء هذا العالم المألوف.

لم يرَ شيئًا واضحًا.

مجرّد ومضة.

امرأة تسير إلى جانبه.

كان الشارع غير هذا والبحيرة غير هذه والأسماء غير الأسماء.

لكنّ العينين هما العينان.

واللمسة هي اللمسة.

ثلاث أصابع على معصمه.

والعبارة نفسها، قيلت منذ زمن بعيد، في غبار آخر، تحت سماء أخرى:

لا تمضِ وحدك.

ثم غابت الصورة.

عاد يسوع ينظر إلى مريم التي من المجدل.

وقال أخيرًا: «تذكّرتِ الوفاء».

لم تفهم مريم.

لكنّ الكلمة بقيت فيها.

الوفاء.

بقي الوفاء فيها طريقًا تختاره الروح قبل أن تعرف أيّ ثمن ستدفع في سبيله.

خفضت مريم عينيها.

قالت: «اغفر لي. ما قصدت أن...»

«أعرف».

«كان أمرًا غريبًا».

«نعم».

«إنه يخيفني».

ارتسمت على شفتي يسوع ابتسامة خفيفة، لكن لم يكن فيها شيء من خفّة البال.

«حتى ما يأتي من عند الله قد يخيف الإنسان».

نظرت إليه مريم.

«أمِن عند الله جاء؟»

صمت يسوع.

ارتفعت من مكان ما خلفهما صيحة طفل. وأخذ التلاميذ يتحرّكون من جديد. واستعاد الجمع نَفَسه على مهل، كأنّ العالم يعود إلى حدوده المألوفة.

لكنّ شيئًا بينهما بقي يضيق عنه مدى تلك الحدود.

دنت من مريم المرأة التي كانت قبل قليل واقفة قرب التلاميذ وناولتها ماء.

تلقّت مريم الإناء بكلتا يديها. وشربت على مهل. كان الماء دافئًا وفيه طعم الطين. وكان أطيب ماء شربته في عمرها.

سألتها المرأة برفق: «ما اسمك؟»

تردّدت مريم برهة، كأنّ عليها أن تستردّ اسمها ليصير لها من جديد.

«مريم».

«وأنا يَوَنّا».

أومأت مريم. حفظت الاسم. وستحفظ فيما بعد أسماءً أخرى. سوسنّة. وسالومة. ومريم أمّ يعقوب. نسوة يحملن الطعام والمال والأخبار والهموم والإيمان. نسوة لن يقفن دومًا في المقدّمة، لكنّهنّ سيكنّ هناك حين يتوارى كثيرون.

سألتها يَوَنّا: «أترجعين إلى بيتك؟»

نظرت مريم وراءها نحو المدينة.

كانت المجدل في مكانها المعهود. البيوت، والأزقّة، والسوق، والعيون وراء الستائر. الموضع الذي عرفوها فيه بأسوأ أيّامها. الموضع الذي يحمل كلّ جدار فيه صدى شيء أرادت أن تخلّفه وراءها.

ثم نظرت إلى يسوع.

وسألت: «إلى أين تمضي؟»

قال: «إلى مدن أخرى، لأبشّر بملكوت الله».

«وهل تأخذ معك أمثالي أيضًا؟»

نظر إليها يسوع كأن سؤالها أحزنه.

«أمثالك بالذات».

أطرقت مريم.

لم تكن تعلم في تلك اللحظة إلى أين ستفضي بها الطريق. لم تعلم أنها ستسمع أمثالًا يستغلق عليها معناها أول الأمر ثم تنضج فيها كالحبّ. لم تعلم أنها سترى العميان يُبصرون، والعرج ينهضون، والمتكبّرين يمضون مغتاظين، والفقراء يقيمون ظهورهم.

لم تعلم أنها ستسير يومًا في إثره حتى أورشليم.

لم تعلم أنها ستقف قرب الصليب حين يتفرّق عنه كثيرون.

لم تعلم أنها سترى أين يضعون جسده.

لم تعلم أنها ستذهب في العتمة إلى القبر تحمل ألمًا عظيمًا حتى ليخيّل إليها أن الشياطين السبعة كلّها قد تعود، ومع ذلك لن تعود.

لم تعلم أنها ستبكي في البستان وتطلب ميتًا، حتى يناديها الحيّ كما ناداها اليوم:

مريم.

وأنها عندئذ ستعرفه.

لم تعلم الآن إلا أن السكون حلّ في داخلها.

التفت يسوع إلى الناس. كان بعضهم لا يزال ينتظر منه أن يفسّر ما جرى. لكنه لم يزد على أن قال:

«قد اقترب ملكوت الله».

انتصبت مريم على قدميها بثبات أكبر.

كانت ركبتاها لا تزالان ترتجفان. شعرها أشعث، ووجهها مبلّل بالدموع، ويداها معفّرتان. كانت تبدو كمَن خسر صراعًا.

لكنها أحسّت، لأوّل مرّة منذ سنين طويلة، أنها انتصرت فيه.

أعانتها يَوَنّا على تسوية ردائها.

نظرت إليها مريم وهمّت أن تشكرها فعلقت الكلمات في حلقها. كانت أصابعها لا تـزال تستشعر دفء معصم يسوع. وكانت لا تزال تسمع همسها.

لا تمضِ وحدك.

لم تدرِ من أين جاءت الكلمات، ولا لِمَ أحسّت أنها غريبة عنها وأنها لها في آن واحد. لكنها عرفت أنها لن تفارقها بعد اليوم. ستقيم فيها منذ الآن كشعلة صغيرة يقيها المرء الريحَ في كفّه.

كان يسوع قد مضى يسير بمحاذاة الشاطئ.

وسار التلاميذ في إثره. وتفكّك الجمع رويدًا إلى جماعات وأصوات وتخمينات. ظلّ بعضهم يتفادى النظر إليها. وأطال آخرون النظر أكثر ممّا ينبغي. وهمس رجل لآخر بشيء عن معجزة. وبكت امرأة. وابتسم طفل لا يدري لماذا.

وبقيت مريم واقفة بين المدينة والطريق.

خلفها المجدل.

وأمامها يسوع.

التفتت مرّة أخرى. لم تلتفت رغبة في البقاء، بل لترى المكان الذي ترحل عنه وقد غدت إنسانًا آخر.

وعندئذ لاحظت أن يسوع توقّف.

لم يستدر بجسمه كلّه. أمال رأسه قليلًا وحسب، كأنّه يعلم أنها ما برحت واقفة عند الموضع الذي يحسم الإنسان فيه أمرًا أكبر من وجهة الطريق.

وتلاقت نظرتاهما من جديد.

أحسّت مريم للحظة أن كلّ ما حدث بينهما لم يحدث للمرّة الأولى. وأن هذه الطريق مرّت بهما في مكان ما من قبل. وأنه مشى في مكان ما أمامها، وأنها وقفت في مكان ما والسؤال نفسه عالق بحلقها.

أأمضي؟

أأبقى؟

وأنها يومئذ أيضًا، في ذلك الماضي الخافي عن العيون، اختارت الاختيار نفسه.

خطت الخطوة الأولى.

ثم الثانية.

واكتشفت أن السكون الذي فيها يسير معها.

حين انضمّت إلى الآخرين ألقى بطرس عليها نظرة عجلى ثم صرف عينيه. لم يكن ذلك احتقارًا، بل حيرة إنسان لا يدري بعد كيف يستقبل النعمة حين تنزل بسواه. أفسح يوحنا لها مكانًا. وسارت يَوَنّا إلى جانبها.

وكان يسوع يمشي أمامهم.

تبعت مريم بعينيها حركة يديه وهو يمشي. قبل قليل مسّت إحداهما حياتها وانتزعتها من الظلمة. لم يَبْدُ على معصمه شيء. لا أثر لأصابعها. لا علامة. لا دليل.

ومع ذلك علمت أن شيئًا بقي هناك.

لا على الجلد.

في موضع أعمق.

ربما فيه.

ربما فيها.

وربما في موضع بينهما، حيث تلتقي الدروب التي يسمّيها الناس مصادفة، لجهلهم باسمها الحقيقي.

كانت الشمس تهبط فوق البحيرة. وشحبت المجدل وراءهم في الغبار والضوء. وأمامهم أخذت الطريق تعرج صاعدة بين التلال.

لم تعرف مريم ما ينتظرها.

لكنها لأوّل مرّة لم تخف فقط ممّا سيأتي.

خافت أيضًا أن يكون ما سيأتي خيرًا.

وكان في ذلك الخوف ضرب عجيب من الحلاوة.

ومضت تسير.

مضت تسير، وحكاية المرأة التي عُرفت بشياطينها تبقى وراءها.

والمدينة التي طالما فرّت منها تزداد بُعدًا.

ما كانت لتدري بعد ما معنى أن تتبع نبيًّا سيبغضه الناس يومًا.

كانت الآن تمشي مشية إنسانة نوديت باسمها.

وبعيدًا أمامها كان ثمّة بستان آخر وليل آخر ولحظة أخرى، وإن ظلّت بعدُ خافية عن العيون، سيعود فيها هذا اليوم إلى يسوع بقوّة تجعله يفهم ما لم يكن الآن إلا حدسًا لديه.

أن مريم التي من المجدل لم تأتِ إليه لأول مرّة.

وأن بعض الأرواح لا يعرف بعضها بعضًا لأنها تلاقت.

بل تتلاقى لأنها كانت تعرف بعضها من قبل.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

جاء النص بعد دراسة دور مريم المجدلية في العهد الجديد. ولا يرد في أيٍّ من المصادر المتاحة وصف صريح للقائها الأوّل بيسوع. وما يرد في هذا الفصل هو التصوّر الأرجح لتعارفهما، باستثناء تفاصيل أضفتها ليلتئم هذا اللقاء مع سياق الحكاية.

٥. إلاريون: نيترا، عاصمة الاتحاد

لم تكن نيترا أقدم مدن إلاريون، لكنها كانت تتصرّف كما لو كانت كذلك.

قامت على نهر يحمل اسمها. وكان النهر يعبرها كالذاكرة، أبطأ من حركة النقل في الطبقات المعلّقة فوقه، وأهدأ من أبراج الحوسبة على ضفّتيه. بقي قلب نيترا الحجريّ العتيق محفوظًا حتى بعد أن نمت حوله القباب الشفّافة والأحياء العمودية والحدائق القنصلية ومسارات المركبات ذاتية القيادة وأبراج المراكز المالية.

في نيترا لم يكن القديم يُهدَم قطّ. كان الجديد يلتفّ حوله وحسب.

ولذلك كان في وسع المرء أن يقف في ساحة يعود بلاطها إلى سبعمئة سنة، ويرى فوق رأسه سفنًا تقلع نحو الحلقة المدارية.

في ذلك اليوم لبست المدينة حلّة الاحتفال. وكانت على واجهات المباني العامة كتابات شفّافة تتعاقب على مهل:

العمل بعد العمل. القيمة بعد الأجر. الإنسان بعد الأتمتة.

كان الاتحاد قد دعا إلى منتدى عامّ كبير حول مستقبل الدخل.

لم يكن المنتدى الأوّل حول الدخل الأساسي الشامل. فقد دارت هذه المناقشات على مدى عقود، بدأت استفزازًا أكاديميًّا، ثم غدت تجربة اجتماعية، ثم شعارًا انتخابيًّا، وأخيرًا ضرورة ما انفكّ الساسة يبحثون لها عن مهلة أخرى.

لكنّ المهلة ضاقت هذه المرّة.

تجاوز الإنتاج المؤتمت حدًّا كان الاقتصاديّون يعدّونه يومًا نظريًّا. في بعض أقاليم الاتحاد كان العاملون، بالمعنى التقليدي للكلمة، أقلّ من أربعين في المئة من البالغين. لا لعزوفهم عن العمل. بل لأنّ عملهم ما عاد مطلوبًا.

كانت الآلات تزرع وتبني وتفرز وتمسك الدفاتر وتترجم وتشخّص وتراقب وتعلّم، بل وتؤلّف الموسيقى، كلّ ذلك بكلفة متدنّية إلى حدّ أن العمل البشري أخذ يغدو اختيارًا ثقافيًّا أكثر منه حاجة اقتصادية.

لكنّ الفواتير ظلّت على البشر.

الإيجار.

الطعام.

الرعاية.

التعليم.

العلاج.

الكرامة.

لهذا التأم في نيترا ممثّلو الدول والمصارف والاتحادات التجارية والجامعات ومجالس المواطنين ودور محفوظات الأنساب وإدارات ما وراء الكوكب. كانت القاعة الكبرى لمجلس الاتحاد على شكل نصف دائرة. وفوق كلّ متكلّم يُعرض اسمه ودولته والفرع الذي ينتمي إليه ومؤسسته وما أفصح عنه من مصالح.

عند اسم بعضهم قائمة طويلة.

وعند اسم بعضهم الآخر قائمة يثير قِصَرها الريبة.

جلس جيساير دافيون في الصفّ الثالث، مدعوًّا بصفته ممثّلًا لمجالس الأسر الأوريليّة، لا بصفته سياسيًّا. لم يحبّ هذه اللقاءات. لم يكن رافضًا للسياسة، لكنّ للسياسة مقدرة غريبة على تحويل الألم الحيّ إلى مفهوم، والمفهوم إلى لجنة، واللجنة إلى تقرير لا يقرؤه أحد.

وقف في صباه ذات يوم عند سرير قريب مريض حمله أهله إلى دار دافيون. وأمره أحد شيوخ الأسرة بأن يضع يده على جبهته. أطاع جيساير، فقد كان في الرابعة عشرة وكان

الجميع ينتظرون. وحين ساءت حال الرجل اقترح أحدهم أن يتريّثوا قليلًا لعلّ موهبة الأسرة تظهر.

استدعى جيساير بنفسه وحدة طبية. نجا الرجل بعد تدخّل طبّي لم يكن جيساير حاضرًا فيه. وبعد شهر ظهر في سجلّ الأسرة سطر عن لمسة الفتى دافيون، أمّا اسم الطبيبة التي أجرت التدخّل فكان غائبًا. يومئذ فهم جيساير للمرّة الأولى ما أيسر أن تحجب حكاية معجزة عمل إنسان حقيقيّ.

وجلست إلى جواره ماريا ليورن.

لم يطُل عهدهما بالمعرفة. بل لعلّه ما كان يصحّ القول إنهما تعارفا حقًّا. رأى أحدهما الآخر في جلستَين بشأن السجلّات الصحّية، ومرّة في حديقة مدرسة سيلينيّة، حيث تحدّثت ماريا إلى الصغار عن ذاكرة الأسر. وأكثر ما علق بذاكرة جيساير من ذاك اللقاء سكوتها. لم يكن فارغًا. كان دقيقًا.

حين يتفوّه أحد بحماقة، لم تكن ماريا تبتسم من باب التهذيب.

كانت تكتفي بالنظر إليه نظرة يسمع معها كلامه هو.

سألته بصوت خافت: «أتظنّ أنهم سيحسمون الأمر اليوم؟»

نظر جيساير إلى المنصّة حيث تأهّب المتكلّم الأوّل.

«كلا. اليوم سيقول الجميع فقط لماذا لا يمكن حسمه بعد».

ابتسمت ماريا قليلًا.

«يبدو هذا كلامَ مَن جرّب».

«بل يبدو كلامَ نيترا».

اعتلى المنصّة فيرانيّ يُدعى دارين فولتر. كان رئيس المجلس النقدي للرابطة الشمالية وأحد أبرع خطباء جيله. وكان له الصوت الهادئ الذي يملكه مَن لم يُضطرّ قطّ إلى العجلة، لأن الآخرين هم الذين ينتظرونه.

استهلّ كلامه: «سيّداتي، سادتي، لا أحد في هذه القاعة يشكّك في أن الأتمتة غيّرت العقد الاجتماعي الذي قام عليه مجتمعنا. السؤال ليس هل للمواطن حصّة في إنتاج الحضارة. السؤال مَن يحسب تلك الحصّة، وبأيّ عملة، وتحت رقابة مَن، وبأيّ ثمن؟»

ظهرت على الجدران رسوم بيانية.

أربعون دولة.

ثلاثون عملة متداولة.

نطاقات أسعار الصرف.

آليّات الاستقرار.

أنظمة التصدير.

أرصدة الديون.

وتابع دارين فولتر: «ليست العملة مجرّد وحدة حساب. العملة هي دفّة الدولة. إذا سلّمنا الدفّة النقدية إلى مؤسسة واحدة على مستوى الكوكب، فقدت الأقاليم قدرتها على الاستجابة لظروفها الخاصة. خفض قيمة العملة ليس جريمة في كلّ حين. أحيانًا يكون سبيل الدولة الأضعف إلى البقاء. وتقلّب سعر الصرف ليس تلاعبًا في كلّ حين. أحيانًا يكون ما يمتصّ الصدمة».

مرّت في القاعة همهمة استحسان.

شعر جيساير بتبدّل المزاج من حوله. كان الفيرانيون يحسنون الكلام على السلطة بحيث يُسمع في الاسم معنى المسؤولية. وكثيرًا ما كانت بالفعل مسؤولية. وفي ذلك تكمن قوّتهم. لكنّ كلمة «القيمة» أثارت في ذهنه عبارة عرفها منذ الطفولة.

متى حان أوان العمل المشترك، فلا يجوز أن تمضي القيمة بعدُ في الظلّ. ما يخدم الجميع ينبغي أن يراه الجميع.

كانت من أقدم النصوص الأوريليّة الباقية. تُتلى في مجالس الأسر، وعند قطع العهود، وفي المنازعات على الملكيّة المشتركة. عدّها بعضهم وصيّة دينيّة. وقال آخرون إنها مجرّد أثر من عهد غابر، حين كان الأوريليون يدبّرون معاشهم في جماعات صغيرة يضطرّ أفرادها إلى إطلاع بعضهم بعضًا على ما ادّخروا من زاد كي ينجوا من الشتاء.

فهمها جيساير زمنًا طويلًا في معناها الروحي قبل كلّ شيء. كانت القيمة هي الحقّ والشرف والتضحية، وكلّ ما يقدّمه الإنسان لغيره من غير أن يطالب بجزاء. وكان الظلّ هو الكذب والأنانية والنيّة المضمرة.

ولم يلحّ عليه إلا في الشهور الأخيرة خاطر أن النصّ القديم ربّما كان يعني أيضًا ظاهر ألفاظه بدقّة.

لعلّ الذين كتبوه لم يقصدوا قيمة الإنسان وحدها، بل القيمة التي يخلقها الإنسان ويستأثر بها غيره أيضًا. ولعلّ العمل المشترك لم يكن مقتصرًا على معبد أو أسرة أو قرية. لعلّه كان الحضارة كلّها.

كان إلاريون ينتج بفضل معرفة تراكمت على مدى آلاف السنين. تستخدم الآلات مرافق عامّة، وطاقة الكوكب، وأبحاثًا موّلتها أجيال انقضت، وبيانات مليارات البشر. ومع ذلك تختفي القيمة الناتجة في الدفاتر الخاصّة والتحويلات النقدية وسلاسل الملكية، وفي آخر السلسلة اسم كثيرًا ما يجهله الجمهور.

ما يخدم الجميع ينبغي أن يراه الجميع.

السلطة التي تقرّر في حياة الآخرين.

والثروة التي تطرح نفسها على أنها ضرورة للمجتمع.

والربح الذي منه ينبغي أن تُحسب حصّة الجميع.

لم يكن جيساير على يقين من أن النصّ القديم يعني هذا حقًّا. فبالإمكان تسخير الكلام القديم لخدمة كلّ حاضر تقريبًا. ولهذا تحديدًا كان يقاوم الذين يصنعون من سجلات الأوريليين نبوءات معصومة.

ومع ذلك لم يستطع أن يتخلّص من شعوره بأن أوان العمل المشترك قد حان.

وبأنّ القيمة ما زالت تمضي في الظلّ.

ثم اعتلت المنصّة امرأة سيلينيّة من جنوب أمينيا، كبرى قارّات الكوكب الغربية. تحدّثت عن بشر لم تسلبهم الأتمتة أجرهم وحده، بل إيقاع أيّامهم وروابطهم الاجتماعية وإحساسهم بأن ثمّة مَن يحتاج إليهم. وعرضت شهادات رجال ونساء اشتغلوا عمرهم كلّه وصاروا الآن يسمعون أنّ الحضارة أكثر كفاءة منذ استُغني عنهم.

قالت: «حين يفقد الإنسان عمله لا يفقد الدخل وحده. يفقد الدليل على أنّ العالم يحتاج إليه. فلا يجوز أن يكون الدخل الأساسي الشامل مجرّد آلية مالية. لا بدّ أن يكون جزءًا من تعريف جديد للكرامة».

ثم جاء دور الاقتصاديّين.

ثم القانونيّين.

ثم ممثّلي أنظمة الذكاء الاصطناعي في قطاع الإنتاج.

كانت خطبهم دقيقة موزونة مرهقة.

ومالت ماريا نحو جيساير.

«أما لاحظتَ أنّهم جميعًا يتحدّثون عن حساب الحصّة، ولا أحد يريد أن يُظهر الأساس الكامل الذي تُحسب عليه؟»

أومأ جيساير.

«لأنّ أساس الحساب كاملًا هو السلطة».

«والسلطة لا تحبّ الظهور؟»

«بل تحبّه. من الأمام فقط».

نظرت إليه ماريا وأطالت النظر للمرّة الأولى.

«ومِن الخلف؟»

«هناك تكون الأيدي في العادة».

كان وزير شابّ من الاتحاد قد بدأ توًّا الكلام على المنصّة. كان أوريليًّا، لكن لم تكن الدائرة الذهبية بادية في عينيه. تحدّث عن الحاجة إلى دخل أساسي شامل منصف، وعن السلم الاجتماعي، وعن ضرورة أن يثق المواطن بمؤسساته.

كانت نيراي سايل جالسة في أعلى الشرفة الجانبية المخصّصة للمحلّلين. ومن هناك تسنّى لها الاطّلاع على طبقات البيانات الحيّة المصاحبة للنقاش. رأت الأسماء والمؤسسات والمصادر والأطراف المقابلة والصلات التاريخية والمنح والتصريحات العامّة وسلاسل الملكية، أي كلّ ما كان متاحًا.

ولهذا بالذات أقلقها ما لم يكن متاحًا.

غابت ثلاث طبقات من بيانات دارين فولتر. لم تكن بيانات غير قانونية أو سرّية بحكم القانون الجنائيّ، كانت ببساطة محميّة. مصالح تجارية. مشاورات نقدية بين الدول. عقود استشارية لم يُعلَن عنها.

وضعت نيراي عليها علامات.

لم يكن لديها ما يدعوها إلى الاشتباه في فولتر بشيء محدّد. لكن كلّ ما يُبنى لحجب الأشياء عن الأنظار يبدأ على هذا النحو: باستثناء، قبل أن يكون ثمة جريمة.

وفي القاعة تحتها أخذ النقاش يبلغ صلب المسألة.

قالت إحدى اقتصاديّات الاتحاد: «الدخل الأساسي الشامل بغير وحدة نقدية لن يكون متكافئًا. ستصرف كلّ دولة حصّة مختلفة، وتحسب إنتاجًا مختلفًا، وتخفي أرباحًا مختلفة، وتعدّل عملتها بمقتضى حاجتها السياسية».

وردّ فيرانيّ من اتحاد ماليّ: «والدخل الأساسي الشامل في ظلّ وحدة نقدية سيكون إعانة مركزيّة ينالها المواطن في مقابل طاعته لآلة محاسبة تشمل الكوكب».

وجاء صوت من الصفوف الخلفية: «كلّا. سيكون حصّة».

صمتت القاعة.

لم يكن الصوت لسياسيّ. كان لجيساير.

لم ينوِ الكلام. ولم يطلب الإذن به. خرجت العبارة وحسب قبل أن يتسنّى له كبحها.

ظهر اسمه على الجدران: جيساير دافيون، مجلس أسر أوريولا، مندوب مستقلّ.

استدار بعض الحضور.

كان شيء في القاعة يتبدّل دائمًا عند اسم دافيون. أدقّ من أن يُدوّن في المحضر، لكنّ للأساطير القديمة ظلالًا طويلة.

وأذن له رئيس الجلسة بالكلام.

فوقف جيساير.

عادت كلمات النصّ القديم تلوح له لحظة. لم يرَها منقوشة في حجر ولا منسوخة في سجلّ عائلة، بل كأنّها معلّقة فوق القاعة بين الرسوم البيانية والأسماء والمعطيات.

متى حان أوان العمل المشترك، فلا يجوز أن تمضي القيمة بعدُ في الظلّ.

لعلّهم ضيّقوا من معنى تلك الكلمات قرونًا. وربّما ظلّوا ينتظرون أن تتحقّق بالروح، وأمامهم مسألة محاسبية لا تنقص من قداستها صلتُها بالمال.

قال: «الإعانة ما تجود به السلطة من فوق. أمّا الحصّة فحقّ للإنسان بمجرّد كونه جزءًا من الحضارة. إذا أنتجت الآلات قيمةً من معارف كوكب بأسره ومرافقه وتاريخه وطاقته، فهذه القيمة لا تنشأ في أيدي ملّاك الآلات وحدهم. إنها تنشأ من إرث الجميع».

وصمت هنيهة.

«جاء في أحد أقدم النصوص الأوريليّة: متى حان أوان العمل المشترك، فلا يجوز أن تمضي القيمة بعدُ في الظلّ. ما يخدم الجميع ينبغي أن يراه الجميع».

تململ بعض مَن في القاعة. كان بعضهم يعرف العبارة. أمّا غيرهم فلم يسمع إلا كلامًا دينيًّا قديمًا أُقحم في نقاش سياسيّ حديث.

وتابع جيساير: «ظننت زمنًا طويلًا أنّ النصّ لا يتناول إلا أخلاق الفرد. ولم أعد على يقين من ذلك اليوم. غدت الحضارة عملًا مشتركًا بمعنى أقرب إلى الحرفيّة مما تخيّله أسلافنا. فآلاتنا تنتفع بمعرفة مشتركة. واقتصادنا يقوم على مرافق مشتركة. وإنتاجنا ثمرة عمل الأحياء والأموات. إن كان له أن يخدم الجميع، فينبغي أن يستطيع الناس أن يروا أين تتولّد قيمته، وإلى أين تذهب، ومَن يبتّ في شأنها».

وجال بنظره في البيانات المعروضة على الجدران.

«لا يمكن حساب الحصّة على غير بصيرة. إذا لم يرَ المواطن الأساس الذي تُحسب عليه حصّته، فما يناله ليس العدل. إنما ينال ما يُهدّئ خاطره».

ساد القاعة صمت.

لم يكن صمت رضا. كان أشبه بصمت ينذر بالخطر.

وابتسم دارين فولتر ابتسامة خفيفة.

لم يكن فيها ازدراء، بل ارتياح رجل سمع أخيرًا طرحًا كبيرًا بما يكفي ليشرع في تفكيكه.

قال: «حسنًا. فلنأخذ بتفريقك بين الإعانة والحصّة. بل فلنأخذ أيضًا بحقّ الإنسان في أن يعرف ما حُسبت منه حصّته. فماذا تقترح إذن؟ وكيف ستجعل المعطيات التي يقوم عليها الحساب كاملة وشفّافة وقابلة للتحقّق في آن؟»

اختفت رسوم أسعار الصرف عن جدران القاعة. وحلّ محلّها مخطّط لإنتاج الكوكب.

الطاقة.

الأرض.

المصانع المؤتمتة.

البحث المموّل من المال العام.

براءات الاختراع الخاصّة.

محفوظات البيانات.

التعدين خارج الكوكب.

ملايين العُقَد تصل بينها خطوط تعبر الدول والعملات وهياكل الملكية. كان بعضها واضحًا، وبعضها يضيع في متاهة صناديق ومصارف وشركات لا يعرف الجمهور أصحابها.

تأمّلها جيساير لحظة.

قال: «لا يمكنكم حساب حصّة الجميع من بيانات لا يعرفها إلا نفر مختار. ولا يمكنكم التحقّق من عدالة نظام ما دامت أجزاؤه الحاسمة محجوبة خلف السرّ المصرفيّ أو السرّ التجاريّ أو السيادة النقدية».

اعترض فولتر: «ما زال هذا دون الاقتراح».

«إنه بدايته».

رفع جيساير بصره إلى المخطّط.

«لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ. إن أردنا أن نعرف مقدار ما تولّد من قيمة على إلاريون، ومَن خلقها ومَن استأثر بها وما نصيب الآخرين منها، فعلينا أن نرى حركتها».

ارتفعت في القاعة بضعة أصوات مكتومة.

وتابع جيساير: «لهذا ينبغي أن تتّسم التدفّقات المالية في الكوكب كلّه بقدر كبير من الشفافية. ولا أعني نفقات الدول وحدها، ولا حسابات الساسة وعقود المؤسسات العامّة وحدها. يجب أن نتمكّن من رؤية حركة رؤوس الأموال الخاصّة الكبيرة أيضًا. صلات الملكية. المستفيدين النهائيّين. التحويلات بين العملات. تمويل النفوذ السياسيّ. شراء المرافق والأراضي ووسائل الإعلام والأبحاث والتقنيات التي يمكن أن تغيّر حياة الملايين».

في شرفة المحلّلين توقّفت نيراي عن الكتابة.

كانت تتوقّع اقتراحًا لتحسين السجلّات أو تشديد التدقيق أو توحيد أسلوب الإبلاغ عن الإنتاج. أمّا جيساير فمسّ بسؤاله الحدّ نفسه الفاصل بين العامّ والخاصّ في عالم المال.

حافظ فولتر على هدوئه.

«كلّ التدفّقات المالية؟»

«قلت بقدر كبير».

«ما أريح هذا التحفّظ».

«وما أشدّ الحاجة إليه. مَن يدفع ثمن طعام أو دواء لا يقرّر بذلك مصير الكوكب. أما مَن يشتري شبكة مستشفيات أو يسيطر على إمدادات الطاقة أو يشرع في تمويل حركة سياسية، فلم يعد يقرّر لنفسه وحدها».

«ومَن يرسم الحدّ بين الصغير والكبير؟»

«المجتمع».

تبسّم فولتر.

«المجتمع لا يقرّر شيئًا. تقرّره مؤسسات تتكلّم باسمه».

«إذن يجب أن تكون هي أيضًا شفّافة».

سرت في القاعة ضحكة قصيرة متوتّرة.

وتركها فولتر تخفت.

ثم سأل: «وماذا عن الخصوصية؟ أتريد لكلّ مواطن أن يرى حسابات كلّ مواطن آخر؟ أين يتسوّق، ومَن يعين، ومَن يدعم، وأين يتردّد، وماذا عساه يخجل منه؟»

بقي السؤال معلّقًا فوق القاعة.

كان أبسط من جميع الأسئلة التي سبقته. ولهذا بالذات كان أخطر.

وسكت جيساير هنيهة.

ثم قال: «كانت للخصوصية غاية. وما زالت لها. إنها تحمي أخصّ شؤون الإنسان، وأسرته وصحّته وعلاقاته ومعتقده، والفسحة التي لا يُطلب منه فيها أن يفسّر للجمهور شيئًا».

«فأنت توافقني إذن».

«ليس تمامًا».

أسند جيساير راحته إلى ظهر المقعد الذي أمامه.

«إن جانبًا كبيرًا ممّا نسمّيه خصوصية مالية لم ينشأ لحماية الإنسان من سائر الناس. بل نشأ لحمايته من السلطة. من دولة فاسدة أو حاكم مستبدّ أو مؤسسة تستطيع أن تقلب كل معلومة عليه».

ونظر إلى مندوبي الدول الجالسين في الصفوف الأمامية.

«في مجتمع تغيب عن دولته الشفافية، قد تكون الخصوصية آخر ملجأ للحرية. أمّا إذا أردنا أن نقيم مجتمعًا تكون فيه السلطة نفسها شفّافة، فعلينا أن نسأل: أهَذا الظلّ نفسه ما زال يحمي الضعفاء، أم أنّه بات يحمي الأقوياء في أكثر الأحوال؟»

لم يضحك أحد هذه المرّة.

وتابع جيساير: «الإنسان العاديّ لا يريد للغرباء أن يتتبّعوا كلّ ما يشتريه.

لكن حين تتجاوز الثروات والمعاملات حدًّا معيّنًا، تكفّ الخصوصية عن أن تكون شأنًا يقتصر على حياة الفرد الخاصّة».

«لماذا؟»

«لأن الثروة العظيمة ليست مجرّد شأن خاصّ».

تململ نفر من ممثّلي الاتحادات التجارية في القاعة.

«الثروة العظيمة قدرة على تغيير الأسعار وشروط العمل وملكية الأرض وشكل المدن والبحث والإعلام، وأحيانًا القوانين أيضًا. وعند حدّ ما، لا تعود المسألة ما يملك الإنسان وحده، بل ما يستطيع أن يفعل بغيره بما يملك».

عقد فولتر ذراعيه على صدره.

«ولهذا يجب أن يفقد خصوصيته؟»

«لهذا ينبغي أن يكون مدى سلطته ظاهرًا».

«فرق في التسمية وحسب».

«كلّا. ليست خصوصية المرء وسلطته شيئًا واحدًا».

ظلّ صوت جيساير هادئًا.

«لا أحد بحاجة إلى أن يعرف ماذا طلبتَ لعشائك، أو مَن أرسلت إليه هديّة شخصية، أو أين قضيت ليلتك. لكن من حقّ المجتمع أن يعرف أنك استحوذتَ من خلال عشرة صناديق على حصّة حاسمة في إمداداته المائية. ومن حقّه أن يعرف أن الشركة التي تموّل حزبًا سياسيًّا يملكها صاحب الائتلاف نفسه الذي يُسند إليه الحزب العقود العامّة. ومن حقّه أن يعرف أنّ ربحًا سُجّل في دولة، تولّد في دولة أخرى، واختفى في ثالثة».

ظهرت على الجدران سلسلة ملكية حُجبت عنها الأسماء. كان تتبّع ملكية منشأة واحدة يمرّ بأربع عشرة شركة وستّ دول وثلاث ولايات قضائية خارج الكوكب، حتى يضيع المالك الفعليّ في صندوق لا تُتاح بياناته للعامّة.

«خصوصية الكبار كثيرًا ما تحمي الآلية».

أمعن فولتر النظر في المخطّط.

«وأنت تريد لكلّ إنسان أن يرى كلّ آلية؟»

«أريد لكلّ سلطة لها شأن أن تخلّف أثرًا ظاهرًا».

«لحظة بلحظة؟»

تردّد جيساير للحظة.

«في وقت لا يحوّل الشفافية إلى مجرّد تنقيب عن الآثار».

سرى القلق في القاعة.

قال فولتر: «هي إذن ليست مجرّد شفافية محاسبية بعد انقضاء السنة. تريد أن تظلّ التدفّقات المالية الكبرى مرئية وهي تجري».

«نعم».

«ومَن سيراقبها؟ الدولة؟ المجلس النقديّ؟ مصرف الكوكب؟»

«لا واحدة من هذه المؤسسات بمفردها».

«فمَن إذن؟»

أجال جيساير بصره في القاعة.

«لا أعرف بعدُ على وجه الدقّة كيف ينبغي أن يكون شكل هذا النظام. لكنّي أعرف الشكل الذي يجب ألّا يكون عليه. لا يجوز أن يكون ملكًا لحكومة واحدة أو مصرف واحد أو دولة واحدة أو عِرْق واحد. ولا يجوز أن يعمل عمل عين ترى الجميع وتظلّ هي محجوبة عن العيون».

نظرت إليه ماريا.

تجاوز جيساير الدفاع عن شفافية الأموال. كان يبحث عن وسيلة يجعل بها فعل النظر نفسه شفّافًا.

وتابع: «يجب أن يخلّف كلّ اطّلاع أثرًا. حين تتحرّى مؤسسة عن إنسان، عليه أن يعرف أيّ مؤسسة تحرّت عنه. وحين يصنّف نظام تحليليّ معاملة على أنها تنطوي على مخاطر، يجب أن يكون في الوسع فحص القواعد التي بنى عليها قراره. وحين يُعفى أحد من الإفصاح، يجب أن يكون وجود الإعفاء ظاهرًا، وأن يُعرف مَن أجازه ومتى ينقضي».

انحنت نيراي إلى الأمام قليلًا.

لم يعد هذا مجرّد سجلّ عاديّ. كان نظامًا تتبادل فيه الأطراف الرؤية. فالأموال يراها المراقبون، والمراقبون مرئيّون لمَن يخضعون لمراقبتهم.

لكنّ فولتر لم يتراجع.

سأل: «والمجرم؟ أيجب أن يعلم هو أيضًا أن أحدًا يتحرّى عنه؟»

«نعم».

مرّت في القاعة همهمة.

«إذن سينقل أمواله».

«إن استطاع نقلها بحيث تختفي، فالنظام قد أخفق أصلًا».

«سيتلف الأدلّة».

«يجب أن يستحيل محو أثر تدفّق ماليّ سُجّل بالفعل».

«سيُخفي غايته».

«إخفاء النيّة ممكن على الدوام. لكنّنا لا نستطيع حماية السلطة لمجرّد أن الشفافية لا تقرأ الأفكار».

صمت فولتر.

وللمرّة الأولى غابت ابتسامته.

«أتدري ما الذي تصفه؟»

«لا أدري تمامًا».

«إنك تصف نهاية السرّ المصرفيّ».

«ربّما، بصورته الراهنة».

«ونهاية جانب كبير من السرّ التجاريّ».

«إذا كان السرّ التجاريّ يستر سلطانًا يُمارَس على حياة الآخرين، فربّما ذاك أيضًا».

«وربّما نهاية السيادة النقدية للدول أيضًا».

نظر جيساير إلى رموز عشرات العملات المعروضة فوق المنصّة.

«إن كانت السيادة النقدية تعني الحقّ في إخفاء المعطيات التي يُحدَّد على أساسها مستوى معيشة مواطني الدولة نفسها، فنعم».

حلّ الصمت في القاعة.

وهذه المرّة لم يكن ينذر بالخطر فحسب.

كان صمتَ عداء.

أحسّ جيساير بتبدّل النظرات في الصفوف الأمامية. قبل قليل كان ممثّل أسرة أوريليّة عريقة تقضي اللياقة أن يُصغى إليه. والآن صار الرجل الذي شكّك في الصلاحيّات التي تقوم عليها دول ومصارف واتحادات تجارية بأكملها.

وجلس فولتر.

همّ رئيس الجلسة أن يعطي الكلمة لمندوب آخر، فلم يطلبها أحد.

بقي على الجدران مخطّط التدفّقات المالية للكوكب.

ملايين الخطوط.

بعضها واضح.

وبعضها متقطّع.

وكثير منها ينتهي في العتمة.

مالت ماريا نحو جيساير.

«أتدرك أنك أغضبتَ للتوّ كلّ مَن يملك في هذا الكوكب مالًا أكثر منك، إلا قليلًا؟»

جلس جيساير.

«ليس بالأمر الشاقّ. لم أملك يومًا مالًا كثيرًا».

«لا أحسب تواضعك سيهدّئهم».

نظر إليها.

«أتظنّينني تماديت؟»

ووجّهت ماريا عينيها إلى المواضع المظلمة من المخطّط.

قالت: «كلّا. أظنّ أنك لم تزد بعدُ على أن دللتَ على الاتّجاه».

عاليًا فوقهما، فتحت نيراي سجلًّا تحليليًّا جديدًا.

لم تُدخل فيه اسم جيساير في عداد المشتبه بهم، ولا بوصفه خطرًا سياسيًا. اكتفت بتدوين عبارتين.

إن كان لحصّة الإنسان من القيمة المشتركة أن تكون عادلة، فلا يمكن أن تبقى ثمّة قيمة خفيّة.

وإن كان للسلطة المالية أن تخضع للرقابة، فينبغي أن نرى حركة المال ونرى معها كلّ من ينظر إليها.

حفظت السجلّ.

ولم يخطر لها أنها ستعود إليه بعد بضع سنين.

في زمن لن يعود السؤال فيه هل يجوز للقيمة أن تمضي في الظلّ.

بل كم من الأرواح يستطيع الظلّ أن يُخفي.

في الطرف المقابل من القاعة، في المقاعد المخصّصة لضيوف الاتحادات المالية، كان يجلس أرييين كورفيث.

لم يكن ينظر إلى جيساير نظرة مستمع إلى خطيب.

انتقلت عيناه لحظة إلى ماريا، ثم عادتا إلى الرجل الواقف وسط القاعة. وفي نظرته ما هو أمسّ بالنفس من خلاف سياسيّ أو قلق رجل مال قد تضرّ الفكرة الجديدة بمصالحه.

كان أرييين ينظر نظرة مَن أصابته الطعنة في خاصّة نفسه.

وعلى بُعد بضعة مقاعد من أرييين جلس كايل ثورن.

لم يظهر اسمه فوق أيّ مقعد من مقاعد المتكلّمين. ولم يمثّل دولة ولا حزبًا سياسيًا، ولم يكن ينطق رسميًا باسم أيّ بيت ماليّ. ومع ذلك عرفه رؤساء المصارف ومديرو أكبر الصناديق، وأولئك الذين يبتّون في أمر الساسة الذين تُفتح أمامهم طريق السلطة.

لم يقتصر كايل في أثناء كلمة جيساير على مراقبة الخطيب.

كان يراقب القاعة.

عرف أن المعنى الحقيقيّ للكلام كثيرًا ما يتجلّى في وجوه الذين أصابهم، قبل أن يتجلّى في وجه الذي نطق به. رأى قلق مديري الصناديق، وتحفّظ ممثّلي المجالس النقدية، والتسلية الصامتة التي وجدها في الحديث سياسيّون واثقون من أن أفكار جيساير ستتبخّر قبل أن تبلغ القوانين.

أمّا هو فلم يجد في الأمر تسلية.

حين قال جيساير إنّ ما يخدم الجميع ينبغي أن يراه الجميع، انتاب كايل خوف من الحدّة حتى خُيّل إليه للحظة أنّ القاعة صمتت من أجله وحده.

قلّة عرفوا ذلك عنه، لكن شطرًا كبيرًا من سلطته ما تأسّس إلا على استحالة رؤيته كاملًا دفعةً واحدة. عرفت المصارف صناديقه وجهلت ملّاكها الفعليّين. وعرف الساسة مَن يتبرّعون لمؤسساتهم وجهلوا مصدر أموالهم. ورأى مديرو الأحزاب الحسابات ولم يروا السلاسل التي تصل بينها. وعرف الموظّفون الشركات كلًّا على حدة، وجهلوا البيت الذي تنتهي إليه جميعًا.

لم تكن الشفافية لتقتصر على استحداث قواعد.

بالنسبة إلى كايل كانت تعني انكشاف أمره.

ستُظهر الثروة المخبّأة وراء الأمناء والمؤسسات. والأموال التي أفلتت من الضرائب. والأحزاب التي تتباغض في الظاهر وتغذّيها في السرّ المنابع ذاتها. والصفقات التي تتزيّا بزيّ القانون، وقد أتى رأس مالها الأوّل من مواضع لا يجري ذكرها في المجالس المحترمة.

لم يطرح جيساير مجرّد اقتراح لإصلاح الاقتصاد.

لقد نطق، من غير أن يدري، بالحكم على عالم أمضى كايل عمره كلّه في بنائه.

ارتاع كايل حتى كاد يموت رعبًا.

لم يكن يظنّ أنّ الشفافية ستأتي غدًا. فبالإمكان إبطاء القوانين، وإغراق اللجان بالأعمال، وإنهاك الجمهور. ما أفزعه شيء آخر: كانت كلمات جيساير بسيطة، وفي مقدور الناس أن

يفهموها. والفكرة التي يفهمها الناس لا يتسنّى قمعها إلا إلى أن ينطق بها إنسان هم على استعداد لتصديقه.

ثم تنبّه إلى أرِيين.

رأى عضلات فكّه تتشنّج وهو ينظر إلى جيساير. وعينيه تتوقّفان هنيهة عند ماريا. وملامحه تتغيّر كلّما أولت القاعةُ جيساير اهتمامَها.

لم يكن أرِيين يخاف فكرة جيساير وحدها.

كانت له مشكلة مع جيساير نفسه.

صرف كايل بصره قبل أن ينتبه أرِيين إلى أنّ أحدًا يراقبه.

كان رئيس الجلسة يشكر جيساير على مداخلته من على المنصّة. وعادت القاعة على مهل إلى جدول أعمالها، كأنّ شيئًا ذا بال لم يقع. كان المتكلّم التالي ينتظر دوره، وعلى الجدران كانوا يُعِدّون رسومًا بيانية جديدة للعرض.

لكنّ كايل ثورن عرف أن بعض اللحظات يستطيع المرء تمييزها قبل أن تعي هي نفسها.

كان جيساير دافيون قد سمّى للتوّ عالمًا ستُضطرّ فيه السلطة إلى أن تكشف عن يديها.

وعرف كايل ما الذي سيُعثَر عليه على يديه هو.

وعلى بُعد بضعة مقاعد منه جلس رجل من الواضح أنه يتوق إلى إسكات جيساير لأسباب أشدّ خصوصية بكثير.

حفظ كايل اسم أرِيين في ذاكرته.

في طريقها من المنتدى شغّلت ماريا نشرة المساء. على إحدى القنوات ظهر تحت وجه جيساير عنوان: «دافيون يريد أن يرى كلّ حساب». وعلى ثانية شرحوا الفرق بين شراء طعام وامتلاك مستشفى. أمّا الثالثة فاستضافت ممثّلًا للمصارف زعم أنّ الحدّ بين الأمرين لا يمكن رسمه يومًا بيقين.

في تسجيل قصير جاء صوت جيساير: «تحدّثت عن مدى السلطة». فقاطعته المذيعة: «أي عن مدى الخصوصية إذن؟»

أغلقت ماريا البثّ. كان لها معه في الصباح موعد عند دار السجلّات الصحّية. وقد عرفت بأيّ سؤال ستبدأ.

٦. الأرض: قبلة يهوذا

ظلّ يهوذا زمنًا طويلًا يؤمن بأن المرء يستطيع أن يغلب نفسه إن أحكم إغلاقها عليه.

عرف كلام الشريعة منذ طفولته. عرف الطاهر والنجس. وعرف العار الذي لا يجهر به أحد، بل يحمله الجسد جرحًا خفيًا. كان يسمع في المجمع رجالًا يتحدثون عن خطايا الأمم، وعن مدن الفجور، وعن الأهواء التي يبغضها الله. وفي كل مرة كان يطأطئ رأسه أكثر من سواه بقليل، حتى لا يرى أحد كم يُصغي.
لم يأذن لنفسه قطّ أن يسمّي ما يحيا في داخله.

وما كان ذلك عن جهل. بل على العكس. لقد عرف منذ صباه، حين أخذ يلحظ ما لم يكن له أن يلحظه: قفا رجل انحنى على عمله، وقوّة السواعد وهي تجذب الشباك، وصوت معلّم يكبره سنًّا يخاطبه برفق يخصّه به دون سواه. كان ذلك يباغته في كل مرة مثل لفحة حرّ، ويعقبه الرعب على الفور.

لا.

إلّا هذا.

إلّا أنا.

تعلّم أن يعيش من غير أن يبدو عليه شيء. تعلّم أن يقول كلامًا موزونًا، وأن يقف منتصبًا، وألّا يُطيل النظر في عيون الناس إلّا بقدر ما يأمن على نفسه. تعلّم أن يزدري الضعف، لأنّ أشدّ ما كان يرعبه ضعفه هو. حين يمازح الرجال بعضهم بعضًا في شأن النساء، كان يبتسم في اللحظة التي تليق فيها الابتسامة بالضبط. وحين يتحدّثون عن الزواج، كان يصرف الحديث إلى المال، إلى روما، إلى الهيكل، إلى كلّ ما له وزن ولا تفوح منه رائحة سرّ.
ثم لقي يسوع.

وكلّ ما ظلّ سنين يُطبِق عليه بحجر في داخله بدأ يتحرّك.

لم تكن رغبة الجسد أول الأمر. هكذا فسّر يهوذا ذلك لنفسه على الأقل. في البدء كان توقيرًا. ثم إعجابًا. ثم امتنانًا. ثم شيئًا ظلّ في وسعه أن يسمّيه وفاءً. كان يسوع ينطق اسمه وكأن لا نجاسة تختبئ وراءه. وكان ينظر إليه من غير نفور ولا سخرية ولا تلك الريبة الغريبة التي يعرفها الرجال والتي خافها يهوذا عمره كلّه.

ومن هنا جاء الخطر.

لم تكن طهارة يسوع صلبة كجدار من حجر، بل مشرعة. في حضرتها لا يشعر المرء بالذنب وحده، بل يشعر أيضًا بأن في الإمكان أن يُرى على حقيقته كلّها ويخرج سالمًا. في ذلك وجد الآخرون عزاءهم. وأمّا يهوذا فوجد فيه تجربة.

كانت الأيام العادية أشقّ الأيام عليه.

في المساء عند النار، حين يجلس يسوع مُتعَبًا وينزلق رداؤه عن كتفه ويرسم الضوء وجهه في سكون. في الصباح حين يغسل يديه ويجري الماء على معصميه. وفي الطريق حين يميل نحوه أحد التلاميذ ليسأله شيئًا فيدنو منه أكثر ممّا يحتمل يهوذا. عندئذ كان يُحسّ شيئًا ينهض في صدره فيسحقه من فوره بصلاة.

يا ربّ، اصرف عنّي هذا العار.

لكنّ العار لم ينصرف.

إنّما تعلّم الصمت.

ذات مساء، بعد يوم طويل في قرية تزاحم فيها المرضى وأصحاب الحاجات حول يسوع، بقي يهوذا ساهرًا. كان الآخرون ممدّدين تحت السقيفة، ينامون نوم الرجال المنهكين الثقيل. كان بطرس يشخر. واستدار توما في نومه نحو الحائط. وأمّا يوحنّا فكان مضطجعًا وقد رفع رداءه إلى ذقنه، وادعًا كأنّ الدنيا لم تعاده يومًا.

ظلّ يهوذا يراقبه هنيهة، وكره فيه تلك السكينة.

ثم رأى يسوع وهو يخرج.

فتبعه.

قال لنفسه إنّ عليه أن يكلّمه في أمر المال. في مسير الغد. في الخطر الذي يتعاظم من حولهم. كان ثمّة على الدوام سبب معقول. فالمرء يحتاج إلى أسباب معقولة حين يقوده شيء يخاف أن يعترف به.

وقف يسوع عند جدار منخفض خلف البيت. وكان الليل مخيّمًا على الأرض، دافئًا حالكًا. نبح كلب من بعيد. وتعالى من وراء الزيتون صرير حشرة. أسند يسوع يديه إلى الحجر وأحنى رأسه، كأنّه يصلّي حتى في صمته.

قال يهوذا: «يا معلّم».

فالتفت يسوع.

«يا يهوذا».

أصابه وقع الاسم في الصميم، كما كان يصيبه في كل مرة. كأنّ يسوع ينطقه مجرّدًا من كلّ تلك الطبقات التي كوّمها يهوذا على نفسه.

قال يهوذا: «ما ينبغي لك أن تبقى وحدك».

نظر إليه يسوع في هدوء.

«وأنت؟»

«أنا لا أنام».

«أرى ذلك».

ضحك يهوذا ضحكة قصيرة قاسية.

«أنت ترى دائمًا».

صمت يسوع.

أحسّ يهوذا أنّ عليه أن ينصرف. كان ذلك لا يزال في وسعه. يكفي أن يقول شيئًا عابرًا، ويستدير، ويعود إلى الآخرين، ثم يمضي في الصباح كأنّ شيئًا لم يكن. هكذا أفلت بنفسه طوال عمره: كان يتراجع في اللحظة الأخيرة.

لكنّه في تلك الليلة كان قد سئم قفصه.

سأل: «أتعرف ما توقظه في الناس؟»

لم يتحرّك يسوع.

«وماذا أيقظتُ فيك؟»

ضاق حلق يهوذا.

لم يكن في السؤال اتّهام. وذلك بالذات ما جعله أشقّ وطأة. سأله يسوع كأنّه يرى أمامه، عوضًا عن الخطيّة، إنسانًا واقفًا على شفير هوّة.

«لا أريد أن أتكلّم في ذلك».

«فلماذا جئت إذن؟»

أشاح يهوذا ببصره. إلى الجدار. إلى الظلمة. إلى يديه.

«لأنّني ما عدت أقوى».

تبدّل وجه يسوع. رقّت ملامحه من غير أن يداخلها ضعف.

«علامَ لم تعد تقوى؟»

زفر يهوذا زفرة حادّة.

«على ما في داخلي».

ساد صمت للحظة، من العمق بحيث سمع جريان دمه في أذنيه.

وتابع: «عمري كلّه أصلّي لكي يفارقني. وعمري كلّه أحاذر. أين تقع عيناي. وماذا أقول. وأين أضع يديّ. وأين أقف. ومَن أتفادى. وممّن أمتنع عن الاقتراب. حسبتُ أنّني إن جئت إليك طهرت».

أصغى إليه يسوع من غير أن يقاطعه.

قال يهوذا: «فإذا بالأمر يشتدّ عليّ. بقربك يشتدّ».

أطرق يسوع كأنّ العبارة أوجعته.

«يا يهوذا...»

فقاطعه: «لا. لا تنطق اسمي هكذا. لا تنطقه كأنّه ما زال في وسعي أن أكون شيئًا آخر».

«في وسعك».

«ليس في وسعي».

«في وسعك أن تقف عند هذا الحدّ».

ارتجف يهوذا. ولم يتبيّن أَمِن غضب كان ذلك أم من ألم أم من رجاء.

«تقول ذلك قول مَن لا يعرف ماذا يعني أن يحمل الإنسان في داخله شيئًا محرّمًا».

«أنا أعرف معنى التجربة».

«هذه لا تعرفها».

خرجت الكلمات أحدّ ممّا أراد. لكنّه لم يستردّها.

وقف يسوع قبالته في سكون عميق.

وقال: «لستُ ديّانك في هذه اللحظة».

ضحك يهوذا، وكانت ضحكته هذه المرّة توشك أن تكون يأسًا.

«أنت بالذات ديّاني. فلو نظرت إليّ باشمئزاز لهان الأمر. ولو طردتني لعرفتُ ما أنا. لكنّك تنظر إليّ كأنّني لا أزال واحدًا منكم».

«وأنت منّا».

«لا على النحو الذي أريده».

وما إن تلفّظ بها حتى أفزعته كلماته.

لم يعد له سبيل إلى التراجع.

وامتلأ وجه يسوع حزنًا.

«يا يهوذا، ليس هذا هو الطريق».

«أيّ طريق؟»

«أن تريد امتلاك إنسان».

«أنا لا أريد أن أمتلكك».

لكنّه كان يعرف أنّه يكذب حتى وهو يقولها.

أراد نظرته. أراد صوته. أراده لنفسه وحده. أراد أن يكفّ يسوع ولو مرّة عن كونه للجميع: للمرضى وللأطفال وللنساء ولبطرس وليوحنّا ولإسرائيل كلّه ولله. أراد لحظة واحدة تكون له وحده.

وتلك الرغبة التي طال حبسها خلعت عنها حياءها قبل أن يُدركها العقل فيكبحها.

خطا نحوه خطوة.

فرفع يسوع يده، أقرب إلى مَن يرسم حدًّا منه إلى مَن يتهدّد.

«الزم مكانك».

لكنّ يهوذا ما عاد يصغي. أو لعلّه سمع، ومن أجل ذلك بالذات مضى. أمسكه من كمّه. لم يمسكه بعنف، بل بإلحاح الغريق الذي يتشبّث حتى بمَن قد يجرّه إلى القاع معه.

همس: «مرّة واحدة وحسب».

«لا».

كانت الكلمة واضحة. هادئة. قاطعة.

وفي تلك اللحظة اسودّت الدنيا في عيني يهوذا.

انحنى نحوه وقبّله.

خلت القبلة من كلّ ما يمتّ إلى التحيّة أو التوقير الأخويّ بصلة. أودع فيها يهوذا جوعه ويأسه ووحدته واشمئزازه من نفسه ورغبته في أن يُقبَل وغضبه من اضطراره إلى استجداء القبول. قبّله بعنفوان، ثم قبّله ثانية، كأنّ اللمسة الأولى أقصر من أن تحمل كلّ ما أودعه فيها. فدفعه يسوع عنه.

دفعه بثبات، من غير ضربة ولا كراهية، حتى أدرك يهوذا في الحال: ما من شقّ ينفذ منه، ولا مجال، ولا «لعلّ».

استقرّت يدا يسوع على كتفيه.

«كفى».

كان يهوذا يتنفّس بمشقّة. وجهه محموم وشاحب في آن. تلمع عيناه، لكنّه لم يبكِ. ليس بعد.

قال: «إذن صدق ظنّي».

«لا».

«أنت ترفضني».

«أرفض ما فعلتَه».

«الأمران واحد».

«بينهما فرق».

فانفجر يهوذا: «عندك أنت! دأبك أن تفصل بين الأشياء كي تبقى طاهرًا. الخطيّـة والإنسان. الرغبة والفعل. الرحمة والحدّ. أمّا أنا فلستُ منقسمًا. حين تدفع هذا عنك تدفعني أنا».

ظلّ يسوع ممسكًا بكتفيه، وبقي صوته خافتًا.

«لستَ ما يمزّقك».

«لكنّني أنا الذي يرغب».

«وليس على إنسان أن يهب نفسه لرغبتك».

وقعت تلك العبارة بينهما وقوع الحجر.

ظلّ يهوذا ينظر إليه.

وفي تلك اللحظة أدرك الحدّ بكلّ معناه. كان منتصبًا أمامه راسخًا كباب موصد.

انهار أوّلًا كلّ ما فيه إلى الداخل. ثم أخذ يتحوّل.

صار العار غضبًا.

وصار الغضب اتّهامًا.

وصار الاتّهام كبرياء جريحة.

تراجع خطوة.

فأفلته يسوع.

وقال له بإلحاح أكبر هذه المرّة: «يا يهوذا، لا تبقَ وحدك مع هذا كلّه».

لكنّ يهوذا لم يسمع سوى الإهانة. سمع في تلك العبارة: أنت ضعيف. أنت خطر. أنت بحاجة إلى إعانة. سمع كلّ شيء إلّا ما كان فيها حقًّا.

وردّد ساخرًا: «لا تبقَ وحدك مع هذا كلّه. ومع مَن أبقى؟ معك؟ بقربك؟ إلى جانبك؟ واحدًا في جملة الكثيرين؟»

صمت يسوع.

واستطرد يهوذا وقد قسا صوته: «أهذه محبّتك؟ أن تعطي المرء من النور ما يكفي ليرى بؤسه، وتضنّ عليه بما يكفي من الدفء ليقيه التجمّد؟»

«ما تطلبه منّي ليس محبّة».

انتفض يهوذا كأنّ ضربة أصابته.

«فسمّه إذن».

لم يجب يسوع من فوره.

وفي برهة الصمت تلك بلغ تحطّم يهوذا منتهاه. فقد كان يعلم أنّ يسوع يستطيع أن يتلو عليه كلام الشريعة. أن يدينه كما يُدان الناس في المجامع، وفي أحاديث الرجال الخفيّة، وفي نظرات الواثقين من طهارتهم. كان يستطيع أن ينبذه، أن يسمّيه نجسًا مقزّزًا منحرفًا. لكنّ يسوع لم يفعل.

ولم يهوّن ذلك على يهوذا شيئًا.

بل على العكس.

فإن لم يحكم عليه يسوع بأنّه وحش، لم تبقَ ليهوذا حجّة يستبيح لنفسه بها أن يصير وحشًا. وإن لم يلعنه، ظلّ كلّ ما يفعله من تلك اللحظة منسوبًا إليه وحده.

ذلك ما لم يُطِق احتماله.

قال يهوذا بصوت خفيض: «أنت قاسٍ».

خطا يسوع نحوه خطوة.

«لا».

«بلى. تعرف ما يتوق المرء إلى سماعه وتحجبه عنه. وتعرف ما يحطّمه وتتركه واقفًا. وتعرف أنّه محتاج إليك وتقول له: قف».

قال يسوع: «نعم، إن كان المضيّ سيجرحك ويجرحني».

ضحك يهوذا. ولم يبقَ في ضحكته الآن شيء من اللين. لم يبقَ إلّا المرارة.

«لا تخف. لن ألمسك بعد اليوم».

«لا تذهب حاملًا غضبك».

«فماذا أحمل إذن؟»

أطال يسوع النظر إليه.

«الحقيقة».

انغلقت ملامح يهوذا.

«احتفظ بحقيقتك للذين تأذن لهم أن يجلسوا إليك أقرب منّي».

فهم يسوع.

«لا شأن ليوحنّا بهذا».

قال يهوذا: «طبعًا. لا شأن لأحد قطّ بشيء من هذا. إلّا أنا».

واستدار.

«يا يهوذا».

توقّف من غير أن يلتفت.

«اسمك لا يعني العار».

وقف يهوذا في الظلمة، وشعر بالدموع تزاحم عينيه أخيرًا. ابتلعها بعنف حتى أوجعه حلقه.

قال: «منذ هذه الليلة سيعنيه».

ثم مضى.

وبقي يسوع عند الجدار وحده.

عاد يهوذا بطيء الخطى كيلا ترتعش ساقاه. وحين دخل تحت السقيفة كان الآخرون لا يزالون نيامًا. لم يتغيّر العالم. ظلّ بطرس يشخر. ولم يتزحزح توما. وكان يوحنّا نائمًا ووجهه وادع يكاد يكون وجه طفل.

اضطجع يهوذا في مكانه، لكنّه لم يغمض عينيه.

كان صدره يشتعل.

أخذ في البدء يردّد كلمات يسوع ليفهمها.

أرفض ما فعلتَه.

لستَ ما يمزّقك.

ليس على إنسان أن يهب نفسه لرغبتك.

ثم أخذ يبدّلها.

أرفضك.

أنت نجس.

لن يحبّك أحد أبدًا كما تريد.

وفي النهاية لم تبقَ إلّا عبارة واحدة بسيطة قاسية، تصلح لأن يتشبّث بها ليحتمل الألم:

لقد أهانني.

راقت له تلك العبارة أكثر ممّا راقت له الحقيقة.

فإن كان يسوع قد أهانه، لم يعد يهوذا مجرّد إنسان تعدّى حدًّا. غدا هو المتضرّر. المظلوم. المطعون. وصار من حقّه أن يغضب.

والغضب أخفّ حملًا من العار.

منذ تلك الليلة أخذ يتغيّر فيه شيء.

بقي في الظاهر التلميذ نفسه. نهض صباحًا، وحمل الكيس، وأحصى القطع النقديّة، وأجاب بما يقتضيه السؤال. وحين تكلّم يسوع أصغى. وحين ارتحلوا مضى معهم. لكنّه صار يترجم في سرّه كلّ حركة من حركات يسوع إلى لغة الرفض.

حين كان يسوع يضع يده على مريض، يرى يهوذا اللمسة التي حُرمها.

وحين يبتسم لطفل، يرى الحنان الذي تجاوزه.

وحين يجلس يوحنّا قريبًا منه، يرى المكان المحرّم عليه إلى الأبد.

وحين كان يسوع يتكلّم عن محبّة الأعداء، لم يكن يهوذا يحسّ إلّا بيقين يزداد فيه رسوخًا: ما من قسوة أعظم من أن تُحبّ الجميع على نحو لا يستطيع معه أحد أن يقول: هو لي.
لم يثر فيه الإحباط من فوره عاصفة تصخب. غلى أوّلًا في صمت. تحت الكلمات. تحت الخدمة. تحت القطع النقديّة المعدودة. تحت الرأس المحنيّ في الصلاة.
لكنّه كان هناك.
ينتظر اللحظة التي يقدر فيها أن يسمّي نفسه عدلًا.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

هذا الفصل من نسج الخيال المحض. وقد جاء من شعوري بأنّ الدافع الماليّ لخيانة يهوذا، كما يصوّره الكتاب المقدّس، دافع سطحيّ للغاية. فلا بدّ أن يحمل الإنسان على خيانة معلّمه شيء أمسُّ بكيانه وأعمق فيه من مجرّد كسب المال. وليس من مقصدي إطلاقًا أن أربط بين المثليّة والخيانة أو ما شابه. اخترت أن أدرج هذا التصوّر في تلك القصّة الأشهر لأنّ دافع يهوذا هذا بدا لي عميقًا بما يكفي لأن يؤدّي إلى خيانة كهذه. كانت المثليّة في زمن يسوع تُعدّ ضربًا من النجاسة وأمرًا خليقًا بالازدراء، وكان مَن كُتِب لهم هذا المصير يلقَون مشقّة بالغة في مجتمع ذلك العصر. لذلك بالذات بدا لي مثل هذا الدافع محتملًا. أمّا ما جرى في حقيقة الأمر فمسألة أخرى، ومن العسير جدًّا اليوم أن نستعيد معرفتها. والرواية في جانب كبير منها خيال، وعلى هذا المحمل ينبغي أن يُؤخذ هذا الفصل أيضًا.

٧. إلاريون: الدائرة الذهبية

لم يكن بيت آل دافيون في نيترا.

كان بعيدًا عن العاصمة، في أوريولا، في ديار الأوريليين القديمة، حيث تنفرج الوديان عن هضاب خضر واسعة، ويطول تشبّث ضباب الصباح بالأرض حتى ليُخيّل إليك أنّ البلاد تأبى أن تستيقظ دفعة واحدة.

أضفت الجدران العتيقة على بيت آل دافيون هيئة تكاد تكون هيئة حصن.

وفيه قديمًا حُسمت أمور مسّت حياة أجيال برمّتها، فكان للمكان أيضًا ثقل مقرّ من مقرّات السلطة.

على أنّ آل دافيون رأوا فيه، قبل كلّ شيء، بيتًا بالمعنى العميق للكلمة: مكانًا تحمي جدرانه الأجساد وتحمي الذاكرة معها.

عُلّقت في البهو الكبير صور الأسلاف. لم تكن كلّها أمينة الملامح. بعضها أعيد رسمه من أوصاف تناقلها الناس، وبعضها من خيال الفنّان، وبعضها من القدم بحيث استحالت ألوانه إلى صمت بنّيّ. غير أنّ الرسّام حاول في كلّ صورة أن يقتنص العينين.

الدائرة الذهبية.

تارة ناصعة.

وتارة لا تكاد تُرى.

وتارة لا يعدو حضورها أن يكون حدسًا.

شقّ جيساير دافيون البهو على مهل. كان يتحاشى تلك الصور في صباه. يشعر كأنّها تترقّب منه شيئًا. لا إنجازًا، ولا طاعة، ولا مجدًا. بل ما هو أشقّ: معنى.

وكان المعنى أثقل من الواجب.

عرف منذ طفولته ما يُروى عن آل دافيون من قديم الحكايات. قيل إنّ أسلافهم الأوائل كانوا يُسكّنون المرض بلمسة. وإنّهم في سني الجفاف كانوا يقفون عند الأنهار فيعود إليها الماء. وإنّ منهم مَن كان يبصر الموت مقبلًا قبل أوانه، فيحوّل خطو إنسان عن طريقه فيخطئه الموت. وإنّ الطبيعة كانت تُصغي إليهم، لا كما تُصغي إلى خادم، بل كما تُصغي إلى مَن لا حاجة به إلى الاستمالة والإقناع.

لم يكن جيساير يؤمن بتلك الحكايات.

لكنّه لم يستطع أيضًا أن يسخر منها كلّ السخرية.

ففي الحياة أشياء يأبى العاقل أن يسمّيها حقيقة، ومع ذلك لا يجرؤ إذا جنّ الليل أن يولّيها ظهره.

عند المساء، مكث جيساير في المكتبة.

فتح سجلًّا عائليًّا عتيقًا كانت أمّه قد نهته عن قراءته قبل أن يبلغ الرشد. لا لأنّه يضمّ أسرارًا من أسرار القوّة، بل لما حوته صفحاته من الآمال المعقودة عليه، وهي أكثر ممّا ينبغي.

في إحدى الصفحات خبر عن جدّ بعيد اسمه آسير دافيون.

لمّا حلّت الحمّى بالوادي الأسفل طاف آسير من بيت إلى بيت. لم يقل إنّ الموت لن يجيء. اكتفى بالقول إنّه لا ينبغي أن يجيء وحده. شهد كثيرون أنّهم برئوا بلمسته. وقال آخرون إنّما كان الموت أهدأ عليهم. لا نعرف الحقيقة. جلّ ما نعرفه أنّ عبارة بقيت في أسرتنا منذ ذلك الحين: لا تمضِ وحدك.

مرّر جيساير أصابعه على الخطّ العتيق.

لا تمضِ وحدك.

كانت العبارة بسيطة. أبسط من أن تكون أسطورة.

أغلق الكتاب.

وفي تلك اللحظة غمرته ومضة غريبة لأرض غريبة، بدت له أشدّ حقيقة من مجرّد ذكرى أو خيال.

غبار.

شمس بلون آخر.

ماء عند الشاطئ.

أيدي صيّادين.

خشب.

وصوت امرأة ينطق اسمه، لكنّه ليس اسم جيسايير.

تلاشت الصورة قبل أن يمسّها العقل.

ظلّ جيسايير جالسًا لا يتحرّك.

ثم ضحك. ضحك من نفسه بصوت خافت.

وقال في الفراغ: «البيوت القديمة! ما أبرعها دائمًا في غرس ظلال غريبة في رأس الإنسان».

لكنّه حين قام وأطفأ النور، ألقى نظرة أخرى على الكتاب.

وعلى العبارة التي ظلّت تتوهّج فيه حتى في العتمة.

٨. الأرض: يوم الفصل

هبط المساء على الأرض رويدًا، كأنّ الضوء نفسه يتردّد في مفارقة التلال المطلّة على البحيرة. جلس التلاميذ حول يسوع في سكون يختلف عن السكون المألوف في أعقاب سفر طويل. كان فيه شيء أثقل، كأنّ كلّ واحد منهم يحسّ أنّ ما سمعوه ذلك اليوم من كلام لا يخصّهم وحدهم، بل يخصّ كذلك كلّ مَن سيأتي بعدهم من البشر.

كان يسوع ينظر إلى بعيد. وجهه ساكن، لكنّها لم تكن سكينة هيّنة. لم تكن سكينة مَن يجهل الألم، بل سكينة مَن قبله قبل مجيئه.

قال أخيرًا: «سيأتي يوم ينكشف فيه كلّ ما كان خافيًا. قد يُخفي الإنسان قصده عن أخيه، ويستر ذنبه بالكلام، ويتظاهر بالبِرّ أمام الجموع. لكن لا شيء يخفى على الله. في ذلك اليوم ينفتح قلب الإنسان كإناء وُضع أمام النور».

ولزم التلاميذ الصمت.

وتابع يسوع: «يأتي ابن الإنسان في مجد أبيه ومعه الملائكة. وتُجمع أمامه الأمم. لا بحسب الاسم الذي دُعي به أحدهم، ولا بحسب ما رفع صوته باسم الربّ، بل بحسب ما حمل في داخله وما عملت يداه. فقد كان الجائع بينهم فأطعمه بعضهم. وكان العطشان بينهم فسقاه بعضهم. ووقف الغريب عند أبوابهم فآواه بعضهم. ومَثُل العريان أمام أعينهم فكساه بعضهم. وكان أمامهم المريض والسجين فجاء إليه بعضهم».

رفع بطرس رأسه. «يا ربّ، تتكلّم وكأنّ الإنسان يلقى الله حيثما لقي ضعيفًا».

نظر إليه يسوع. «وأين غير ذلك تريدون أن تلتمسوه؟ أفي الهيكل حيث يرى كلّ أحد تقواكم؟ أم عند الذبيحة تقدّمونها على مرأى من الكهنة؟ أقول لكم إنّ مَن أغلق قلبه في وجه إنسان يتألّم فقد أغلقه في وجهي. ومَن انحنى إلى أصغر هؤلاء، ارتفع عمله أمام الآب صلاةً».

كان القلق يملأ عيني يوحنّا. شابًّا كان، لكن من غير خفّة الصبيان. كثيرًا ما أوقدت كلمات يسوع نارًا في داخله، غير أنّ لفحها اليوم كان مختلفًا. لم يشبه الرجاء بقدر ما أشبه سؤالًا يخشى أن يَهَبه صوتًا.

وتابع يسوع:

«حينئذ يُقام بعضهم عن اليمين وبعضهم عن اليسار. فأمّا الذين أحبّوا الرحمة وإن لم يعرفوا لها اسمًا، فيُدعون إلى الحياة. وأمّا الذين رأوا الألم فتعاموا، وسمعوا البكاء فتصامّوا، وأُوتوا السلطان فاستعملوه في إذلال الضعفاء، فأولئك يمضون إلى الظلمة التي اختاروها لأنفسهم».

هوت الكلمات بينهم كما يهوي حجر في بئر عميقة.

مسح أندراوس وجهه بيده. وقطّب توما كأنّما يلتمس في نفسه موضعًا يستطيع أن يسأل منه يسوع من غير أن يجدّف.

وكان هو مَن تكلّم أخيرًا.

قال على مهل: «يا معلّم، ألي أن أسألك؟»

«سلْ يا توما».

«تكلّمنا عن الحياة وعن الظلمة. عن الثواب والعقاب. عن النار التي لا تنطفئ. لكنّ الإنسان ضعيف. يخطئ أحيانًا عن جهل، وأحيانًا عن خوف، وأحيانًا لأنّه هو نفسه جريح. فإن كان عمره قصيرًا وذنبه ذنب بشر، أفلا يكون العذاب الأبديّ عقابًا أفدح ممّا تحتمله عثرات البشر؟»

تحرّك بعض التلاميذ في قلق. ورمق بطرس توما بنظرة حادّة كأنّه يريد إسكاته، لكنّ يسوع رفع يده.

وقال بهدوء: «دعوه يتكلّم. فإنّ السؤال الذي يخشى أن يغادر الشفتين يبقى في القلب كالقيح».

خفض توما عينيه. «لا أريد أن أعاند الله يا ربّ. لكنّي خائف. إن لم يكن للعدل نهاية، فأين الرحمة إذن؟»

طال صمت يسوع.

سرى الهواء في العشب، ولم يُسمع للحظات سوى حفيف الورق وأصوات بعيدة لأناس يعودون من الحقول. ولمّا تكلّم يسوع كان صوته أخفت ممّا كان.

«الرحمة لا تُبطل الحقّ يا توما. والحقّ ليس عدوّ الرحمة. لو رأى أبٌ ابنه يتناول النار بيده، أتراه يقول له: افعل ما تشاء فإنّي أحبّك؟ أم يزجره بصوت شديد لينقذ يده؟»

أجاب توما: «بل يزجره بشدّة».

«فإن بكى الطفل فزعًا من صوت أبيه؟»

«لضمّه أبوه إلى صدره».

قال يسوع: «نعم. ولكن بعد أن يُفلت النار من يده».

صمت توما.

والتفت يسوع إلى سائر تلاميذه أيضًا.

«اسمعوني جيّدًا. ما جئت بينكم لمجرّد أن أعزّي الذين يلتمسون الله من قبل. جئت لأضع حجرًا في أساس الدهور الآتية. سيحمل كلامي أناس لم يروني. سيحدّثون به أبناء أبنائهم. وسيدوّنونه ويفسّرونه، ويكسرون به كبرياء الأقوياء وخوف الضعفاء. ولذلك لا بدّ له أن يثبت».

ثم أمعن النظر في توما.

«الشريعة التي تُلين جانبها للشرّ تقسُ على ضحاياه. إن قلتم للقاتل إنّ فِعلته مجرّد خطأ، فبماذا تجيبون أمّ القتيل؟ وإن قلتم لغنيّ ترك جائعًا يموت عند بابه إنّ ذنبه هيّن، فبماذا تجيبون الجائع؟ وإن قلتم لصاحب سلطان إنّ قسوته يطويها النسيان بسهولة، فبماذا تجيبون الذين نزفوا تحت وطأتها؟»

حبس يوحنّا أنفاسه.

وتابع يسوع: «يحتاج الناس إلى أن يسمعوا أنّ لأفعالهم وزنًا. لا اليوم وحده. ولا أمام قاضي المدينة وحده. ولا في أعين الجيران وحدهم. بل أمام الأبديّة. فكثيرون لا يردعهم بكاء ضعيف. ولا يردعهم الخزي. ولا يردعهم ضميرهم، وقد تعلّموا كيف يُخرسونه. لكنّهم قد يرتدعون حين يعلمون أنّ شيئًا لن يُنسى».

رفع توما عينيه. «أفالخوف إذن هو الذي يسوقهم إلى الخير؟»

قال يسوع: «الخوف بداية لمَن لم يقدر بعدُ على المحبّة. لكن لا ينبغي له أن يكون النهاية. يخاف الطفل أوّلًا أن يهوي في الهاوية، فيبتعد عن حافتها. ثم يدرك أنّ الحياة ثمينة، فلا يعود محتاجًا إلى الخوف وحده. كذلك أمر الشريعة».

سأل بطرس متفكّرًا: «فمَن الذي يثبت إذن، يا ربّ؟ فإنّ البارّ نفسه يتعثّر».

ورقّت نظرة يسوع.

«مَن يسقط وينهض ليس كمن يتّخذ من سقطته منزلًا. ومَن يخطئ ويبكي خطيّته ليس كمن يخطئ ويعلّم سواه أن يسمّي الظلمة نورًا. والآب يرى الفرق بين الضعف وقساوة القلب. بين الجرح والكبرياء. بين ضالّ يستغيث، وضالّ يجرّ وراءه الآخرين أيضًا».

وألحّ توما: «لكنّك تتحدّث عن عذاب أبديّ. وما أثقل هذه الكلمة!»

أومأ يسوع وقال: «هي ثقيلة. وينبغي لها أن تكون ثقيلة. فالشرّ ثقيل هو أيضًا. لو رأيتم كلّ ما يُسيله الإنسان من دموع أخيه، ما وعظتم الناس بالدينونة في كلام خفيف».

ارتجف صوته برهة، من حزن عميق لا من ضعف.

«أرى الأجيال الآتية. أرى ملوكًا سيقتلون باسم النظام. وأرى كهنة سيحبّون سلطانهم أكثر ممّا يحبّون الله. وأرى أغنياء سيبنون بيوتهم على ظهور الفقراء. وأرى أناسًا سيعلمون أنّ سواهم يتألّم ثم يقولون: ليس ذلك من شأني. لذلك ينبغي لي أن أتكلّم بما يحفظ كلامي من أن يغدو زينة. لا بدّ له أن يكون كالسيف الموضوع أمام الضمير».

ثم أضاف يسوع:

«ولا تنسوا هذا أيضًا: ما جئت أطلب الضالّين لأفرح بهلاكهم. وما جئت لأدعو أبرارًا، بل خطاةً إلى التوبة. ما دام الإنسان يتنفّس فالباب أمامه. وما دام قلبه قادرًا أن يتحرّك فالآب يدعوه. أمّا مَن يأبى النور إلى الأبد فهو يختار الظلمة. والظلمة التي يؤثرها الإنسان على الحقّ تصير في النهاية مسكنه».

وضع توما يديه على ركبتيه. «فالدينونة إذن أكثر من عقاب ينزل بالمرء من خارج نفسه؟»

قال يسوع: «أجل. الدينونة أيضًا انكشاف ما صار إليه الإنسان. مَن قضى عمره يتعلّم المحبّة يجد في الله وطنه. ومَن قضى عمره يتعلّم كراهية النور يجد فيه لهيبًا. إنّها شمس واحدة تُفتّح الزهرة وتُيبس الجذر المقتلَع».

استوقفت هذه الكلمات ألسنة التلاميذ أكثر ممّا فعل الوعيد بالنار.

نهض يسوع. كانت العتمة قد تكاثفت، وظهرت فوق الأرض أولى النجوم.

«لذلك أقول لكم اسهروا. لا لتعيشوا في قلق، بل لئلّا تغفلوا عن الخير. أعطوا خبزًا ما دامت لكم أيدٍ. واغفروا ما بقي لكم وقت. وارجعوا إلى الآب ما دمتم تسمعون صوته. فسيأتي يوم لا يسأل فيه الإنسان ما ظنّ الناس به، بل ماذا صار إليه قلبه».

ثم التفت إلى توما وعاد صوته خافتًا.

«وأنت، لا تخف من السؤال. فمَن يسأل طلبًا للحقّ أقرب إلى الملكوت ممّن لا يصمت إلّا خوفًا».

أومأ توما، لكن ظلًّا بقي في عينيه. لم يكن ظلّ إنكار، بل ظلّ إنسان أدرك أنّ عدل الله أعظم ممّا تمنّى، وأنّ رحمة الله أعمق ممّا جرؤ على رجائه.

في تلك الليلة لم يعاجل النوم أحدًا منهم.

كلّ منهم راح يفكّر في اليوم الذي ينفتح فيه قلب الإنسان.

وكلّ منهم كان يفتّش في سرّه ليرى أيّهما أغلب عليه: النور أم الظلمة.

ملاحظات المؤلّف على الفصل:

هذا الفصل من نسج الخيال المحض. كتبته ردًّا على تصوّر يختزل في الأبيض والأسود مسألة الفصل بين الذين يُحكم عليهم بالهلاك الأبديّ والذين يُعطَون الحياة الأبديّة.

٩. إلاريون: الطبقة

كانت نيراي سايل تبدأ عملها قبل أن تستيقظ نيترا.

ليس لأنّ ذهنها أصفى في الصباح. كان الوقت عندها سيّان. فالمال يعبر من دولة إلى أخرى أيًا يكن موقع شمس إلاريون، والأنظمة المؤتمتة لا تعرف الكلال ولا العطلات ولا مواعيد إغلاق المصارف.

كانت تأتي باكرًا لأنّ الممرّات في مثل تلك الساعة تكون خالية.

وفي الصمت يسهُل التمييز بين السؤال المهمّ وذاك الذي لا ميزة له سوى إلحاحه.

لم يكن مبنى الهيئة المشتركة بين الدول للنزاهة المالية والمخاطر النظامية في قلب نيترا التاريخيّ. قام على ضفّة النهر الشمالية، بين مقرّات المجالس النقديّة ومراكز الحوسبة التابعة للاتحاد والحدائق الدبلوماسيّة. مبنى منخفض ممتدّ، يكاد الناظر إليه من الخارج لا يرى فيه نافذة. قال مهندسوه إنّهم أرادوا أن يعبّروا به عن السكينة والحياد.

أمّا الذين كانوا يخشون الهيئة فرأوا فيه حصنًا.

وكان معظم سكّان إلاريون يعرفون الهيئة باسم أقصر.

الطبقة.

نشأ الاسم بين المحلّلين. فكلّ مصرف أو شركة تأمين أو إدارة ضرائب أو بورصة لا يرى من الحياة الماليّة إلّا طبقته الخاصّة. يعرف المصرف الحساب، لكنّه قد يجهل المالك الفعليّ للشركة التي يعود إليها. وتعرف مصلحة الضرائب الإقرار، لكنّها لا ترى المال الذي انتقل إلى دولة أخرى. ويعرف السجلّ اسم المدير المفوّض، لا اسم الرجل المستتر وراء الصندوق الذي يسيطر على الشركة.

فإذا عبر المال الحدود دخل في ولاية قضائيّة أخرى.

تارة يُخلّف وراءه تقريرًا.

وتارة لا يُخلّف إلّا خلاصة.

وتارة لا شيء.

كانت مهمّة الطبقة أن تضع هذه الطبقات الناقصة بعضها فوق بعض، وتبحث عن المواضع التي لا تعود حوافّها فيها متطابقة.

لم تكن نيراي شرطيّة.

لم يكن لها أن تقبض على أحد أو تستدعيه أو تتّهمه. ولم يكن لها أن تدخل مصرفًا وتقلب حساباته على هواها. ولم يكن لها أن تطالب ملاذًا ضريبيًّا باسم أحد الملّاك لمجرّد أنّها تريد أن تعرفه. فإذا تبيّن لها نمط ينذر بخطر، أعدّت مذكرة تحليليّة ورفعتها إلى السلطات التي يسعها أن تطلب مزيدًا من البيانات من محكمة أو من دولة أخرى.

وكثيرًا ما كانت تنتظر شهورًا بطولها.

أحيانًا يصل الجواب بأنّ المعلومة المطلوبة لا وجود لها.

وفي أحيان أخرى تكون موجودة، لكنّ القانون المحلّيّ يحظر الإفصاح عنها.

وكان يحدث أن تُحجم الدولة عن الردّ من أصله.

ولذلك لم تكن الطبقة ترى كلّ مال إلاريون. جلّ ما كانت تراه هو ما أُلزمت جهة ما بإبلاغها به، أو أُتيح للعموم، أو أمكن تحصيله في سياق تحقيق بعينه.

كانت المصارف تُرسل إليها بلاغات عن عمليّات غير معتادة. لا سجلّات كاملة لجميع العملاء، بل الحالات التي حملت أنظمتها أو موظّفيها على الاشتباه في أنّ مالًا مجهول المصدر، أو أنّه يتحرّك على وجه غير مألوف، أو أنّ له صلة بخطر معروف من قبل.

وقدّمت الإدارات الضريبيّة بيانات إجماليّة.

والسجلّات التجاريّة أسماء المالكين الرسميّين.

والأحزاب السياسيّة كشوفًا إلزاميّة بتبرّعاتها ونفقاتها.

أظهر كلّ مصدر منها وجهًا آخر من الواقع.

ولكلٍّ منها بقعة يعجز عن الإبصار فيها.

كانت نيراي تصل بين معلومات لا تبدو للوهلة الأولى ذات صلة. بلاغ من مصرف. تبدّل مالك شركة. قرض من دولة أجنبيّة. هبة لمؤسّسة. أتعاب استشاريّة. إعانة لإعمار إقليم. وثيقة تأمين لا يوافق فيها اسم المستفيد اسم المالك.

قلّما كان الفساد يعترف بنفسه في خانة بيان الدفعة.

وكثيرًا ما اختفى تمويل النفوذ السياسيّ وراء كلمات من قبيل الاستشارات أو التعليم أو التنمية الإقليميّة أو استطلاع الرأي العامّ.

لم تكن نيراي تبحث عمّن اشترى شيئًا باهظًا.

كانت تبحث عن السلطة.

جلست إلى مكتبها ووضعت كفّها على سطحه المطفأ اللمعان. تحقّق النظام من هويّتها. وظهرت في الفضاء أمامها قائمة بالبلاغات الجديدة التي وصلت أثناء الليل.

لم تكن خريطة لجميع الأموال.

كانت خريطة للشبهات.

اشتمل بعض البلاغات على بيانات دقيقة. ولم يزد بعضها الآخر على وصف أساسيّ للمعاملة وبيان للسبب الذي دعا المصرف إلى الإشارة إليها. وفي العمليّات العابرة للحدود، كان يُحجب ما يدلّ على الهويّة في قسم من البيانات إلى أن ينشأ مسوّغ قانونيّ لإتاحته.

فتحت نيراي الملفّ الأوّل.

تحويل مرتفع القيمة على نحو غير مألوف بين شركتي مقاولات. والتفسير مرفق: بيع معدّات آليّة. بدت المستندات جديرة بالتصديق.

تعلّق الملفّ الثاني بمؤسّسة تلقّت تبرّعًا كبيرًا قبل الانتخابات بقليل. غير أنّ الدفعة أُعلنت على الملأ وجاءت من متبرّع معروف.

في الثالث نقص اسم المالك النهائيّ للجهة المستفيدة.

وضعت عليه نيراي علامة تطلب استكماله.

وعند البلاغ السابع عشر توقّفت.

كان من مصرف في مدينة سارور الساحليّة. نبّه المصرف إلى سلسلة إيداعات نقديّة لشركة محليّة واحدة. وكان اسم النقد على إلاريون يشمل وحدات رقميّة لحاملها يمكن تداولها من دون اتصال دائم بالشبكة. ويتثبّت المصرف عند إيداعها من أصالتها من غير أن يتعرّف هويّة كلّ مَن حملها قبله. ولم يكن في قيمة الودائع في حدّ ذاتها ما يلفت. فالشركة من النوع الذي يُؤلَف فيه مثل هذا الإيراد.

كانت تدير مطعمًا.

لم يرتب المصرف لأنّه عرف العدد الحقيقيّ لزبائن المطعم. وإنّما ارتاب لأنّ الودائع زادت زيادة ملحوظة على مدى بضعة أشهر، في حين بقيت ملامح الشركة الأساسيّة على حالها. المقرّ نفسه. العدد نفسه من الحسابات المسجّلة في المصرف. لا قرض للتوسّع. ولا إعلان عن بيع المشروع أو تغيير نشاطه.

لعلّه مجرّد نجاح.

أو طاهٍ جديد.

أو تقييمات طيّبة.

أو عقد لتوريد الطعام إلى منشأة أخرى لم يعلم به المصرف.

لهذا لم يكن البلاغ اتّهامًا. كان مجرّد تنبيه إلى أنّ المصرف لم يستطع أن يقدّم تفسيرًا مقنعًا لتغيّر سلوك العميل.

فتحت نيراي قيد الشركة في السجلّ العامّ.

كان المالك الرسميّ رجل أعمال من أهل المدينة. وعلى مسافة درجتين فوقه في هيكل الملكيّة وجدت صندوقًا إقليميًّا. وفوق الصندوق شركة مسجّلة في ثيرينيث، إحدى دول الأرخبيل الجنوبيّ الصغيرة.

لم يكن سجلّ ثيرينيث يُفصح عن أسماء المالكين النهائيّين.

وما كان في ذلك ما يخالف القانون.

فقد أقامت ثيرينيث جانبًا كبيرًا من اقتصادها على السرّيّة الماليّة.

نظرت نيراي إلى اسم المنشأة.

فيستا سارور سبعة.

كانت تعرف العلامة التجاريّة. تدير فيستا مطاعم ومتاجر صغيرة ودور ضيافة وورش تصليح في مساحة واسعة من الكوكب. بعضها تابع مباشرةً للشركة الأمّ، وبعضها لأصحاب تراخيص محليّين. وكانت هياكل ملكيّتها تختلف من دولة إلى أخرى.

ولم يكن في إبلاغ مصرف عن إيداعات غير مألوفة في مطعم واحد ما يدين الشبكة كلّها.

فتحت نيراي الملخّص الليليّ لنظام التحليل وطلبت استرجاع البلاغات السابقة المرتبطة باسم فيستا.

عثر النظام على مئات القيود. تناول معظمها شؤونًا عادية: نزاعات مع المورّدين، وتحويلات أُدخلت بياناتها على نحو خاطئ، وسرقة رموز تفويض، وتدقيقات ضريبيّة، وقروض لم تُسدّد.

ورصد بينها نمطًا منحه تقييمًا منخفضًا: إيداعات من المنشآت تليها تحويلات إلى الخارج، ومالك نهائيّ مجهول. غير أنّه لم يكن يُبصر ما في صناديق القبض، ولا ما في الحسابات المحميّة وراء حدود الدول. وفي ترتيب الحالات آليًّا جاء هذا النمط متأخّرًا جدًّا عن التنبيهات العاجلة.

بقيت أربع عشرة حالة.

من ستّ دول.

موزّعة على أربع سنوات.

وكانت السلطات المحليّة قد أغلقت كلّ ملفّ على حدة أو تركته من غير إجراء آخر. في إحدى الحالات قدّمت المنشأة تفسيرًا مفاده أنّها كسبت زبائن جددًا. وفي أخرى رأى المصرف أنّ درجة الخطر لا تكفي. أمّا الثالثة فتوقّفت عند حدود دولة رفضت تقديم معلومات عن الشركة المتلقّية.

بيد أنّ الحالات كلّها حملت اسم فيستا.

كانت في نظر النموذج مجموعة قرائن ضعيفة التشابه. لكنّ نيراي تعرف الفرق بين أربع عشرة مصادفة وأربع عشرة هيئة لا ترى كلّ منها إلّا ملفّها المغلق. ففتحت البلاغات الأصليّة وراحت تقرأ مسوّغات تقديمها.

وانحنت نيراي إلى الأمام.

لم تكن ترى إيرادات الشبكة بأكملها. ولا صناديق قبضها ولا عدد روّاد منشآتها. ولم يكن في متناولها دفتر حساباتها الداخليّ، ناهيك عن الأنظمة التي تُريها مَن اشترى ماذا في كلّ منشأة.

كلّ ما رأته أنّ عددًا من المصارف في دول مختلفة نبّه، كلّ على حدة، إلى سلوك متشابه.

يظهر النقد في منشأة محليّة.

ويُدرَج في الحسابات إيرادًا عاديًّا.

وبعد قليل يذهب قسم من المال إلى شركات تقدّم خدمات ذات مسمّيات مبهمة.

استشارات.

إدارة العلامة التجاريّة.

الترويج الإقليميّ.

رسوم الترخيص.

ومن هناك يتشتّت الأثر بين دول أخرى.

«صباح الخير».

كان الصوت من ورائها صوت تارين فوس.

لم تلتفت نيراي.

«سنرى إن كان كذلك».

دنا تارين من مساحة العمل. كان طويلًا نحيلًا، يتحرّك بسكينة مَن لم يسعَ يومًا إلى أن يُثبت لأحد أنّه يمسك بزمام الموقف. وهو أقدم عهدًا بالطبقة من نيراي، ويعرف الأنظمة المصرفيّة في فاسيريا معرفة لا تُكتسب من كتب القانون وحدها.

كان فيرانيًّا.

اعتبر بعض الزملاء ذلك ميزة حين يبحثون في أمر البيوت المصرفيّة الفيرانيّة. وعدّه آخرون مجازفة. أمّا نيراي فكانت ترى الرأيين على القدر نفسه من السذاجة.

سأل: «ماذا لديك؟»

«أربعة عشر بلاغًا في أربع سنوات».

«تبدو لي فاتحة اجتماع طويل جدًّا».

«ستّ دول. مصارف مختلفة. وملّاك رسميّون مختلفون».

تأمّل تارين البيانات.

«وما وجه الاشتراك؟»

«فيستا».

ابتسم لحظة.

«أكلت عندهم».

«هذه معلومة لا تنفعني».

«أستطيع أن أشهد بأنّ طعامهم لا يفسّر نجاحهم الماليّ».

دفعت نيراي بالبلاغ الأوّل إليه.

«الودائع تتزايد. ثم يخرج بعض المال لقاء خدمات استشاريّة وتراخيص. وأسماء المالكين النهائيّين للجهات المستفيدة محميّة».

«وهذا قد لا يعني شيئًا».

«قد لا يعني».

«ربّما كانت الشبكة تتّبع نموذج عمل موحّدًا».

«ربّما».

«أو طريقة موحّدة لنقل الأرباح».

«ذلك أيضًا».

فتح تارين الطبقة الزمنيّة وقارن بين تواريخ الدفعات. كانت بعض المنشآت تُرسل الأموال إلى الوسطاء أنفسهم. وبعضها الآخر يتعامل مع شركات مختلفة يشرف على حساباتها المدقّق نفسه أو يتولّى شؤونها المدير نفسه.

قال: «هذا لافت».

«ما هو؟»

«تُعطي هذه الشركات انطباعًا بأن لا صلة بينها. لكنّ مكتبًا واحدًا أعدّ وثائقها».

«لعلّه مكتب يقدّم خدماته للسوق كلّها».

«لعلّه».

سكت الاثنان برهة.

هكذا كانت تبدأ معظم القضايا في الطبقة. لا بيقين، بل بسلسلة احتمالات لكلّ منها تفسير بريء.

إلى أن تكثر تلك الاحتمالات أكثر ممّا ينبغي.

قال تارين: «نحتاج إلى الدفاتر الداخليّة لمنشأة واحدة على الأقلّ».

«ليس عندنا سند قانونيّ لذلك».

«عندنا بلاغ من مصرف».

«عندنا شبهة لدى مصرف. لا دليل على جريمة».

«يسعنا أن نطلب من سارور إجراء تدقيق ضريبيّ».

«يسعنا أن نطلب منهم أن ينظروا في إجراء تدقيق ضريبيّ».

اتّكأ تارين على المكتب.

«وبعد ستّة أشهر سيُعلموننا بأنّ كلّ شيء مطابق للأنظمة المحليّة».

«على الأرجح».

«وثيرينيث لن تفصح لنا عن اسم المالك».

«ليس من غير قرار قضائيّ. ولن نحصل على قرار قضائيّ من غير شبهة أقوى».

نظر تارين إلى السلسلة التي أمامهما.

«إذن نحتاج إلى بيانات لنثبت أنّنا بحاجة إلى بيانات».

«ذلك أساس التعاون بين الدول».

كبّرت قائمة الشركات المترابطة. في نهاية معظم سلاسل الملكيّة اسم مدير أو مكتب محاماة أو صندوق.

ولم يكن في أيّ منها إنسان.

لم تستطع نيراي أن تقول إنّ فيستا تغسل الأموال. بل لم تكن تعرف إن كانت الإيداعات الغريبة إيرادات حقيقيّة أو احتيالًا ضريبيًّا أو مجرّد أثر لنموذج عمل لم تفهمه المصارف.

لم يكن لديها سوى سؤال يتكرّر.

ونظام لا يأذن لها أن تصل إلى الجواب ما لم تكن تعرفه سلفًا.

قالت: «افتح ملفّ عمل. بلا اتّهام أو طلب تدخّل في الوقت الحاضر».

«وبأيّ مسوّغ؟»

«احتمال استخدام منشآت تتعامل بالنقد على نحو منسّق لستر مصدر الأموال».

«هذا يوشك أن يكون رأيًا».

«فاكتب إذن: التحقّق من انحرافات ماليّة متكرّرة عابرة للحدود».

تبسّم تارين.

«هذه عبارة لا تعني شيئًا».

«ولذلك سيوافقون عليها».

راح يُعِدّ قائمة الطلبات. لم يطلب بيانات الزبائن ولا سجلّات صناديق القبض للشبكة كلّها، فليس للطبقة مثل تلك الصلاحيّة. كان في وسعهما طلب نتائج التدقيقات الضريبيّة السابقة، والقوائم الماليّة المعلَنة، وأسماء المدقّقين، وعقود الترخيص، وما طرأ على الملكيّة من تبدّل، والمعلومات التي عدّتها المصارف نفسها غير مألوفة.

كلّ طبقة تالية تقتضي مسوّغًا جديدًا.

وكلّ مسوّغ لا بدّ أن يستند إلى الطبقة التي سبقته.

ولمحت نيراي ذات لحظة انعكاس وجهها في الجزء المعتم من سطح العمل.

لم تكن في عينيها دائرة ذهبيّة.

كانت أمّها أوريليّة، أمّا نيراي فوُلدت سيلينيّة مثل أبيها. وكثيرًا ما تفحّصت عينيها في طفولتها تحت أضواء شتّى. بعد البكاء، وفي الحمّى، وفي اللحظات التي تشتدّ فيها قدرتها على التركيز.

كانت تنتظر أن يظهر الخطّ الذهبيّ رغم كلّ شيء.

ولم يظهر قطّ.

أمّا أخوها لأمّها، جيساير، فقد ورث الدائرة. كان أوريليًّا وسليل أقدم فروع آل دافيون المعروفة في آن. ولهذا التمس الناس فيه تتمّة لحكايات وُلدت قبل مولده بقرون.

فإذا سكّن روع إنسان، تحدّثوا عن الموهبة القديمة.

وإذا أخطأ، قالوا إنّه خيّب آمال الدم الذي يجري في عروقه.

لم تحمل نيراي مثل ذلك العبء.

لم يكن عليها أن تكون تتمّة أسطورة.

كان يسعها أن تكون نفسها وحسب.

ومع ذلك كان لا بدّ أن تجد، كلّما ذُكر اسم جيساير، مَن يعيد النظر في عينيها. كأنّه بحاجة إلى التثبّت ممّا جعل الأخ والأخت لا يحملان العلامة نفسها.

أمّا جيساير فلم يعاملها يومًا معاملة مَن ينقصه شيء.

حين كانا طفلين قال لها إنّ الدائرة الذهبية ليست إلّا شيئًا يلحظه الناس قبل أن يلحظوا الإنسان.

فأجابته نيراي أنّها إذن محظوظة إذ لا يتوهّج في عينيها شيء.

ومنذ ذلك الحين راح يحسدها أحيانًا.

صرفت نيراي بصرها عن انعكاس وجهها وعادت تركّز على سطح العمل. وكان تارين قد أتمّ في تلك الأثناء الدفعة الأولى من الطلبات.

قال: «تسلّمت سارور المذكّرة. من غير وعد بإجراء تدقيق».

«هذا أكثر ممّا توقّعت».

«ورفضت ثيرينيث إتاحة بيانات الملكيّة».

«وهذا ما توقّعته بالضبط».

فتح تارين جواب سجلّ الجزيرة. كان طويلًا، مهذّبًا، صيغ على نحو يُراد به أن يقتنع القارئ بأنّ حجب المعلومة مظهر من مظاهر الرقيّ القانونيّ.

لم تكن شبهة الهيئة محدّدة بما يكفي.

ولم يُذكر جرم بعينه.

ولم تَثبُت صلة بين الشركة المحليّة والانحرافات الماليّة في الدول الأخرى.

كلّ عبارة على حدة يمكن الدفاع عنها.

وهي مجتمعة تؤلّف جدارًا.

قال تارين: «يقولون إنّه لا يحقّ لنا أن نطلب اسم المالك النهائيّ من غير دليل على وحدة الإدارة».

«ولا نستطيع أن نثبت وحدة الإدارة ما لم نعرف المالك النهائيّ».

«لعلّهم نقشوا ذلك فوق مدخل السجلّ».

وضعت نيراي علامة على الجواب وألحقته بالملفّ. فللرفض أيضًا قيمة. ليس برهانًا على جرم، بل خريطة للحدود التي يعجز التحقيق عن رؤية ما وراءها.

نظرت إلى البلاغات الأربعة عشر.

لم تكن تدري إن كانت كلّها ترجع إلى آليّة واحدة. لعلّ بينها منشآت نزيهة، أو نماذج مصرفيّة غير دقيقة، أو أخطاء محاسبيّة عاديّة. وربّما كان اسم فيستا وحده ما يجمع بينها.

لكنّ مصادفات أكثر ممّا ينبغي كانت تبدأ على النحو نفسه.

يظهر المال في منشأة تتعامل بالنقد.

ويأخذ لنفسه اسم إيراد.

ثم يغادر لقاء خدمة يتعذّر قياس قيمتها بدقّة.

وأخيرًا يدخل دولة لا يعود أحد فيها ملزمًا بأن يسأل لمن يعود.

سأل تارين: «وماذا الآن؟»

«ننتظر نتائج التدقيق».

«قد يستغرق ذلك شهورًا».

«وفي هذه الأثناء نتحرّى أمر المدقّقين والمديرين وشركات الاستشارات».

«من غير أن نطّلع على الحسابات؟»

«ما زالت بعض الأسماء غير محجوبة».

فتح تارين قائمة الشركات التي كانت تتلقّى من المنشآت رسوم التراخيص وأتعاب الاستشارات. وللوهلة الأولى لم تكن بينها صلة. مقرّاتها في دول مختلفة، وأسماؤها بلغات مختلفة، وكلّ منها يذكر لنفسه مجال عمل غير مجال سواه.

رتّبتها نيراي بحسب تاريخ التأسيس.

ثم بحسب الممثّلين القانونيّين.

وأخيرًا بحسب الذين صدّقوا وثائق تأسيسها.

ظهرت على سطح العمل أولى الأسماء المتكرّرة.

لم تكن أسماء المالكين بعد.

مجرّد مديرين ومحامين ووسطاء رسميّين.

أناس مهمّتهم أن يقفوا بين الثروة والإنسان الذي يملكها حقًّا.

قال تارين: «ثلاثة مكاتب».

«لأربع عشرة حالة تبدو في الظاهر بلا صلة».

«هذا أقوى من اسم الشبكة وحده».

«لم يصبح دليلًا بعد».

«سيأتي يوم تأبين فيه أن تفرحي حتى باعتراف».

«قد يكون الاعتراف كاذبًا أيضًا».

هزّ تارين رأسه وأرسل طلبات أخرى.

خلف نوافذ المبنى كانت نيترا تمتلئ رويدًا بضوء الصباح. ازدحمت طبقات المرور فوق النهر، وأضاءت الأبراج العامّة على الضفّة المقابلة. أخذت المدينة تستهلّ نهارها على يقين من أنّ كلّ أمر مهمّ يُقيَّد ويُدقَّق ويُحفظ في مكان ما.

وكانت نيراي تعلم أنّ الأمر ليس كذلك.

كانت البيانات موجودة.

غير أنّها لم تكن في مكان واحد.

تحتفظ كلّ مؤسّسة بشظيّتها وتحرسها وفق قواعدها الخاصّة. ترى المصارف حركة المال ولا ترى التجارة الفعليّة. وترى مصالح الضرائب الإقرارات ولا ترى تدفّق الأموال برمّته. وترى السجلّات الشركات ولا ترى البشر وراءها. ويرى المحقّقون الشبهات، وكثيرًا ما تغيب عنهم خيوط الصلة.

لم يكن على الجريمة أن تكون خفيّة.

يكفي أن تكون موزّعة.

أنشأت نيراي ملفّ عمل جديدًا. طلب منها النظام عنوانًا وأساسًا قانونيًّا وتقديرًا أوّليًّا للخطر.

وفي خانة العنوان كتبت كلمة واحدة:

فيستا.

تردّدت لحظة عند تقدير الخطر.

ثم اختارت:

غير محدّد. يُحتمل وجود نمط عابر للحدود.

حُفظ الملفّ بين مئات القضايا المفتوحة. برز للحظة ثم غاب في النظام كأن لا شيء فيه يستحقّ التوقّف.

وربّما لم يكن فيه حقًّا.

لعلّ الأمر لا يتعدّى بضع منشآت تكتم أرباحها الفعليّة أو تنقل عائداتها لتدفع أقلّ من الضرائب.

ولكن لعلّ فيستا كانت المكان الذي تكتسب فيه الأموال المتأتّية من جرائم شتّى قصّة واحدة ترويها عن أصلها.

لم تكن نيراي قد عرفت بعد.

لم يكن لديها إلّا أربعة عشر بلاغًا وثلاثة مكاتب محاماة وبضع دول تأبى أن تكشف لها الاسم الأخير في السلسلة.

على أنّ ما يقف في مطلع الاكتشافات الكبرى لا يكون في العادة دليلًا.

بل مفارقةً التغاضي عنها أيسر من تفسيرها.

أغلقت نيراي سائر الملفّات.

وتركت فيستا مفتوحًا.

١٠. الأرض: التينة الملعونة

حين خرجوا صباحًا من بيت عنيا، كان الهواء لا يزال باردًا، وظلّ ضباب رقيق معلّقًا فوق الطريق. ارتفعت أورشليم أمامهم في ضوء الصباح، أسوارها شاحبة قاسية كوجه إنسان نسي منذ أمد بعيد كيف يبكي.

سار التلاميذ خلف يسوع صامتين. كانت الأيّام الأخيرة ملأى بالآيات والأسئلة والاضطراب. وأحسّ كلّ منهم باقتراب أمر لم يعد في وسع أحدهم أن يوقفه. كانت المدينة تجتذبهم وتنفرهم في آن. كانت كبوّابة مفتوحة لا تنتظرهم وراءها حرّيّة بل حُكم.

سار يسوع في المقدّمة.

لم يكد ينم تلك الليلة. جلس طويلًا وحده، فيما الآخرون يستريحون، شاخصًا نحو أورشليم. كان يعلم أنّ الساعة التي طالما حدّثهم عنها قد جاوزت طور الدنوّ. ها هي ذي. وها هو يمشي في صميمها.

ظلّت خطوته ثابتة، لكنّ جسده كان متعبًا. جفّ فمه وخوت أحشاؤه خواءً يردّد في كلّ خطوة وجعًا مكتومًا. لم يذق منذ الأمس إلّا قليلًا من الطعام. في البدء سكنه الجوع في صمت، ثم أخذ يلحّ عليه شيئًا فشيئًا، حتى ضاق العالم لحظة فلم يبقَ منه إلّا رغبة بسيطة في لقمة.

انتصبت على جانب الطريق تينة.

كانت رحبة التاج كثيرة الأوراق الخضراء. وبين الحجارة الضاربة إلى الرماديّ بدت جزيرة من حياة. تدلّت أغصانها فوق الطريق، وبانت في نور الصباح قويّة معافاة سخيّة.

دنا منها يسوع.

التفت بطرس إلى الآخرين. وأبطأ يوحنّا خطوه. ووقف توما وراءهم ببضع خطوات يرقب يسوع وهو يُزيح الأوراق.

كان يلتمس ثمرة.

تخلّلت أصابعه الأغصان. أمال غصنًا بعد غصن، ورفع الأوراق وتفحّص بواطنها.

لم يجد شيئًا.

ورق وحسب.

وعد في الظاهر وحسب.

صورة للوفرة ليس فيها ما يُشبع إنسانًا جائعًا.

مدّ يسوع يده أعمق في قلب الشجرة، كأنّه يرجو أن يجد فيها، على الرغم من كلّ شيء، تينة باكورة ولو واحدة. لكنّ يده عادت فارغة.

تبادل بعض التلاميذ النظرات. كانوا يعرفون أنّ أوان التين لم يحن بعد. لم تأتِ الشجرة ما يخالف طبيعتها. اخضرّت حين وجب أن تخضرّ، وانتظرت الفصل الذي وجب أن تثمر فيه. بيد أنّ الجوع لا يعرف صبر الفصول.

ولا يُبصر الجوعُ الشجرةَ في تمامها. ليس يُبصر إلّا الثمرة الغائبة.

ظلّ يسوع واقفًا تحت أفنانها. وتراءى في نظرته حزن، فما كان يرى أمامه تينة وحدها. كان يرى مدينة تزهو بهيكلها وشرائعها وصلواتها، وتعجز عن إشباع روح إنسان. ويرى كهنة في حلل طاهرة يولّون وجوههم عن النجسين. ويرى رجالًا يحفظون كلّ كلمة من الكتاب ولا يسمعون بكاء أرملة وراء جدار بيتهم.

كان يرى ورقًا بلا ثمر.

على أنّ شيئًا أصغر تحرّك برهة تحت ذلك الحزن.

شيئًا بشريًّا.

نزق إنسان مُتعَب. ضيق جسد جائع. حنق صامت على عالم وقف أمامه من جديد ملآن بالوعود ولم يعطه هو شيئًا.

لم تكن سوى لحظة.

تكلّم فيه الجوع قبل الرأفة، والتعب قبل الحكمة. ولم يرَ الشجرة لحظةً على ما كانت عليه، بل رأى فيها كلّ ما وعده بالحياة وضنّ عليه بالفرج في اللحظة عينها التي اشتهاه فيها.

لمس ورقة من أوراقها.

ثم قال:

«لا يأكلنّ أحد منك ثمرًا بعدُ إلى الأبد».

لم يجهر بالقول. ولا كان فيه من الغيظ ما يُزلزل الطريق. كان فيه الإعياء والحُكم ولمعة واحدة حادّة من إرادة ضاقت برهة حتى لم تستوعب إلّا جوع صاحبها.

وحين خبا صدى الكلمات ظلّ يسوع واقفًا بلا حراك.

نظر إلى يده المستقرّة على الغصن.

كأنّما لم يحسّ بثقل الكلمة التي نطق بها إلّا بعدما فارقت شفتيه.

ثم ردّ يده.

صمت التلاميذ. ولم يسأله أحد لِمَ فعل ذلك. تابعوا المسير إلى أورشليم، لكنّ توما التفت إلى الشجرة مرّة أخرى.

كانت الأوراق الخضراء تتمايل برفق في الريح، كأن لم يحدث شيء.

في اليوم التالي عادوا من الطريق نفسه.

كان بطرس أوّل من لمح التينة. توقّف فجأة حتى كاد يعقوب يصطدم به.

وأشار بيده قائلًا: «يا معلّم، انظر. التينة التي لعنتَها قد يبست».

فتوقّفوا جميعًا.

كانت الشجرة في الأمس خضراء وافرة الورق، فإذا هي اليوم يابسة. تدلّت أوراقها ملتفّة رماديّة، وفقدت أغصانها ليونتها، وتقشّر اللحاء عن الساق في مواضع. لم تبدُ كشجرة ينهكها الوهن رويدًا، بل كشجرة فارقتها الحياة دفعة واحدة، من الجذر إلى آخر غصين.

وسرى القلق في التلاميذ.

لقد شهدوا آيات كثيرة. رأوا الماء يستحيل خمرًا. ورأوا المرضى يُشفَون والعمي يُبصرون والعرج يمشون. ورأوا لعازر يخرج من القبر.

لكنّ وقع هذه الشجرة فيهم كان مختلفًا.

فهذه المعجزة لم تأتِ بالشفاء.

وغابت عنها أيضًا فرحة الجموع.

لم يضمّ أحد طفله إلى صدره. ولم يرفع أحد عينيه إلى السماء شاكرًا على حياة رُدّت.

كان في ما جرى شيء قاسٍ صامت لا رجعة فيه.

والتفت إليهم يسوع.

قال: «ليكن لكم إيمان بالله. الحقّ أقول لكم إنّ مَن قال لهذا الجبل: ارتفع وانطرح في البحر، ولم يشكّ في قلبه، بل آمن بأنّ ما يقوله سيكون، فله ما قال».

ورفع عينيه إلى السفوح المحيطة بالطريق.

«لذلك أقول لكم: كلّ ما تسألونه في الصلاة، آمنوا بأنّكم قد نلتموه، فيكون لكم. ولكن متى وقفتم تصلّون فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء، لكي يغفر لكم أبوكم أيضًا».

هوت هذه الكلمات بينهم كحجارة في ماء عميق.

لم يُجِبْ أحد من فوره.

سمع كلّ منهم فيها شيئًا مختلفًا.

سمع بطرس دعوة إلى القوّة.

ويوحنّا سرّ الثقة.

ويهوذا إمكانَ السلطة.

وتوما سؤالًا.

تردّد لحظة. ثم دنا من يسوع.

وقال بحذر: «يا ربّ».

فنظر إليه يسوع.

«سلْ يا توما».

خفض توما عينيه إلى جذور التينة اليابسة.

«رأيناك تحوّل الماء خمرًا. ورأيناك تشفي المرضى. ورأيناك تقيم الموتى. رأينا لعازر يخرج من القبر، وقد لبث في الظلمة وفاح من جسده نتن الموت».

سكت قليلًا.

«والآن رأينا شجرة تيبس بكلمة منك».

تحرّك بعض التلاميذ في قلق. وقطّب بطرس كأنّه يريد إسكات توما، لكنّ يسوع رفع يده.

وقال: «دعوه يتكلّم. فإنّ الذي يسأل لا يزال يقظًا».

وأخذ توما نفسًا.

«فلماذا لم تجعل لها تينة؟ إن كنت جائعًا ولم يكن في الشجرة ثمر، فلماذا لم تهبها ثمرة؟ ولماذا كان أهون أن تسلبها الحياة من أن تدعو الثمر إلى أغصانها؟»

تكاثف الصمت.

وتابع توما وقد ازدادت جرأته:

«وإذا أمكن المرء بإيمانه أن يقول للجبل أن يرتفع وينطرح في البحر، فلِمَ لا يقدر أن يقول للشجرة: أخرجي تينة؟»

نظر إليه يسوع بجدّ يخالطه الحنان.

وقال: «يا توما، حين يرى الطفل الخبز يحسب أنّ الخبز يبدأ بين يدي الخبّاز. أمّا الحكيم فيعرف أنّه يبدأ قبل ذلك بزمن بعيد. في الحبّة التي سقطت في التراب. وفي المطر الذي هطل في أوانه. وفي الشمس التي لم يشتدّ قيظها. وفي يدي الزارع. وفي حجر الرحى. وفي نار التنّور».

وأشار إلى التينة.

«كلّ شيء تراه أمامك تقف وراءه سلسلة طويلة من الخفايا. حتى ثمرة التينة ليست مجرّد ثمرة. فلكي تتدلّى اليوم من الغصن، كان لا بدّ أن تكون عليه بالأمس شيئًا أصغر. وقبل شهر كان لا بدّ أن تكون خبيئة في جسد الشجرة لا تكاد تراها العين. وقبل ذلك كان لا بدّ أن تكون أوّل ثمرة تتلقّى النسغ والنور والوقت. وقبل ذلك أيضًا كان لا بدّ أن تكون شجرة فيها قوّة الإثمار».

أصغى توما من غير حراك.

أخذ يسوع في يده ورقة يابسة، فتفتّتت بين أصابعه من أوّل لمسة.

«الواقع الذي تبصرونه ليس جلدًا واحدًا شُدّ فوق العالم. إنّه طبقات. مثل البصلة تفكّها المرأة إلى جوار الموقد. تحمل الطبقة أختها. وما يبدو لنا اليوم يقوم على ما كان بالأمس. وما كان بالأمس يقوم على ما كان قبله».

ونظر إليهم جميعًا.

«العقل الضعيف لا يرى إلّا الطبقة الأخيرة ويحسبها العالم كلّه. والعقل الأقوى ينفذ بصره إلى ما هو أعمق. والعقل الممتلئ إيمانًا قد يلمس المواضع التي لم تُحسَم فيها الأمور كلّها بعد».

رفع يوحنّا بصره.

وتابع يسوع:

«ثمّة أشياء يمكن تعديلها لأنّ جذورها قريبة. فالجسد المريض لا يزال يتوق إلى الحياة. وللماء طاعة الخليقة. وقلب الإنسان قد يهتدي في لحظة واحدة. وحتى الموت ليس جدارًا على ما تظنّون حين ينادي الآب النائم باسمه».

ولذكر الموت تمثّل لهم في أذهانهم قبر لعازر. حجر دُحرج عن المدخل. ورائحة انحلال الجسد. ورجل ملفوف بالأكفان خرج لصوت يسوع.

قال يسوع على مهل: «أمّا أن نصنع تينة في شجرة ولم يكن أوان التين، فليس مجرّد أن نأمر الغصن أن يثمر. معناه أن نعيد كتابة طبقات كثيرة دفعة واحدة. ينبغي أن يكون هناك نموّ بالأمس لم يكن. ونضجٌ لم يحدث. ونسغٌ ظلّ أيّامًا يسري إلى الثمرة. وزمنٌ لم يمرّ بذلك المكان».

قطّب توما جبينه.

«لكنّ الله قادر على كلّ شيء».

أومأ يسوع. «الله قادر على كلّ شيء. لكنّ الله ليس مشعوذًا في السوق يخدع عين طفل. ما خلق الآب العالم ليمزّقه كلّ ساعة كرداء بالٍ ويعود فيخيطه على قدر ما نستعجل نحن. لقد خلق نظامًا. وذلك النظام من مشيئته أيضًا».

بقي توما شاخصًا إلى الشجرة اليابسة.

وقال: «هذا يفسّر لماذا لم تكن عليها تينة. ولا يفسّر لماذا لعنتَها».

فاستدار بطرس نحوه بحدّة.

«يا توما...»

قاطعه يسوع بهدوء: «لا».

ونظر إلى توما.

«سؤالك في موضعه».

ساد الطريق صمت حتى سُمع حفيف الأوراق اليابسة عند أقدامهم.

وخطا توما خطوة إلى الأمام.

وقال: «ليس سؤالي عمّا رمزت إليه الشجرة، ولا عمّا ترمز إليه المدينة أو الهيكل. لماذا فعلتَ أنت ذلك في تلك اللحظة؟»

نظر يسوع إلى التينة.

طال به الصمت.

ولمّا تكلّم كان صوته أخفض ممّا كان.

«لأنّني كنت جائعًا».

بقي التلاميذ بلا حراك.

وتابع: «كنت متعبًا. طال عليّ الليل، وثقيلة هي الأيّام المقبلة. حين رأيت أوراقها اشتهيت ثمرة. وحين لم أجدها ضيّق الجوع عالمي برهة حتى لم يبقَ فيه إلّا الشيء الوحيد الذي أردت».

أطرق بطرس.

ولمس يسوع الجذع اليابس.

«رأيت في الشجرة هيكلًا ومدينة وإنسانًا، يفيضون حياة في الظاهر ولا يعطون الجائع شيئًا. لم يكن ما رأيته باطلًا. ولكن قد ينطق الإنسان بالحقّ من موضع غير نقيّ في نفسه. حتى كلمة العدل قد تصير قاسية إذا نطق بها الجوع أو الغضب أو الكبرياء».

تطلّع إليه توما كأنّه لا يدري هل سمعه على الوجه الصحيح.

«أفغضبت منها إذن؟»

قال يسوع: «للحظة. لا كما يغضب مَن يهوى الهلاك، بل كما يضيق مَن مدّ يده إلى عطيّة فلم يجدها. لم يكن للشجرة ذنب. لم يكن أوان ثمرها. لكنّني لم أرَ في تلك اللحظة زمنها كلّه. لم أرَ سوى جوعي».

سأل يوحنّا:

«ولذلك قتلتها كلمتك؟»

أومأ يسوع.

«كلّما قوي وعي الإنسان وتوحّد، ازدادت كلمته وزنًا. قد تقولون في الضيق كلامًا كثيرًا فتذهب الريح بكلامكم. لكن مَن وقف قريبًا من جذور الوجود، قد يترك فيه أثرًا وإن لم يختلّ في باطنه ميزان إلّا لحظة».

ونظر إليهم واحدًا واحدًا.

«لذلك ليست القدرة العظيمة عطيّة فحسب. إنّها عبء. مَن وسعه أن يشفي بكلمة وجب عليه أن يحذر حتى الكلمة التي يتفوّه بها في التعب. ومَن وسعه أن يزيح جبلًا وجب عليه أن يتبيّن أتصدر رغبته عن الآب أم عن ألم يمرّ به في تلك الساعة».

وأشار توما إلى التينة من جديد.

«مع ذلك لم أفهم بعد. إن تكن كلمتك قادرة على إهلاك الشجرة، فلِمَ لم تقدر أن تُلزمها بأن تأتي بثمر؟»

تناول يسوع عن الأرض كسرة غصن يابس.

«لأنّ ما يقتضيه التحلّل غير ما يقتضيه الخلق».

وكسر الغصين بين أصابعه.

«كان الموت كامنًا في هذه الشجرة منذ البدء على هيئة إمكان. وهو كامن في كلّ ورقة وجذر وجسد. كلّ ما يُولد يحمل في نفسه إمكان الفناء أيضًا. وما فعلته كلمتي أنّها فتحت سبيلًا إلى ما كان فيها ممكنًا من قبل».

ثم بسط كفّه الفارغة.

«أمّا الثمرة فلم تكن في تلك الساعة مهيّأة فيها. ولكي تجيء إلى الوجود لا بدّ للشجرة والنسغ والشمس والتراب والزمن أن تلتقي. كان عليّ أن أطلب من الوجود كلّه أن ينحني حول جوعي».

وقست نظرته، على نفسه لا على التلاميذ.

«كان جوعي في تلك اللحظة يخصّني وحدي. لم أكن أسأل أن يحيا طفل أو يبرأ إنسان معذّب. أردت أن أُشبع نفسي».

وتكلّم يهوذا:

«وأيّ خطأ في أن يشتهي الجائع طعامًا؟»

أجاب يسوع: «لا خطأ فيه. الجوع ليس خطيّة، ولا الرغبة في الخبز خطيّة. لكنّ القدرة تغدو خطرًا حين تطلب إلى العالم أن ينقض نظامه لمجرّد أنّ حاملها لا يريد أن يصبر ساعة على الحرمان».

وسكت برهة.

«لا تفتقر اللعنة إلّا إلى صدع. أمّا البركة فتفتقر إلى انسجام».

لم يتحرّك أحد.

وبقيت الكلمات بينهم، بسيطة وثقيلة.

وتابع يسوع: «قد تُطيع القدرة أحيانًا إرادة جريحة. قد تكسر، أو تُعجّل التحلّل، أو تفتح بابًا إلى الخوف أو الموت. لكنّ الحياة لا تنفتح لمثل هذه الإرادة انفتاحًا تامًّا. تنشأ الحياة حيث تلتقي إرادة الفرد بإرادة الكلّ».

وأطرق توما مفكّرًا.

«أفكان بمقدورك إذن أن تُنشئ تينة لو كان ذلك موافقًا لمشيئة الآب؟»

نظر إليه يسوع.

«لو كانت تلك الثمرة جزءًا من سبيل يهب الحياة لما خُلقت من عدم. لكان الوجود كلّه يقصدها، وإن غاب عن أبصاركم السبيل. أمّا أن أُنشئها لمجرّد أن أُسكت معدتي لحظة فلا يكون معجزةً في الآب. بل يكون إخضاعًا للعالم لنزوة من نزواتي».

ونظر في اتّجاه التلال المقفرة البعيدة.

«حين كنت في البرّيّة، قال لي المجرّب أن أحوّل الحجارة خبزًا».

كان بعض التلاميذ قد سمع بذلك الأمر وبعضهم لم يسمع. وأصغوا الآن جميعًا بانتباه.

وتابع يسوع: «كنت يومئذ أشدّ جوعًا منّي بالأمس. كان جسدي يصرخ طالبًا الطعام. وبدا لي الحجر أمامي شبيهًا برغيف، وقال لي الصوت: إن كانت لك قدرة فاستعملها. أظهر مَن أنت. وأشبع نفسك».

قال يوحنّا: «فرفضت».

«رفضت، لأنّ القدرة لا ينبغي أن تخدم جوع حاملها. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ومَن نال عطيّة من الآب ليس له أن يجعلها خادمة لشهوته».

ونظر إلى التينة.

«لم أحوّل الشجرة بالأمس إلى طعام. لكنّني في لحظة حكمت عليها لأنّها لم تُطعمني. وأصل التجربتين واحد».

هزّ بطرس رأسه.

«لكنّك بلا خطيّة، يا ربّ».

وأمعن يسوع النظر فيه.

«وما معنى أن يكون المرء بلا خطيّة في ظنّك يا بطرس؟ ألّا يجوع؟ ألّا يغضب؟ ألّا يعرف معنى التجربة؟»

لم يُجِبْ بطرس.

قال يسوع: «الحجر لا يعرف التجربة، ولا يصير قدّيسًا بذلك. ليس معنى النقاء ألّا تضطرب نفس الإنسان قطّ بنزعة مظلمة. بل أن يراها كلّها فلا يسمّيها نورًا ولا يدعها تصير سيّدته».

ونظر إلى كفّه.

«بالأمس لم أرَها إلّا بعدما خرجت منّي الكلمة».

قال توما:

«أيستطيع إذن حتى الإنسان كامل الوعي بنفسه أن يعثر للحظة؟»

أجاب يسوع: «ما دام يحمل جسدًا فإنّه يحمل كذلك صوته. يدخل الجوع والألم والخوف والتعب إلى الوعي دخول الريح إلى الدار. يعرفها الإنسان اليقظ حين تأتي. لكن إن كانت الأبواب مفتوحة والليل قد طال، فقد تُطيح هبّة قويّة بالمصباح».

سأل يوحنّا: «وماذا بعد؟»

«بعدئذ يرفعه. ويرى ما حدث. ولا يستر الظلمة باسم الله».

وعاد يسوع يلتفت إلى توما.

«سألت لِمَ لم أُؤثر إنقاذ الشجرة أو أهبْها ثمرة. لأنّي في تلك اللحظة لم أُرِد أن أخلق. أردت أن أنال. وحين لم أنل صارت كلمتي حُكمًا».

خفض توما عينيه.

«فهل الهدم أيسر من الخلق؟»

قال يسوع: «نعم. ليس على يدي الإنسان وحدهما، بل على إرادته أيضًا. تكفي ضربة لتهدّ بيتًا. أمّا بناؤه فيقتضي حجرًا وقياسًا وصبرًا وتوافق أيدٍ كثيرة. ولجرح إنسان تكفي كلمة واحدة تُقال في غضب. ولشفاء روحه لا يكفي أحيانًا عمر من المحبّة».

وأمرّ كفّه على اللحاء اليابس.

«في وسع النفس المنقسمة أن تهدم. أمّا الخلق فلا يصدر إلّا عن وحدة».

صمت توما ثم قال:

«لكنّك حين حوّلت الماء خمرًا في قانا غيّرت أيضًا نظام الأشياء».

أجاب يسوع: «في قانا لم أصنع الفرح من عدم. كان هناك ماء. وكانت أجران التطهير. وكان عرس. وكانت الخشية من العار في أهل بيت أوشكت خمرهم أن تنفد. وكانت ثقة أمّي. وكانت وليمة ينبغي أن تستمرّ، وساعة انفتحت».

وابتسم يسوع برفق لذكرى مريم.

«والخمر التي جاءت لم تكن نفيًا للعالم. كانت آية على أنّ الآب يعرف كيف يملأ الآنية الفارغة. لم تكن لي. إنّما كانت عطيّة لغيري».

سأل توما: «ولعازر؟»

«لمّا ناديت لعازر لم أكن أستدعي غريبًا من العدم. ناديت أخًا كان الآب يعرفه باسمه. اضطجع جسده في القبر، لكنّ قصّته لم تكن قد انتهت في الآب. محبّة أختيه وألمهما، ومحبّتي له ومشيئة الآب، التقت في لحظة واحدة. ومسّ الإيمان الطبقة التي كان لا يزال ممكنًا فيها أن يُقال: هلمّ خارجًا».

نظر توما إلى التينة من جديد.

«وها هنا لم يلتقِ شيء سوى جوعك».

قال يسوع: «التقت به أيضًا حقيقة المدينة. ولهذا صارت الشجرة آية. لكنّ ضيقي أكسب الآية قسوة لم يكن لها أن تلزمها».

سأل يوحنّا: «أفكان ممكنًا إذن للآية أن تجري على نحو آخر؟»

فكّر يسوع لحظة.

«نعم».

«كيف؟»

«كان في وسعي أن أريكم ورقها وأقول: انظروا كيف تشبه الهيكل الذي يعِد بالحياة ولا يأتي بثمر. وكان في وسعي أن أمضي عنها جائعًا وأدعها تنضج في أوانها».

ووضع يده على الجذع.

«ما احتاجت الحقيقة إلى موت الشجرة. أنا مَن أضافه إليها في لحظتي تلك».

أقلقتهم هذه الكلمات أكثر ممّا أقلقتهم المعجزة نفسها.

اعتادوا أن يروا في يسوع مَن يأتيهم بالجواب. وها هو الآن يقف أمامهم إنسانًا فحص فعلته بنفسه ولم يُعرض عمّا وجده فيها.

وتكلّم بطرس:

«لِمَ تخبرنا بهذا؟ كان في وسعك أن تكتفي بالقول إنّ الشجرة كانت آية. ما كان أحد منّا ليشكّ».

نظر إليه يسوع.

«لهذا بالذات».

لم يفهم بطرس.

«مَن كانت له قدرة فهو أبدًا عرضة لأن يسمّي إرادته إرادة الله. إن نجح له أمر قال: هكذا أراد الآب. وإن دمّر شيئًا قال: تلك دينونة. وإن جرح إنسانًا قال: كنت أخدم الحقّ».

وارتفع صوت يسوع.

«لكن ما كلّ كلمة ذات سلطان صادرة عن الآب بكلّ ما فيها. وما كلّ نجاح شهادة بالنقاء. ولا كان كلّ مَن أطاعته القوّة بارًّا».

كان يهوذا يرقبه في انتباه شديد.

وسأل: «فكيف نميّز إذن؟»

«من الثمر».

ورفع يسوع عن الأرض غصينًا من الأغصان المنكمشة.

«لا من عِظَم الآية. ولا من عدد مَن يحنون رؤوسهم. ولا من ارتجاج الأرض أو هبوط النار من السماء. اسألوا عمّا أبقاه الفعل وراءه. أزاد الحياة أم زاد الخوف؟ أزاد الحقّ أم زاد طاعة مَن أظهر بطشه؟ أزاد الحرّيّة أم زاد التبعيّة؟»

ونظر إلى الشجرة اليابسة.

«جاءت هذه الآية بالمعرفة. لكنّها جاءت الشجرة بالموت. ولذلك ليس كلّ ما فيها نورًا».

وبعد برهة سأل توما:

«والجبل؟ قلت إنّ مَن آمن يقول للجبل أن ينطرح في البحر. ما هذا بأمر يسير، إنّه أعظم من ثمرة تين على شجرة».

ابتسم يسوع ابتسامة رقيقة.

«أتظنّ الجبل حجرًا وحسب؟»

لم يُجِبْ توما.

«الجبل أيضًا خوف يقف أمام الإنسان ويتظاهر بأنّه باقٍ إلى الأبد. والجبل إمبراطوريّة تقهر الضعفاء وتقول: لا أحد يزيحني. والجبل ذنب تحمله زمنًا طويلًا حتى تصدّق أنّه جسدك. والجبل هو الموت الذي تنحني أمامه الرؤوس كلّها».

لزم التلاميذ الصمت.

«حين يؤمن الإنسان إيمان مَن يتوكّأ على عصا، يعينه إيمانه على المشي. أمّا حين يؤمن إيمان مَن يهب نفسه كلّها للآب، فيغدو إيمانه موضعًا تمسّ فيه مشيئة الله العالم. عندئذ تتزحزح الجبال. لا لأنّ الإنسان يأمر الله، بل لأنّه يكفّ عن الوقوف في سبيله».

صمت توما برهة.

«أفللناس جميعًا إيمان واحد؟ أيستطيع كلّ إنسان أن يقول للجبل أن يتحرّك؟»

توقّف يسوع. لم يكن في نظرته صرامة، بل عمق، كأنّه لا يكتفي بالنظر إلى توما بل ينفذ من خلاله إلى الموضع الذي يلقى فيه الإنسان نفسه.

قال: «ليس للجميع إيمان واحد. كما أنّ العيون ليست واحدة، وإن كان الجميع ينظرون إلى العالم نفسه. يرى أحدهم حجرًا وحسب. ويرى الثاني طريقًا. ويرى الثالث يد الآب تحمل الحجر والطريق وتحمله هو أيضًا».

أصغى توما باهتمام.

وتابع يسوع: «إيمان المرء لا ينمو ممّا يتلفّظ به وحده. إنّما ينمو بمقدار ما استيقظ في أعماق نفسه. كثيرون يعيشون كالحالمين. يُبصرون ويسمعون ويأكلون ويغضبون ويخافون ويشتهون، ولا يعرفون مَن الذي يُبصر فيهم، ومَن الذي يسمع فيهم، ومَن الذي يخاف ومَن الذي يشتهي».

صمت التلاميذ. ما كانت هذه الكلمات تشبه أمثال الحقل والسمك والخبز. كانت تمسّ شيئًا خفيًّا عن العيون، يحمله مع ذلك كلّ إنسان منهم في نفسه.

قال يسوع على مهل: «أعظمُ الناس إيمانًا مَن يعي تمام الوعي أنّه يعي. مَن لا يكتفي بأن ينظر إلى العالم بل يعرف أنّه هو الذي ينظر. ومَن لا يكتفي بأن يفكّر بل يعرف أنّ خواطره تقبل وتدبر أمامه كالسحاب. ومَن لا يقتصر أمره على الإحساس بالخوف بل يعرف أنّ الخوف ليس سيّده».

قطّب توما حاجبيه، اجتهادًا منه في الفهم لا اعتراضًا.

وتابع يسوع:

«مثل ذلك الإنسان لا يلتصق بطبقات العالم، واحدة واحدة، التصاق الذبابة بالعسل. بل ينفذ إلى أعمق. يرى جسده ويعرف أنّه أكثر من جسد. ويرى الخاطرة ويعرف أنّه أكثر من خاطرة. ويرى ألمه ويعرف أنّه أكثر من ألم. ومتى كفّ عن أن يخطئ في معرفة مَن يكون، كفّ عن الانقياد عاجزًا لكلّ ما يتبدّل فيه».

سأل توما:

«أويستطيع مثل هذا الوعي أن يصنع معجزات؟»

نظر إليه يسوع.

«لا يصنعها الإنسان من تلقاء نفسه. فإن قلت: أنا أصنع المعجزات، فقد انفصلتَ عن الآب. والانفصال ضعف وإن تزيّا بزيّ القوّة».

ووضع يده على صدره.

«وعي الإنسان الذي أفاق تمام الإفاقة لا يبقى ممزّقًا بين الخوف والرغبة والكبرياء والشكّ. يصفو كصفحة الماء حين لا ريح تهبّ عليها. وفي مثل تلك الصفحة تستطيع السماء أن تنعكس. وحين تنعكس السماء في الإنسان بلا اعوجاج، قد يجري على يديه ما تسمّونه معجزة».

وتكلّم بطرس:

«أفلا تصنع المعجزةَ إذن قوّةُ الإنسان؟»

قال يسوع: «لا. المعجزة تحدث حيث يكفّ الإنسان عن أن يكون عائقًا. حيث لا يعود وعيه مكدّرًا بما يريد لنفسه، بل ينفتح لما يريده الآب».

ونظر إلى التينة.

«وقد أريتكم بالأمس الوجه الآخر أيضًا».

رفع توما عينيه.

«نشأ فيّ الجوع، لكنّني في تلك الساعة لم أكتفِ بمراقبته. لحظةً صرتُ أنا جوعي. وحين يصير الإنسانُ جوعَه أو خوفَه أو غضبَه، يضيق وعيه. ولا يرى إلّا ما ينقصه».

قال يوحنّا: «لكنّك وعيت ذلك».

«بعد خروج الكلمة فقط».

كان جواب يسوع بسيطًا.

«لا تعني اليقظة أن تكفّ الريح عن الهبوب. بل تعني أن يُبكّر المرء، شيئًا فشيئًا، في تبيّن ما تصنعه الريح في داخله. أحيانًا يتبيّنه قبل الفعل. وأحيانًا في أثنائه. وأحيانًا لا يتبيّنه إلّا من شجرة بقيت بعد مروره يابسة».

وأومأ توما على مهل.

«ألهذا قلت لنا أن نغفر حين نصلّي؟»

«نعم. قد يسأل الإنسان مؤمنًا، ولكن إن كان باطنه مشحونًا بالغضب اتّصل إيمانه بالغضب. قد يسأل العدل وهو في الحقيقة يشتهي الانتقام. وقد يتحدّث عن الحقّ وهو في الحقيقة يريد أن يُذلّ غيره».

وأدار يسوع نظره في تلاميذه.

«لذلك لا يكفي أن يخلو القلب من الشكّ. فقد يكون يهوذا أيضًا على يقين. وقد يُقدِم المعتدي أيضًا بلا تردّد. وليست الوحدة في ذاتها خيرًا إن توحّدت نفس المرء في الكراهية».

تصلّب جسد يهوذا عند سماع تلك الكلمات تصلّبًا لا يكاد يُلحظ.

وتابع يسوع: «الإيمان الحقّ أكثر من قوّة اليقين. إنّه وحدة الإنسان مع الآب. وكلّما دنت إرادتكم من مشيئته قلّ ما تطلبون من أمور لا تخدم إلّا أنفسكم».

سأل توما:

«وكيف نميّز مشيئة الآب من رغبتنا نحن؟»

أشار يسوع إلى صدره.

«تبدأ بأن تعترف بما تريده أنت. من غير تجميل. ومن غير عبارات التقوى».

«وبعد ذلك؟»

«تسأل نفسك إلى مَن ينبغي أن تحملَ ضراعتُك الحياة».

رفع يسوع ورقة يابسة.

«تلد الطلبات الصالحة حياة، مهما كان فيها من مشقّة. أمّا الطلبات الفاسدة فلا تلد إلّا برهانًا على قوّة صاحبها. حين تسأل أن تُطعمَ وتشفيَ وتغفرَ وتحملَ عبء غيرك، يكون سؤالك على شبه الآب. وحين تسأل أن تُبهرَ أو تقهرَ أو تمتلكَ أو تفلتَ من السبيل الذي أُعطي لك، فلست تسأل الله بل تجرّبه».

قال توما:

«وماذا إذا لم نكن على يقين؟»

«فانتظروا».

نظر يسوع إلى الشجرة اليابسة ثم إلى التلال الخضر وراءها.

«في الانتظار أحيانًا إيمان أنقى ممّا في الفعل. مَن لم يعرف أتخدم إرادته الحياة أم لا، فلا يُسارع إلى إلباسها القدرة. بل ليدعها تقف أوّلًا أمام الآب».

وكان بطرس يتأمّل الأغصان اليابسة.

«لو انتظرتَ بالأمس لظلّت الشجرة حيّة».

قال يسوع: «نعم».

لم يكن في صوته ما يدافع به عن نفسه.

ولم يعرف بطرس بم يجيب.

وبعد حين تكلّم توما من جديد:

«أتقدر أن تردّ إليها الحياة؟»

والتفت الجميع إلى يسوع.

وضع يسوع كفّه على الجذع وأغمض عينيه.

وظلّ كذلك زمنًا طويلًا.

انتظر التلاميذ أن يدبّ النسغ في الأغصان، أو تستوي الأوراق اليابسة، أو ينبثق من اللحاء الصلب برعم أخضر جديد.

لم يحدث شيء.

فتح يسوع عينيه.

وقال: «يسعني أن أسأل الآب حياتها. لكن حتى إصلاح الخطأ لا ينبغي أن أتّخذه وسيلة لأبرهن أنّ في وسعي أن أمحوه».

قطّب توما حاجبيه.

«ولِمَ لا تعود إلى الحياة وقد ماتت بكلمتك؟»

أجاب يسوع: «لعلّها ستحيا. لعلّ فرعًا جديدًا يطلع يومًا من جذورها. لكنّي لو بعثتها الآن لمجرّد أن أستر عنكم عاقبة لحظتي تلك، لعدت إلى استعمال القدرة من أجل نفسي».

وأمرّ أصابعه على اللحاء المتشقّق.

«ليس محو العاقبة جبرًا لكلّ ذنب. لا بدّ للعاقبة أحيانًا أن تبقى مرئيّة لكي تصير حقيقة».

نظر إليه توما.

«أفتحمل هذه الشجرة إذن خطأك؟»

قال يسوع: «وما عرفته أيضًا. ولعلّها تحمل يومًا ما ستعرفونه أنتم».

ثم سكت قليلًا.

«يودّ المرء لو اقتلع كلّ شجرة يابسة تذكّره بما كان عليه. ولكنّ الشجرة التي تبقى قد تحمي شجرًا كثيرًا من الكلمة نفسها».

وتنهّد بطرس من أعماقه.

«يصعب علينا أن نسمعك تتكلّم هكذا».

قال يسوع: «لأنّكم تريدون الذي تتبعونه بعيدًا عن ضعفكم. تظنّون أنّ الذي يخلّصكم لا بدّ أن يكون مَن لم يُحسّ قطّ ما تحسّونه. لكن كيف يهديكم في التجربة مَن لا يعرف صوتها؟»

وسأل يهوذا: «فكيف نعلم إذن أنّ علينا اتّباعك؟»

نظر إليه يسوع في سكينة.

«لا تتبعوني على ظنّ أنّني لن أعثر قطّ. اتبعوني حيث لا أحيد عن الحقّ حتى بعد عثرتي».

أشاح يهوذا ببصره.

أمّا توما فظلّ ينظر إلى الشجرة.

«قلتَ إنّ مَن يريد تينة من غير زهرة يريد العطيّة من غير طريقها».

«نعم».

«ومَن يلعن الشجرة لأنّه لم يجد فيها تينة؟»

أطال يسوع النظر صوب أورشليم.

«يريد أن يتحمّل العالم عقوبة نقص فيه هو».

واضطرب نفَس توما.

وتابع يسوع:

«هذا ما يفعله الملوك. وما يفعله الحكّام. وما يفعله الآباء بأبنائهم والسادة بخدمهم. يجوعون إلى السلطان أو الإجلال أو الأمان، ثم يعاقبون العالم لأنّه لم يُشبعهم».

وأشار إلى التينة.

«ولذلك اذكروا هذه الشجرة. لا على أنّها آية الهيكل الذي لا ثمر فيه وحده، بل آية الخطر الذي يُمثّله إنسان لكلمته سلطان».

سأل يوحنّا:

«أفالأفضل إذن ألّا تكون لنا قدرة؟»

أجاب يسوع: «لا. فمن غير قدرة لا يسعكم أن تنهضوا بساقط، ولا أن تحموا طفلًا، ولا أن تبنوا بيتًا. القدرة ليست شرًّا. القدرة تكشف ما في الإنسان».

قال يوحنّا: «كالنار؟»

«كالنار. في يدي مَن يحبّ تمنح الدفء. وفي يدي مَن يخاف تُحرق».

قال توما:

«وكلّما عظمت النار وجب أن تكون الأيدي أنقى».

أومأ يسوع.

«وكلّما عظمت القدرة ضاق على الإنسان أن يسمّي شيئًا من ضيقه عدلًا، مهما صغر».

ولبرهة لم يُسمع سوى الريح تعبث بالأوراق اليابسة.

ثم مضى يسوع في طريقه.

فلحق به التلاميذ، غير أنّهم مشوا على مهل أكثر من ذي قبل. وبقيت التينة عند الطريق وراءهم آية لا يسهل حصرها في معنى واحد.

كانت صورة الهيكل الملآن بالطقوس الخالي من الرحمة.

وصورة إنسان يزهو خضرة في ظاهره ولا يعطي الجائع شيئًا.

وبرهانًا على قدرة الكلمة.

وكانت كذلك عاقبة لحظة علا فيها صوت الجوع على الانسجام مع الوجود كلّه.

كان بطرس يفكّر في الإيمان الذي يقدر أن يُزيح جبلًا.

لكنّه، وللمرّة الأولى، فكّر كذلك إن كان كلّ جبل يقدر الإنسان أن يُزيحه ينبغي له أن يُزاح.

وكان يوحنّا يفكّر في صفحة الوعي التي يسع السماء أن تنعكس فيها. لكنّه أدرك أنّ حجرًا قد يهوي حتى على صفحة الماء الصافي فيحطّم الصورة لحظة.

وكان يهوذا يفكّر في القدرة. لا في العبء الذي تحمله، بل في احتمال أن يكون بمقدور العالم، آخر الأمر، أن يطيع إرادة إنسان لا يشكّ.

وكان توما يفكّر في التينة التي لم تستطع أن توجد لأنّ السبيل المفضي إليها لم يُقطَع.

ثم في الشجرة التي ماتت لأنّ سبيل مَن نطق بالكلمة فوقها خرج، لبرهة وجيزة، عن ذلك الانسجام.

وسار يسوع أمامهم نحو أورشليم.

كان الجوع قد انحسر، لكنّه حمل معه وعيه بالشجرة التي يبست. لم يُقصِه عن باله كأنّه غلطة لا تلائم حكاية رجل بارّ. بل حمله إنذارًا صامتًا.

وكلّما اقتربوا من المدينة ازدادت أسوار الهيكل وضوحًا عند الأفق.

وكانت هي الأخرى ملأى بالورق.

بالصلوات والذبائح والحلل والبخور والشرائع والوعود.

ومع ذلك ظلّ في ظلّها جياع.

وفوق طبقات الزمن كلّها كان ظلّ الصليب قد أخذ يخيّم.

لم يكن أحد من التلاميذ قد فهم بعد أنّهم عما قريب سينظرون إلى شجرة أخرى. إلى خشبة يابسة منصوبة بين السماء والأرض. سيرون عليها إنسانًا رجَوا منه ثمار الملكوت، ولن يكون أمام عيونهم سوى الدم والألم والموت.

وسيحسبون أنّ الوعود كلّها قد يبست.

وسينتظرون ليروا هل يستعمل قدرته من أجل نفسه.

هل يأمر المسامير أن تنفكّ.

هل يأمر الخشبة أن تنشطر.

هل يأمر السماء أن تُهلك الساخرين منه.

وسيكون جائعًا من جديد.

وسيظمأ.

وسيكون متعبًا متروكًا.

لكنّه هذه المرّة لن يدع الألم يضيّق العالم كلّه حتى لا يبقى منه إلّا عذابه هو.

ولن يطلب إلى الوجود أن ينحني حول خوفه.

ولن يتفوّه بلعنة على الذين سلبوه حياته.

بل سيغفر لهم.

عندئذ فقط سيفهم توما أنّ عظمة معلّمه الحقّة لم تكن في أنّه استطاع أن يُيبس شجرة.

بل في أنّه، حين عُلّق هو على شجرة وكان بمقدوره أن يلعن العالم كلّه، لم يفعل.

عندئذ فقط سيفهمون أنّ أعمق طبقات الواقع لا يحرّكها صخب القدرة، بل الإرادة الهادئة لمَن يبقى على وفاق مع الآب حتى في قلب الألم.

عندئذ فقط سيفهمون أنّ أعظم المعجزات قد لا تتجلّى في ثمرة على غصن يوم يجوع الإنسان.

بل تتجلّى أحيانًا في كلمة غفران يوم يكون من حقّ الإنسان أن يلعن.

أحيانًا لا تتجلّى إلّا بعد موت الشجرة.

وأحيانًا لا تتجلّى إلّا حين تنبت من الخشب اليابس حياة للعالم كلّه.

١١. إلاريون: ماريا ليورن

تعلّمت ماريا ليورن أن تخاف بصمت.

لم يكن ذلك عن ضعف. فكثيرًا ما يرفع الضعفاء أصواتهم بالخوف أملًا في أن ينقذهم أحد. أما ماريا فكانت تخاف بصمت لأنها آمنت طويلًا بأن عليها أن تنقذ كرامتها بنفسها.

في البداية لم يضربها أريين قط.

في البداية كان شديد الاهتمام بها.

والاهتمام شيء خطر حين يتزيّا بزي الحب، وهو في الحقيقة يجسّ الحدود.

كان يتذكر ما تقول. ويلحظ متى تعبت. يعرف أيّ الأماكن في المدينة تكره، وماذا تشرب وهي تعمل، ومن ترى فيهم الخواء، ومن تأتمن. في البدء شعرت معه بأن أحدًا يراها. ثم شعرت بأن أحدًا يراقبها. وجاء الفارق على مهل، كتغيّر الضوء قبل العاصفة.

كان يقول حين يسألها مع من كانت: «إنما أخاف عليك».

وكان يقول حين يشكّكها في أصدقائها: «كل ما أريده ألّا يستغلّوك».

ويقول وهو يقنعها بسذاجة حكمها على الأمور: «أنا أعرف وحسب كيف يفكّر الناس».

كانت ماريا أوريلية من سلالة عريقة، وإن لم تكن أرفع السلالات شأنًا. واشتهر آل ليورن بمعالجيهم وأمناء محفوظاتهم ومعلّميهم أكثر مما اشتهروا بساستهم. علّموها في طفولتها أن رهافة الحسّ لا تنافي الشجاعة. ومضى وقت طويل قبل أن تدرك أن أريين لم يرَ في رهافتها هبة، بل موضعًا يستطيع أن يضغط عليه.

قبل أن تعرف أريين بسنوات، عملت ماريا على إتاحة بيانات صحية محجوبة الهوية للباحثين في الأمراض الوراثية. كانت تؤمن بأن تقاسم المعرفة يقصّر انتظار العلاج. لكن إحدى منظومات التأمين الإقليمية قارنت تلك البيانات، التي بدت خالية من الأسماء،

بالعناوين، فتعرّفت إلى عدة أسر. وارتفعت أقساط تأمينهم قبل أن يتأكّد أصلًا أن فيهم مريضًا.

ساعدت ماريا الأسر على استعادة شروط تأمينها الأولى وأدلت بشهادتها عند مراجعة المشروع. وظلّت على إيمانها بالبحث العلمي. لكنها منذ ذلك الحين صارت تقرأ في كل طلب أيضًا مَن يحق له استعمال النتيجة، وكم سيحتفظ بها، ومَن يستطيع أن يعرف أنه اطّلع على البيانات. وحملت معها هذا الحذر إلى كل ما خاضته بعد ذلك من سجالات حول الشفافية.
وقع ما وقع في شقّته المشرفة على حيّ المال في نيترا.

كان المطر يهطل في الخارج. وتحت قدميهما انكسرت أضواء المركبات ذاتية القيادة في زجاج الشوارع المبتلّ. تأخرت ماريا لأن الاجتماع بشأن المحفوظات الصحية طال. كان أريين واقفًا عند النافذة. لم يلتفت حتى.
«أكنتِ معه؟»

لم يحتج إلى ذكر اسمه.

دخل جيساير دافيون ما بينهما قبل أن تعلم ماريا نفسها أنه مسّ حياتها. دخلها أول ما دخلها في صورة سكينة راحت في حضرتها تلمح اضطرابها بوضوح أشد.
قالت: «كنت في اجتماع».

«ما كان ذلك سؤالي».

«فأحسنِ السؤال إذن».

استدار أريين.

لم يكن في وجهه غضب بالمعنى المألوف. كان فيه شعور من لحقت به إهانة. كأن استقلال ماريا لم يكن حقًّا لها، بل خللًا في نظام كان ينبغي أن يكون ملكه.
سألها: «أتعرفين ماذا يفعل أمثال دافيون؟ يدخل أحدهم قاعة فيتصرّف الجميع كأنهم سمعوا نبوءة قديمة».

«ليس ذلك ذنب جيساير».

ردّد أرييين: «جيساير».

نطق الاسم برفق. فكان وقعه بهذا الرفق أسوأ.

قالت ماريا: «أنت تخافه».

ساد بينهما لحظةً صمت مطبق.

ثم أقبل نحوها. مسرعًا. أسرع مما ينبغي. وأمسكها من معصمها.

«أنا لا أخاف أحدًا».

وشدّ قبضته.

لم يشدّها إلى حدّ كسر العظم. بل إلى الحدّ الذي يُريها أنه قادر على كسره.

نظرت ماريا في عينيه.

«أفلِتني».

«أولًا تقولين لي الحقيقة».

«الحقيقة أنني أخافك في هذه اللحظة».

ارتخت يده بمقدار لا يكاد يُحسّ.

لم توقظه عبارتها. جرحته في كبريائه.

«فصرتُ الآن رجلًا عنيفًا».

«أنت رجل يمسكني رغمًا عني».

عندئذ صفعها.

ظلّت ماريا واقفة. لم ينكسر في الغرفة شيء، ولم يكن أحد ليدرك للوهلة الأولى ما حدث.

بقي على خدّها دفء كفّه المفتوحة، وانقطع نفَسها لحظة.

شحُب أرييين من فوره.

«ماريا...»

رفعت يدها.

لم ترفعها لتصدّه بجسدها، بل لتوقف الحكاية التي أوشك أن يرويها.

أنه لم يقصد.

أنها استفزّته.

أنها أفزعته.

أن ما حدث كان حبًّا، وإنما فاض عن الحدّ.

قالت: «لا».

كانت أخفت كلمة في الغرفة.

وأقواها.

رحلت تلك الليلة نفسها.

لم تأخذ كل شيء. أخذت فقط ما وسعها أن تحمله في حقيبة واحدة وفي روح واحدة كفّت أخيرًا عن الاعتذار لأنها تخاف.

كان في الأسابيع التالية فراغ غريب. يكتب إليها أريين، ثم يلوذ بالصمت، ثم يبعث إليها برسائل مع معارفهما. وظهر مرة أمام المبنى الذي تعمل فيه. لم ترفع شكوى عليه. لم يكن ذلك إشفاقًا. لعلّها، بالأحرى، لم تشأ أن يكون هو أول حكاية تُروى على الملأ عن حرّيتها.

ثم جاءت المناظرة في نيترا.

وجاء جيساير.

لم يجئ منقذًا. كانت ماريا تمقت فكرة أن تحتاج المرأة إلى رجل ينقذها لكي تستطيع أن تترك رجلًا آخر. لقد رحلت بنفسها.

كان جيساير شيئًا آخر.

كان شاهدًا على عالم لا تضطر فيه إلى أن تصغّر نفسها في حضرته.

بعد المناظرة حول الدخل الأساسي الشامل خرجا معًا من القاعة إلى الفناء الداخلي لمجلس الاتحاد. كانت نيترا تدبّ بالحياة في المساء. حلّقت فوقهما مركبة نقل في هدوء أمكنهما معه سماع الماء يجري في القناة الحجرية.

قالت ماريا: «قلت اليوم جملة لن يغفروها لك».

«أيّ جملة؟»

«أن خصوصية الإنسان تستحقّ الحماية، أما خفاء السلطة فلا».

اتّكأ جيساير على الدرابزين.

«أتظنّين أنني أخطأت؟»

«لا. إنما أخشى أن يستخدم بعضهم عبارتك ليفتح المحفوظات الصحية أيضًا».

«لم أقل ذلك».

«أعرف. غدًا ستشرح هذا للجنة التي أرسلت إليّ ثلاثة طلبات حتى الآن».

نظر جيساير في التنبيهات على واجهته. وصلته هو أيضًا.

«صباحًا؟»

«في الثامنة. تزوّد بالصبر».

سوّت ماريا كمّها فوق معصمها. «وأعرف أناسًا يسمّون كل تطلّع إلى حياة غيرهم حرصًا عليه».

لم يسألها جيساير. لاحظت فيه ذلك على الفور. كان معظم الناس سيسألونها عما جرى، بعضهم اهتمامًا وبعضهم فضولًا وبعضهم ليقرّر أيّ موقف يتّخذ. أما جيساير فصمت صمتًا ترك لها ملكيّة حكايتها.

قالت أخيرًا: «أرِيين كورفيث».

أومأ جيساير.

«رأيته اليوم في القاعة».

«كان ينظر إليك».

«أعلم».

«لم تكن نظرة إلى خصم في مناظرة».

«أعلم».

نظرت ماريا إليه.

«ألا يقلقك ذلك؟»

«بلى. إنما أحاول ألّا أجعل من قلقي حاكمًا على أفعالي».

بقيت عبارته في نفسها.

وفيما بعد سارا معًا في أحياء نيترا القديمة. لم يتواعدا على ذلك. كلّ ما في الأمر أن أيًّا منهما لم ينعطف. تحدّثا عن المحفوظات، وعن الأطفال في أوريولا، وعمّا إذا كان يمكن تغيير العالم من غير أن يزداد في تغيّره قسوة.

وعند الوداع حدث شيء ضئيل.

أرادت ماريا أن تمدّ إليه يدها مصافحةً، لكنها في اللحظة الأخيرة لمست باطن معصمه بثلاث من أصابعها. لم تتعمّد ذلك. كانت حركة سبقت الفكرة.

سكت كلاهما لحظة.

قالت: «اعذرني».

«علامَ؟»

«لا أدري».

نظر جيساير إلى الموضع الذي لمسته.

قال بصوت خفيض: «غريب».

«ما الغريب؟»

بدا لحظةً كأنه يبحث عن كلمات.

«شعرت بأنني أتذكّر شيئًا. لكنني لا أدري ما هو».

لم تجبه ماريا.

فهي أيضًا راودها ذلك الشعور.

كان شعورًا خافتًا غامضًا، أشبه بصدى في غرفة لم تدخلها من قبل.

ولمّا افترقا مضت وحيدة في شوارع نيترا المضاءة، ولأول مرة منذ زمن طويل لم تشعر بأن الوحدة عقاب.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة أرسل إليها أريين رسالة واحدة.

القرارات الشخصية لا تبقى شخصية أبدًا.

أطالت ماريا النظر إليها.

ثم أبقتها ولم تمحها.

لم تعرف لِمَ.

لعلّ بعض التهديدات تأتيك أول الأمر في هيئة جملة لم يقم الدليل عليها بعد.

١٢. الأرض: يسوع على الجبل

أخذ يسوع معه بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد بهم إلى الجبل ليصلّي. وكان الوقت قد تأخّر وهم يسلكون الدرب الحجري، إذ مالت الشمس إلى المغيب وطالت الظلال على السفح. تبعه التلاميذ صامتين، لا يدرون لِمَ مضى بهم إلى هناك بالذات، وخالطتهم رهبة كمسّ الريح الباردة.

ولما بلغوا موضعًا خلاء يعلو على ما حوله من الأرض، تنحّى يسوع عنهم خطوات ورفع عينيه إلى السماء. لم يُسمَع له صوت، غير أن شفتيه كانتا تتحرّكان وكأنه يخاطب أحدًا محجوبًا عن الأبصار. ووقف بطرس ويوحنا ويعقوب وراءه، حتى غلبهم عناء الطريق وسكون الليل، فجلسوا على الأرض وثقلت أجفانهم.

وبينما يسوع ماضٍ في صلاته، جرى أمامهم ما يفوق إدراك البشر. تغيّرت هيئة وجهه وأشرق ثوبه ببياض لا يعرفه نسّاج على الأرض. لم يكن بياض كتّان ولا بياض رداء من صوف، بل نورًا كأنه ينبعث من الداخل. وأضاء وجهه كأنما تفتّحت من ورائه شمس، ومع ذلك لم يحرق النور عيون الذين استيقظوا.

هبّ بطرس من نومه كمن سمع صوتًا في الحلم. وفتح يوحنا عينيه وانحبس نفَسه. واتّكأ يعقوب بكفّيه على الأرض وحدّق أمامه، فقد وقف إلى جانب يسوع رجلان. لم يشبها الحجّاج الآتين من القرى ولا الشيوخ في ديار الهيكل. كان المجد يغشاهما، والوقار على وجهيهما، كأنما عرفا مبتدأ دهور كثيرة ومنتهاها.

كانا يتحدّثان إلى يسوع. وكان كلامهما خافتًا، لكن خُيّل إلى التلاميذ أنهم يفهمونه ولا يفهمونه في آن. تحدّثا عن طريق له أن يتمّ في أورشليم، ودم سيُسفك، وخوف الناس، وسلطان الكهنة، والساعة التي يُسلِم فيها ابن الإنسان نفسه إلى أيدي من لا يفهمون النور.
راح بطرس يحدّق إليهما مرتجفًا، والفرح والخوف يمتزجان في قلبه. ولمّا رآهما كأنهما يتهيّآن للرحيل، قال ليسوع:

«يا معلّم، حسنٌ أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظالّ، واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لإيليا».

ولم يكن يدري ما يقول. فإن المرء إذا رأى ما لم يتهيّأ له سبق لسانه عقله.

عندئذ تكوّنت سحابة فوقهم. لم تصعد من أسفل كضباب الوادي، ولا ساقتها ريح من البحر. هبطت من علٍ، وادعة مضيئة، وغشيتهم. فدخل التلاميذ في ظلّها وأخذهم خوف عظيم. إذ كان في السحابة نور، وكان في النور حضور يصغر أمامه قلب الإنسان.

وجاء من السحابة صوت يقول:

«هذا هو ابني المختار. له اسمعوا».

ولمّا سكت الصوت انفرجت السحابة. وانحسر النور كما يرجع الماء إلى العمق، ووقف يسوع أمامهم وحده. وعاد ثوبه ثوب إنسان، وحمل وجهه تعب الجسد، وبقي في عينيه بريق آفاق لا يعرفها التلاميذ.

طال الوقت ولم ينطق أحد منهم. أخذوا ينزلون من الجبل والحصى يصرّ تحت أقدامهم في العتمة. والتفت بطرس غير مرّة كأنه يرجو أن يرى الرجلين ثانية على القمّة، فلم يرَ غير سماء ملأى بالنجوم.

وأخيرًا استجمع شجاعته ودنا من يسوع.

قال بصوت خفيض: «يا ربّ، أكان الرجلان اللذان كلّماك... إيليا وموسى؟»

نظر إليه يسوع. ولم يُجِب على الفور. مضى خطوات أخرى كأنه يزن كل كلمة لئلّا تحمِل فوق ما يستطيع بطرس أن يحمل.

ثم قال: «الأمر أعقد قليلًا من ذلك يا سمعان».

قطّب بطرس حاجبيه.

«كيف يكون أعقد يا ربّ؟ لقد رأيناهما وعرفنا أنهما هما».

وقف يسوع. كانت النجوم تضيء فوقهم والليلة صافية. فأشار بيده نحو السماء.

«إذا رأى الطفل سراجًا حسب النور مقيمًا في طين الإناء. وإذا رأى الرجل نجمًا حسبه نقطة على قبّة السماء لا غير. ولكن الآب خلق أكثر مما يقدر الإنسان أن يسمّي».

رفع بطرس عينيه.

«أعن الملائكة تتكلّم؟»

قال يسوع: «وعمّن كنتم تسمّونهم ملائكة أيضًا. لكن ليس لكلّ آتٍ من فوق جناحان».

لم يفهم بطرس. واقترب يوحنا ويعقوب، إذ أحسّا أن يسوع يحدّثهم بأشياء لم يكشفها لهم من قبل.

وتابع يسوع:

«أترون تلك الأنوار؟ تحسبون أنها جُعلت علامات للأيام والسنين وحسب. ولكن عند كثير منها عوالم لم يدعها الآب قفرًا. ثمة أماكن تجري فيها أنهار تحت شمس أخرى، وترفع نباتاتها أوراقها إلى نور آخر، وتسعى فيها كائنات شبيهة بالإنسان إلى الحقيقة كما تسعون إليها أنتم».

وشحُب بطرس.

سأل: «بشر؟»

أجاب يسوع: «بشر، وإن لم يكونوا كلهم على شاكلتكم. منهم من سبقكم في المعرفة. ومنهم من عرف أسرار الطبيعة قبل أن يبني آباؤكم مدنهم الأولى. يقدرون أن يبرئوا جراحًا ترونها مستعصية. ويقدرون أن يتخاطبوا من بعيد بلا كلمات. ويقدرون أن يجتازوا أبعادًا ترونها ممتنعة على العبور. ومتى عمل إنسان منهم عملًا بينكم سمّيتموه معجزة».

ارتجف يعقوب.

«أفليست المعجزة إذن معجزة؟»

التفت إليه يسوع وابتسم ابتسامة خفيفة.

«البذرة التي تنبت شجرة معجزة في عين الطفل. وهي في عين الحكيم سنّة من سنن الحياة. أفينقص هذا من مجد الآب؟ كلّا. لأن السنّة التي يعرفها الإنسان تظلّ سنّة الله. والسرّ الذي يكشفه الإنسان يظلّ سرًّا أُذِن له بأن يكشفه».

ظلّ بطرس صامتًا. أفزعته كلمات العوالم الأخرى أكثر مما أفزعته السحابة على الجبل.

وسأل ثانية: «وهذان الرجلان؟ إن لم يكونا موسى وإيليا كما حسبنا، فمن كانا؟»

نظر يسوع إلى الوادي حيث كانت نيران القرى تومض من بعيد.

قال: «كانا ما استطعتم أن تدركوا. وكانا في الوقت نفسه أكثر من ذلك. أتياكم باسمين تعرفهما قلوبكم، لأنهما لو أقبلا بلا حجاب لخررتم على وجوهكم ولم تفهموا شيئًا».

ألحّ بطرس: «قل لنا الحقيقة».

نظر إليه يسوع برفق لم يخلُ من حزم.

«لو قلت لك الحقيقة كلّها اليوم يا سمعان لما فهمتها. ولصنعت منها صنمًا أو خوفًا. وليس في أيّ منهما إيمان».

طأطأ بطرس رأسه.

ومضى يسوع في الطريق فتبعوه.

وبعد برهة قال:

«بين العوالم من يرعون البشر. لا ليسلبوكم حرّيتكم، بل لئلّا تختنق الشعلة قبل أن تتعلّم كيف تتّقد. يتابعون خطاكم، ويحرسون حدودًا لم يحن لكم أن تتجاوزوها، ويمسّون التاريخ أحيانًا حين يوشك أن ينعطف في غير وجهته».

فسأله يوحنا:

«وأتعرفهم يا ربّ؟»

أجاب يسوع:

«أعرفهم. وهم يعرفونني».

كان في كلماته شيء عجز التلاميذ عن تسميته. لم يبدُ لهم كلام معلّم عن أنبياء، بل ذكرى رجل أتى من مكان أبعد مما تنتهي إليه طريق الإنسان.

رفع بطرس عينيه إلى السماء مرة أخرى. لم تعد النجوم أضواء صغيرة مسمّرة في القبّة. بدت له أبوابًا. وقد يكون وراء كلّ باب عالم ينظر إليهم بدوره.

فسأل: «لِمَ أريتنا هذا؟»

وقف يسوع عند حافة الدرب. وكان الليل ساكنًا.

قال: «لأن ساعة تأتي ترون فيها ضعفي. ترونني مقيّدًا. ترونني مضروبًا ومتروكًا. ترون كيف يسخر الناس مما لا يفهمون. فاذكروا يومئذ هذا الجبل. واذكروا أن النور قد يستتر في الجسد، ولكن الجسد لا يفنيه».

لم يُجِب أحد.

ولمّا نزلوا إلى موضع أدنى، أخذ الفجر ينبلج. مسّ أول الضوء الحجارة وعادت الأرض إلى الهيئة التي ألفوها. لكن شيئًا في بطرس لم يعد تمامًا كما كان. سار إلى جوار يوحنا ويعقوب، وظلّ بفكره هناك في الأعالي، في السحابة وتحت النجوم وأمام الرجلين اللذين كانا موسى وإيليا، وكانا مع ذلك شيئًا أعظم.

وأوصاهم يسوع ألّا يخبروا أحدًا بهذا.

فليست كل حقيقة ممّا يُعطى للناس دفعة واحدة. ومن الحقائق ما عليه أن ينتظر حتى يتّسع في باطن الإنسان الإناء الذي يسعها.

١٣. إلاريون: أرييِن كورفيث

لم يولد أرييِن كورفيث رجلًا شرّيرًا.

لكان ذلك أيسر مما ينبغي. والتفسيرات اليسيرة رحمة يجود بها التاريخ على من لا يريدون أن يحملوا تبعة الحقائق المعقّدة.

وُلد أول أمره ابنًا وحسب.

وكانت أمّه أحبّ إليه من كلّ من على وجه الأرض.

كانت أول مكان يذكر أنه عرف فيه الأمان.

حين سقط صغيرًا وأدمى ركبته، لم يهرع إلى وحدة الإسعاف المعلّقة على الحائط على بُعد أمتار قليلة منه. هرع إليها. وحين تلقّى أول تقييم سيئ في المدرسة، أخفاه عن أبيه ساعتين ثم أراها إياه. وحين تشاجر مع صبي من الجيران، عاد إلى البيت تملؤه نقمة المظلوم، فتركته يتحدّث حتى تساقط عن قصّته، شيئًا فشيئًا، كلّ ما أضافه إليها من عنده.

كان لأمّه موهبة عجيبة في ألّا تستعجل تصويبه.

تجلس إلى جانبه.

وتصغي.

وحين يفرغ من الكلمات كلّها التي يدفع بها المرء عن نفسه الشعور بذنبه، كانت تسأله أحيانًا: «والآن أخبرني كيف جرى الأمر حقًّا».

وكان أرييِن يخبرها في أغلب الأحيان.

في حضرتها كان يستطيع أن يُخفق من غير أن يصير إخفاقه في الحال حكمًا على قدره. وأن يغضب من غير أن يكون إنسانًا سيّئًا. وأن يبكي من غير أن تشرح له أن البكاء لا يحلّ شيئًا.

أما أبوه فكان من طينة أخرى.

كان يحبّ أرييـن. ولم يخالج الصبيّ في هذا شكّ جدّي قط. غير أن حبّه اتّخذ صورة القواعد. آمن أبوه بالدقّة. وآمن بأن الاتفاق لا معنى له إلا إذا ظلّ نافذًا ساعة يصبح ثقيلًا على النفس. وبأن الكلمة التي يُتاح تليينها بعد النطق بها تبعًا للظروف ليست وعدًا، بل مقترحًا.

كان يعمل في الأطر القانونية والتنظيم النقدي. يقضي أيّامه في تقرير ما يحدث حين يوفي طرف بشرط ويخلّ به الآخر، ومتى ينشأ حقّ، ومتى ينقضي التزام، وماذا تعني، على وجه الدقّة، عبارة *«في الوقت المحدّد»*.

وكان يحمل هذه الطريقة في التفكير معه إلى البيت.

كان أرييـن في التاسعة حين استبدّ به لغز ميكانيكي قديم.

مكعّب روبيك.

كان في إلاريون من الألعاب ما يخلق للمرء عوالم بأكملها ويحاكي حروبًا أو مدنًا أو كواكب غريبة. لكن أرييـن قضى أسابيع منكبًّا على مكعّب صغير ملوّن، فقد أثاره أن يختبئ كلّ ذلك النظام في شيء على هذا القدر من البساطة.

لاحظ أبوه ذلك.

وقال له ذات مساء: «إذا حللته وحدك أخذتك إلى حديقة الحيوان في سارين».

رفع أرييـن رأسه.

لم يسبق له أن زار حديقة الحيوان. وكانت أمّه تريه تسجيلات لها، فيها حيوانات من ثلاث قارّات، وأحواض ماء هائلة، وأجنحة للكائنات الليلية، وغابة قديمة تركوها تنمو تحت قبّة لا تكاد تمسّها يد.

«حقًّا؟»

«إذا حللته».

«كلّه؟»

ابتسم أبوه قليلًا.

«لو قصدت نصفه لقلت نصفه».

وفي الأيام التالية تمرّن أريين حتى آلمته أصابعه.

حفظ الحركات أول الأمر عن ظهر قلب. ثم فهم أن حفظ الخطوات لا يكفي. كان عليه أن يعرف لماذا تنتقل الأجزاء من مواضعها، ولماذا تفسد حركة واحدة صحيحة في جانبٍ النظامَ في الجانب الآخر، ولماذا يلزمه أن يضحّي بهذا النظام حينًا لكي يستعيده في موضعه بعد ذلك.

افتُتن بالمكعّب.

كان عالمًا صغيرًا لا حقيقة للفوضى فيه.

كلّ ما في الأمر أن الإنسان يجهل الخطوات بعد.

قبل الرحلة بيومين حلّه للمرة الأولى.

ثم للمرة الثانية.

وفي الليلة السابقة للرحيل أصبح يستطيع تكرار الخطوات من غير أن يكاد يفكّر.

مرّرت أمّه أصابعها في شعره.

«إذن سترى الحيوانات غدًا».

ابتسم أريين.

«إذا حللته».

رمقت أمّه أباه.

«ولكنك تعرف كيف تحلّه».

لم يفهم أريين يومئذ لِمَ قالت ذلك.

وفهم في اليوم التالي.

كانوا يقفون أمام مدخل حديقة الحيوان.

رأى وراء الجدران الشفافة العالية رؤوس الأشجار. وبلغته من خلفها أصوات حيوانات لم يعرفها إلا من التسجيلات. وكان الناس يجتازون البوّابات ممسكين بأيدي أطفالهم، ولم يعد أريين يطيق الوقوف مكانه.

ناوله أبوه المكعّب.

«هيا».

ضحك أريين.

«الآن؟»

«كان الاتفاق أن تحلّه».

«ولكنني حللته أمس».

«واليوم نحن أمام الحديقة».

نظرت أمّه إلى أبيه.

«ألا بدّ حقًّا أن يفعلها الآن؟»

«إن كان يعرف كيف يحلّه، فأين المشكلة؟»

أخذ أريين المكعّب.

في البدء جرى كلّ شيء بيسر. الطبقة الأولى. الثانية. الزوايا. الحوافّ.

ثم انتبه إلى أن أباه يراقبه.

مرّت وراءهما أسرة معها طفلان. انفتحت البوّابة وكشفت للحظة عن ممرّ عريض يمضي بين الأشجار.

أسرع أريين.

وارتكب خطأ.

صغيرًا.

في السلسلة الأخيرة من الحركات أدار وجهًا في الاتجاه الخاطئ.

وحين أدرك ذلك تسمّر مكانه.

كان المكعّب يكاد يكتمل. بدت خمسة أوجه صحيحة، وبقيت خانات قليلة في الوجه الأخير في غير موضعها.

قال: «انتظر. سأعيد المحاولة».

نظر أبوه في الساعة.

«لا».

حسبه أريين يمزح.

«ماذا؟»

«لم تحلّه».

«لكنني أعرف كيف أحلّه».

«لم تحلّه الآن».

«أخطأت في النهاية فقط».

«نعم».

نظر أريين إلى بوّابة الدخول.

ثمّ إلى أبيه.

«إذن أصلحه».

«لم يكن الاتفاق أن تظلّ تصلحه إلى أن تفلح».

تدخّلت أمّه بينهما.

«أنت تعرف أنه يستطيع. وقد أرانا ذلك أمس».

أجابها أبوه بهدوء:

«فكان عليه أن يُحسن التركيز اليوم أيضًا».

بدأت عينا أرِيين تحترقان.

«أرجوك».

هزّ أبوه رأسه.

«إذا بطل الاتفاق ما إن يؤسف أحدًا ما يترتّب عليه، فما كان بيننا اتفاق أصلًا».

واستدار قاصدًا مركبة النقل.

وبقي أرِيين مكانه.

كان الأطفال يتحرّكون خلف البوّابة. وسُمع من بعيد صوت حيوان ضخم عميق النبرة، فانطلقت جماعة من الناس إلى منصّة المشاهدة.

كانت الحيوانات هناك.

على بُعد بضع عشرات من الأمتار منه.

لم يكن يلزمه سوى اجتياز البوّابة.

بقيت الأمّ مع أرِيين. وكان أبوه ينتظر عند المركبة.

أمسك الصبيّ بين يديه المكعّب الذي كاد يحلّه، والدموع تجري على خدّيه.

قال: «إنني أكرهه».

جثت أمّه إلى جانبه.

«لا».

«بل أكرهه».

«في هذه اللحظة، نعم».

نظر أرِيين إليها من خلال دموعه.

أخذت أمّه المكعّب في يدها.

«يخلط أبوك أحيانًا بين الدقّة والعدل».

حفظ أرييين عبارتها.

«إذا كان الحكم نافذًا، أفلا يكون عادلًا؟»

«ليس دائمًا».

«فما القواعد إذن؟»

التمست أمّه الجواب برهة.

«لتعيننا على أن نقرّر حين نجهل ماذا نفعل. لا لكي تُعفينا من أن نشعر».

ثم أعادت إليه المكعّب.

«وهناك أمر آخر».

«ما هو؟»

«إذا قصّرت عن الكمال في شيء، فلا يعني ذلك أنك أخفقت في كلّ شيء».

أومأ أرييين يومها.

لكن شيئًا آخر غار في نفسه أعمق بكثير.

بوّابة قد يبقى المرء أمامها واقفًا، وغايته في متناول يده.

وشرط قد تضيع منه فرصة الوفاء به بحركة واحدة خاطئة.

وعالم لا يبالي بأن ما نقصه كان يسيرًا إلى هذا الحدّ.

وبعد بضع سنوات شهد أمرًا قاسيًا غيّر نظرته إلى العالم من أساسها.

كان وحده مع أمّه ذلك اليوم.

كانا عائدين من زيارة خالته حين اختلّ التزامن في أحد مستويات حركة النقل. ودخلت ثلاث مركبات ذاتية القيادة الممرّ نفسه في وقت واحد تقريبًا.

تفادى النظام الأول الاصطدام.

وأخفق الثاني.

لم يذكر أريين الاصطدام فيما بعد في صورة صوت.

ذكر الضوء.

أبيض.

خاطفًا.

ثمّ العالم مقلوبًا على جانبه.

تلقّاه حقل الأمان. انشقّت شفته ورُضّ كتفه وسال الدم على جبينه، لكنه استطاع الحراك.

أمّه لم تستطع.

حصر جزء من هيكل المركبة النصف الأسفل من جسدها. كانت واعية. تتنفّس أنفاسًا قصيرة ضحلة.

زحف أريين إليها.

«أمّي».

نظرت إليه.

وابتسمت حتى في تلك اللحظة.

ذلك أكثر ما طارده فيما بعد.

لم يكن الألم المرتسم على وجهها.

بل تلك الابتسامة.

كأنها، حتى في المركبة المحطّمة، وسط الدخان وصفّارات الإنذار والدم، لا تزال مرفأه.

قالت: «أنا هنا».

وصل المسعفون سريعًا.

كانت منظومات إلاريون تستجيب لكارثة مرورية قبل أن يُدرك المرء أنها وقعت. ظهرت مركبات الإنقاذ فوق موضع الحادث، وطافت مسيّرات طبّية بين المصابين، وأضاء فوق كلّ جسد تقديرٌ لحالته يتجدّد لحظة بلحظة.

لم يكن أرِيين يرى غير أمّه.

جثا مسعف عندها.

والتفت آخر إلى حطام المركبة المجاورة.

وأخرجوا من هناك طفلًا.

صبيًّا قريبًا من أرِيين في السنّ.

ثيابه ممزّقة، وعلى وجهه دم، وإحدى ذراعيه ملتوية تحت جسده على نحو غريب.

حين فتح عينيه رأى أرِيين الدائرة الذهبية.

كانت صافية.

تكاد تشعّ.

أضاف النظام الطبّي في الحال بيانات جديدة.

نظر أحد المسعفين إلى البيانات المعروضة.

«نمط تجدّد أوريلي».

أومأ الآخر.

وتتابعت بضع عبارات لم يفقهها أرِيين تمامًا آنذاك.

احتمال النجاة.

المهلة المتاحة.

نزف داخلي حادّ.

استجابة التجدّد.

مركبة واحدة متاحة للنقل تحت العناية المركّزة.

مركبة أخرى في الطريق.

بعد فوات الأوان.

قال رئيس الفريق: «الطفل أولًا».

رفع أرِيين رأسه.

«لا».

لم يسمعه أحد.

«لا!»

كان المسعفون قد شرعوا في نقل الصبي.

تعلّق أرِيين بثياب أحدهم.

«أمّي!»

التفت الرجل إليه.

«المركبة التالية قادمة».

«فخذوها هي!»

«علينا أن نقرّر وفقًا لـ...»

«ستموت!»

أغمض المسعف عينيه لحظة.

لعلّ تلك كانت أول مرة رأى فيها أرِيين أن من يتّبع الإجراء السليم قد يدرك، مع ذلك، أنه يفعل شيئًا مروّعًا.

«نحاول إنقاذهما كليهما».

استدار أرِيين نحو أمّه.

لا بدّ أنها سمعت الحديث كلّه.

همست: «خذوا الصبي».

نظر إليها أرِيين غير مصدّق.

«لا».

«أرِيين».

«لا».

مدّت يدها إليه.

كانت أصابعها ترتجف.

أمسك بها.

«أمّي، قولي لهم».

«انظر إليّ».

«قولي لهم أن يأخذوك أنت».

«أرِيين».

احتفظ صوتها بتلك السكينة التي عرفها منذ طفولته.

سكينة المطبخ.

سكينة الأمسيات.

سكينة مَن كان يأتي إليها كلما كبر العالم عليه.

قالت: «ذلك الطفل يمكن إنقاذه».

«وأنت أيضًا».

لم تُجب.

أُغلقت أبواب المركبة الطبّية خلف ظهر أرِيين.

وقبل أن تنغلق بلحظة رأى مرة أخرى وجه الصبيّ الذي لا يعرفه.

ورأى عينيه.

توارَت الدائرة الذهبية وراء الجدار المُصمَت.

وصلت المركبة التالية لنقل أمّه بعد دقائق.

وذكر التقرير لاحقًا عددها بالدقّة.

حفظ أرييين ذلك العدد عن ظهر قلب سنين طوالًا.

ماتت أمّه في الطريق إلى المستشفى.

شرح الأطبّاء فيما بعد أنه حتى لو نُقلت في وقت أبكر لم يكن إنقاذ حياتها مؤكّدًا. فقد مزّق هيكل المركبة أوعية دموية كبيرة في حوضها. ولم تستطع المسيّرات الميدانية سوى إبطاء النزف، أما رتق الإصابة فكان يقتضي وحدة متخصّصة. وكان العلاج التجديدي يتطلّب دورة دموية مستقرّة وساعات لم تعد تملكها. وكان قرار المسعفين موافقًا للأصول. فبفضل سنّ الصبيّ في المركبة المجاورة ونوع إصابته ونمط التجدّد الأوريلي لديه، كان احتمال نجاته بعد التدخّل المكثّف أعلى بكثير.

نجا الصبيّ.

ولم تنجُ أمّ أرييين.

لم تكن الدائرة الذهبية وحدها ما حسم الأمر.

كانت فقط العلامة الظاهرة لأحد العوامل التي أخذ بها النظام.

لكن ذلك لم يكن يعني شيئًا لأرييين.

الأطفال لا يتذكّرون الفاجعة في صورة تقرير فنّي.

يتذكّرون مشهدًا.

وأرييين تذكّر أمّه مسجّاة بين الحطام.

وأبواب مركبة الإنقاذ.

وعيني الطفل الذهبيّتين تُغمضان في الجانب الآخر.

هكذا نشأت في أرِيين كراهية للأوريليين.

لم تكن لها حجج.

ولا تاريخ.

ولا نظرية سياسية.

كان لها لون.

ذهبي.

بعد الدفن طلب أبوه سجلّ الحادث كاملًا.

ودرس القياسات المرسلة عن بُعد، وأزمنة الاستجابة، وبروتوكول فرز المصابين، وقرارات المسعفين، والنماذج التنبّئية.

انتظر أرِيين منه أن يجد مذنبًا.

كان يحتاج إليه.

فلا بدّ أن أحدهم قد أخطأ.

ولا بدّ أن يتحمّل أحد المسؤولية.

بعد بضعة أيّام أغلق أبوه التقرير الأخير.

وقال: «تصرّفوا كما ينبغي».

حدّق فيه أرِيين.

«أمّي ماتت».

أطرق أبوه.

«أعرف».

«فكيف يكونون قد تصرّفوا كما ينبغي؟»

طال صمت أبيه.

كان في وجهه جمود حسبه أرييين يومها برودًا. ولم يفهم إلا بعد زمن طويل أن بعض الناس، حين لا ينهارون في العلن، لا يكون ذلك لغياب الألم. إنما ينهارون إلى الداخل، حيث لا يراهم أحد.

قال أبوه: «ليس لكلّ قرار صائب عاقبة حسنة».

مقت أرييين تلك العبارة.

«فما نفع صوابه إذن؟»

لم يُجب أبوه.

وأدرك أرييين للمرة الأولى شيئًا لم يفارقه قطّ تمامًا.

قد يصنع النظام كلّ شيء على وفق القواعد، ومع ذلك يموت إنسان.

لا حاجة لأن يكذب أحد.

ولا لأن يخرق أحد القانون.

ولا لأن يُضمر أحد سوءًا.

وقد تكون الحصيلة قبرًا.

منذ ذلك اليوم أقبل على دراسة الآليات بنظرة أخرى.

كان من قبل يدرسها لمتعة فهم الأشياء.

أما الآن فاحتاج إلى التحكّم فيها.

إذا استطاع العالم أن يأخذ منه أمّه بقرار يتعذّر وصفه بالخطأ، فلا يكفي أن يكون المرء إنسانًا صالحًا.

ولا يكفي أن يكون على حقّ.

ولا يجدي التوسّل.

كان على المرء أن يفهم بأيّ ميزان يحكم العالم.

وإن لم يشأ أن يقف في صفّ من يتركهم النظام ينتظرون، لزمه أن يكون حيث توضع القواعد قبل أن يُشرع في اتّخاذ القرار.

وهكذا تعلّم في طفولته أمرين.

أوّلهما أن زمام العالم في أيدي الذين يفهمون آليّاته، لا في أيدي أصحاب الحقّ.

وثانيهما أنك إن لم ترَ الآلية كنتَ في عِداد من تتحكّم فيهم.

وُلد في دولة فيرانيّة غربية، في أسرة من الإداريين والقانونيين وخبراء الاستراتيجيات النقدية. وبعد موت أمّه بقي البيت على حاله، ومع ذلك غاب منه المكان الذي كان يستطيع أن يلوذ به.

ظلّ أبوه هناك.

والقواعد أيضًا.

وتواصلت وجبات العشاء.

ودارت الأحاديث خلالها عن تقلّبات الأسواق واتفاقات الائتلاف والثغرات التنظيمية، وعن أيّ دولة لا تزال تحسب أن مصرفها المركزي مستقلّ.

أما المشاعر فقلّما جاء ذكرها.

تأقلم أريين.

كان فائق الذكاء. في ذكائه دقّة مبضع الجرّاح. يعرف كيف يشقّ المسألة طبقة طبقة، ويجد موضع الضعف، ويقدّر مَن سيتراجع، ومَن يمكن إقناعه، ومَن يُشترى ومَن يمكن تجاوزه.

عدّته المدارس الفيرانيّة موهبة.

وتكتّلات المال استثمارًا.

والسياسيون رجلًا نافعًا.

أما هو فعدّ نفسه ممن يبصرون ما وراء الستار.

عاد في مراهقته إلى سجلّ حادث أمّه.

لم يعد إليه مرّة واحدة.

بل مرّات كثيرة.

بحث أولًا عن خطأ المسعفين.

ثمّ عن خطأ الخوارزمية.

ثم حاول أن يعرف من أقرّ البروتوكول وعلى أيّ بيانات بُني.

لم يجد مؤامرة.

وأغضبه ذلك أكثر مما لو وجد واحدة.

أُنقذ الصبيّ لأن النظام قدّر أن فرصته أكبر. ولم يكن النمط الحيوي الأوريلي إلا متغيّرًا واحدًا بين متغيّرات كثيرة.

إلا أن أريين أخذ يلحظ الأوريليين في كلّ مكان.

في بثّ الاحتفالات.

وفي وثائق الأُسَر.

وفي أعرق المدارس.

وفي حكايات أناس كانت أجسامهم تتجدّد أسرع من غيرهم.

وفي أساطير سلالات قيل إن أبناءها كانوا قديمًا يشفون باللمس.

كانت الدائرة الذهبية تُعرض بوصفها تراثًا ثقافيًا.

ورأى فيها أريين امتيازًا يُمنَح للمرء عند مولده.

في مطلع حياته المهنية قدّم أريين إلى مسؤولي النقل مقترحًا بتخصيص مركبات احتياطية للعناية المركّزة في الحوادث المتعدّدة. لم تكن بادرة استعراضية. فقد حسب أزمنة

الوصول وتوزيع المركبات وكلفة الاحتياط. وحين قالوا له إن هذه الموارد ستبقى معطّلة أكثر الأيام، وضع أمامهم تقرير حادث أمّه وطلب أن يُدخلوا في حسابهم دقائق الانتظار أيضًا.

أقرّوا المقترح. وبعد سنتين تلقى بلاغًا عن اصطدام وصلت فيه مركبتا عناية مركّزة معًا فنجا المصابان إصابتين خطيرتين. وكان أحدهما صبيًّا أوريليًّا. احتفظ أريين بالبلاغ. كان يومها لا يزال يؤمن بأن قاعدة أعدل تستطيع حماية المرء أيًّا كان لون عينيه.

ومع ذلك، إذ شاهد احتفالًا أوريليًّا عامًّا، خطرت له عبارة ظلّ يشعر بشيء من الخجل منها:

حتى أمّي أخذتموها منّي.

لم يكن ذلك صحيحًا.

وكان عقله يعرفه.

لكنّ وجعه لم يكن محلّلًا.

قد يعرف المرء سنين أن كراهيته قائمة على أساس غير دقيق، ثمّ يبني عليها دارًا كاملة. يكفي أن يجد فيما بعد من الحجج ما يُعيد به تسمية الجرح القديم قناعةً.

ووجد أريين تلك الحجج.

ثم التقى ماريا.

لم تكن تشبه أمّه.

لا في الطبع، ولا في أسلوب العيش، ولا في طريقة التفكير. وكان أريين سيعدّ مثل ذلك التشبيه ساذجًا.

ومع ذلك شعر معها للمرة الأولى منذ سنين بشيء عرفه في طفولته.

بإمكان أن يكفّ برهة عن الدفاع عن نفسه أمام العالم.

كانت ماريا رقيقة الحسّ عصيّة على التحكّم، طيّبة القلب من غير رخاوة. وحين تخالفه الرأي لا تفعل ذلك لتنتصر. إنما تفعله لأنها لا تستطيع أن تخون ما تراه عيناها على وجه الدقّة.

أعجبه فيها ذلك أول الأمر.

وفي حضرتها كان يعود بين الحين والآخر ذلك الإنسان الذي ستره سنين وراء الآليات.

ثم خاف من ذلك.

لأن ما يحتاج إليه المرء يمكن أن يفقده.

وقد عرف أريين ذات يوم مكانًا يؤوب إليه كلما تألم، إلى أن انتزعه العالم منه.

فراح يفعل ما كان يفعله بكلّ ما لا يريد أن يخسره.

يحاول أن يفهمه.

ثمّ أن يتنبّأ به.

ثمّ أن يتحكّم فيه.

كان يذكر ما تقول ماريا. من تقابل. متى تعود إلى البيت. بمن تثق. من يؤثّر فيها. وما الذي يغيّر آراءها.

وكان يسمّي هذا في سرّه اهتمامًا.

ثمّ صار يسمّيه حرصًا.

وفي آخر الأمر حقًّا.

وحين تبيّن له أن الإنسان لا يمكن ضمانه كما يُضمَن تدفّق المال، بدأ الغضب يتسلّل إليه.

لم تنضوِ ماريا تحت نظامه.

ولم يكن لأحد أن يملكها.

وحين أدرك أنها لا تُمَلَّك، أخذ يكره فيها بعينه ما أحبّه من قبل.

بعد رحيلها ظلّت الشقّة مرتّبة أكثر مما ينبغي.

لم تكسر شيئًا. لم تصرخ. لم تجعل منه أمام الناس وحشًا يملك هو أن يدافع عن نفسه في وجه من ينعته به.

رحلت وفي أثرها «لا» هادئة.

في الأيام الأولى قال لنفسه إنها ستعود.

ثمّ قال إن أحدًا أثّر فيها.

ثمّ برز في ذهنه جيساير دافيون.

ومعه اللون القديم.

الذهبي.

غريب ما أيسر أن يتماسّ في النفس حدثان تفصل بينهما عقود.

طفل غريب يُنقل بعيدًا عن مكان الحادث.

ورجل يقف إلى جانب ماريا.

كلاهما أوريليّ.

وفي عيني كليهما دائرة ذهبية.

كان العقل يعرف ألّا صلة سببية بينهما.

أما الجرح فلم يحتج إليها.

وأخذ أريين يردّد في سرّه أن ماريا لم يكن بوسعها قطّ أن تنتمي حقًّا إلى عالمه. وأن الأوريليين يختارون في النهاية أبناء جلدتهم دائمًا، وإن تحدّثوا عن الشمول والمساواة والحضارة برمّتها.

في اللحظة الحاسمة كانوا، في رأيه، يعودون إلى الدائرة.

إلى الدائرة الذهبية.

كره تلك العلامة قبل أن يعترف لنفسه بذلك بزمن طويل.

وكان آل دافيون، في نظره، أسوأ الجميع.

أسطورة يضحك منها المتعلّمون ولا يتخلّون عنها تمامًا. الشفاء باللمس. واستباق المصائب. وطبيعة تصغي. حكايات قديمة لحضارة تملك ذكاءً اصطناعيًّا حيويًّا ومجسّات كمّية ومدنًا على كوكب آخر.

ومع ذلك، كان حسب جيساير دافيون أن يقف في قاعة مجلس الاتحاد وينطق بجملة واحدة حتى يصمت الناس.

أخذ أرِيين لاحقًا يعيد تشغيل تسجيل مناظرة نيترا.

أوقفه عند وجه جيساير.

«يجب أن نصون خصوصية الإنسان. أما خفاء السلطة فلا».

كان جيساير يقف بهدوء. لا يحتاج إلى نشوة انتصار ولا إلى تمثيل. وهذا بعينه ما أقلق أرِيين.

يمكن شراء السياسي الطموح.

ويمكن فضح من يتلاعب بالجماهير.

أما الرجل الذي لا يريد السلطة وينالها مع ذلك بثقة الآخرين، فالتحكّم فيه أعسر بكثير.

كبّر أرِيين صورة عينيه.

ولاحت فيهما الدائرة الذهبية لحظة.

وغاب العالم من حوله.

في جزء من الثانية عاودته رائحة الموادّ المحترقة من المركبة المحطّمة.

وسمع المسعف:

نمط تجدّد أوريلي.

ورأى يد أمّه.

وأبواب مركبة الإسعاف.

وعيني الصبيّ الذهبيّتين.

ثم عاد إلى نيترا.

أمام صورة جيساير دافيون.

شعر أريين بنفور يقلب معدته.

وقال للغرفة الخالية: «لا».

لم يكن يعرف على وجه الدقّة بعدُ مَن يرفض.

أجيساير؟

أم ماريا؟

أم الأوريليين؟

أم النظام الذي أصدر حكمه يومًا بلا كراهية وأخذ منه أمّه مع ذلك؟

ولعلّه كان يرفض هوانه هو أيضًا.

تقاربت هذه الأشياء كلّها في نفسه حتى أخذ يعجز عن تمييز بعضها من بعض.

وفي تلك اللحظة بالذات أضاء تنبيه على سطح عمله.

وصلته رسالة من تلك الدوائر المغلقة التي يلتقي فيها كبار مديري الصناديق والمستشارون السياسيون ومن يفضّلون أن تبقى أحاديثهم بعيدة عن السجلّ العام.

لم يرد فيها اسم المرسِل.

واشتملت على مكان وموعد وعبارة واحدة:

يسرّ السيد ثورن أن يتحدّث إليكم في تبعات كلمة اليوم.

قرأها أريين مرّتين.

لم يكن لكايل ثورن منصب رسمي يوازي مدى نفوذه. لم يرأس حكومة ولا مصرفًا مركزيًّا. ومع ذلك تردّد اسمه حيثما ذُكر مديرو الثروات وصناديق الاستثمار ووسائل الإعلام والمؤسّسات والحملات السياسية.

كان الناس يقولون عنه إنه مستشار.

أما الذين عرفوا أكثر فلم يستعملوا له صفة.

لم يمحُ أريين الرسالة.

استمع أولًا إلى خطاب جيساير مرة أخرى.

وهذه المرّة لم يتطلّع إلى جيساير.

بحث عن كايل في الصورة فوجده.

ثم لاحظ لحظة قصيرة لم يكن كايل فيها ينظر إلى الخطيب.

كان ينظر إليه هو.

قبِل أريين الدعوة.

التقيا في المساء التالي عاليًا فوق نيترا في غرفة مملوكة رسميًّا لمؤسّسة تدعم التعاون الاقتصادي بين الدول.

كان كايل ينتظر.

«سيّد كورفيث».

«سيّد ثورن».

«اسمك معروف عندي منذ بعض الوقت».

«أيفترض بهذا أن يُسعدني؟»

«يفترض به أن يجعلك حذرًا».

فتح كايل تسجيل المؤتمر وأوقفه عند جيساير.

وقرأ: «متى حان أوان العمل المشترك، فلا يجوز أن تمضي القيمة بعدُ في الظلّ. ما يخدم الجميع ينبغي أن يراه الجميع».

توقّع أرييين أن يسخر.

لكنه رأى في وجه كايل شيئًا أشدّ إثارة لاهتمامه بكثير.

الخوف.

كان كايل ثورن يخاف تلك الفكرة.

لم تكن الشفافية في نظره مسألة أخلاقية. كانت تهديدًا لوجوده. فلو أمكن رسم تدفّقات المال في إلاريون على خريطة واحدة، لكشفت ما يتجاوز التهرّب الضريبي.

لكشفت أحزابًا سياسية تموّلها المصادر نفسها.

ووسائل إعلام تتبادل البغضاء في الظاهر ويملكها في الباطن المال نفسه.

ومؤسّسات.

ومصارف.

وصناديق.

وبيت ثورن.

قال كايل: «ليس لدافيون تنظيم حتى الآن. ليس له حزب ولا جهاز ولا قانون».

«فلِمَ تخافه؟»

«لأن الناس يفهمون ما يقول».

أطفأ كايل الصورة.

«يمكن أن تُدفن الأفكار المعقّدة في اللجان. أما البسيطة فتنتشر من تلقاء نفسها».

مال أرييين إلى الخلف.

«أدعوتني لتقول لي إنك تخاف رجلًا أوريليًّا واحدًا؟»

«دعوتك لأنك أنت لا تخافه».

«لا».

صمت كايل برهة.

«أنت تكرهه».

شعر أرِيين بعضلات عنقه تتشنّج.

«أنت لا تعرف عنّي ما يكفي».

«أعرف كيف كنت تنظر إليه».

«النظرة ليست دليلًا».

«لا أبحث عن دليل. أبحث عن دافع».

نهض أرِيين.

لم يستوقفه كايل.

قال: «ماريا ليورن ليست السبب في وجودك هنا».

بقي أرِيين واقفًا.

«هي فقط السبب في أن كراهيتك القديمة تعلّمت النطق من جديد».

استدار أرِيين هذه المرّة بحدّة.

لم يدرِ كايل إلى أيّ حدّ أصاب.

لم يكن يعلم بأمر الحادث.

ولا بأمر الأمّ.

ولا بأمر الصبيّ.

ولا بأمر العينين الذهبيتين وراء الأبواب وهي تنغلق.

لكنّ أمثال كايل لا يحتاجون إلى معرفة أصل الجرح. يكفيهم أن يلحظوا وجوده.

سأل أرييين: «ماذا تريد منّي؟»

«لا شيء إلى الآن».

«لم يكن بك إذن حاجة إلى استدعائي».

«أريد أن أعرض عليك دعمي».

جلس أرييين ببطء.

«من أجل ماذا؟»

عرض كايل أمامه صورة عن عالم الأبحاث والمال.

«تعاملت مع مؤسّسات كبرى. ولك خبرة بالقانون والمال وبمسائل السلامة الحيوية».

«وكانت كلّ أعمالي مشروعة».

«بالطبع».

نطق كايل الكلمة بسكينة أفرغتها من المعنى.

«البيوت والمؤسّسات التي أتعاون معها تبحث عمّن يستطيع دراسة الأخطار التي تهدّد الحضارة على المدى البعيد. الاقتصادية منها والسياسية والاجتماعية والوراثية».

نظر إليه أرييين.

«والأوريلية؟»

لم يُجب كايل على الفور.

«والأوريلية أيضًا، إن كنتَ تراها خطرًا».

لم تتكشّف في تلك اللحظة خطّة.

إنما انفتح باب.

كان كايل يعرض عليه أن يضع في متناوله سلطان المال والمعرفة، وألا يبقى أرييين بعد اليوم وحده مع أسئلته التي لم يجرؤ على تسمية مرادها.

«وماذا تريد في المقابل؟»

«معلومات. إلى أين تمضي فكرة جيساير؟ من يؤيّدها؟ وهل يمكن وقف نموّها قبل أن تخرج من حدود الشعار الأخلاقي وتصبح برنامجًا سياسيًّا؟»

«أتريد النيل من سمعته؟»

«إن أمكن».

«وإن لم يمكن؟»

حدّق كايل فيه.

«عندئذ سنحتاج إلى تحليل أدقّ».

لم يكن به حاجة إلى المزيد.

بعد اللقاء شرع أريين يقرأ عن الوراثة لدى الأوريليين.

وقال لنفسه بادئ الأمر إنه فضول مهني.

قرأ عن حكايات انتقلت في الأسر من الآباء إلى الأبناء، وعن خصائص ظلّت عبر الأجيال تقترن في أذهان الناس بالدائرة الذهبية.

علم الأحياء.

مجرّد علم أحياء.

تمامًا كما في التقرير عن موت أمّه.

كلما مضى في القراءة التقى في باطنه شطران من حياته ظلّ يفصل بينهما إلى ذلك الحين.

الطفل الذي فقد أمّه.

والرجل الذي احتاج إلى تفسير العالم من غير أن يعترف بأنّ ذلك الطفل ما زال يحكمه.

أخذ يدوّن ملاحظات.

سلطة أخلاقية من غير تفويض انتخابي.

استمرار السلالة بوصفه رأس مال سياسيًّا.

دافيون، رمز يأبى أن يكون رمزًا، ولهذا بالذات يزداد أثره.

الشفافية أداة للنفوذ الأخلاقي الأوريلي.

لم تكن الجملة الأخيرة صحيحة.

لم تكن الشفافية أوريلية. عرضها جيساير نظامًا يشترك فيه الجميع.

لكن أريين لم يعد ينطلق من الواقع.

صار ينطلق من النتيجة التي يحتاج إلى بلوغها.

والذكيّ الذي يختار النتيجة سلفًا قد يكون أخطر من الأحمق.

فالأحمق لا يُحسن شقّ طريق كاملة الاستواء إلى الضلال.

أما أريين فيُحسن.

كلما أكثر من الكتابة قلّ إدراكه أنه لم يكن يكتب عن الأوريليين.

كان يكتب عن الصبي الواقف أمام حديقة الحيوان.

وعن البوّابة التي لم تنفتح لأنه لم يَفِ بالشرط.

وعن أمّه بين الأنقاض.

وعن مركبة إسعاف فتحت بابها لشخص سواه.

وعن ماريا التي أغلقت الباب خلفها.

لقد كثرت الأبواب في حياته.

وعزم أريين على ألّا يكون بعد اليوم هو الذي يبقى واقفًا أمامها.

وذات مساء أجابت ماريا عن إحدى رسائله القديمة.

أريين، لن أعود. ما حدث لم يكن خطأ وقع بيننا. كان تعدّيًا على حدّ لا يُمسّ. أتمنّى أن تقدر يومًا على الاعتراف لنفسك بهذا.

قرأها مرّات كثيرة.

وأغضبته الجملة الأخيرة أكثر من غيرها.

لأنها كانت صحيحة بالذات.

بعد ثلاثة أيام شاهد تسجيلًا لنقاش علنيّ في أوريولا. كان جيساير يتحدّث عن المحفوظات.

وجلست ماريا بين المستمعين.

وحين فرغ جيساير التقت عيناهما لحظة.

لم يكن في ذلك شيء يمكن أن يُساق دليلًا.

ومع ذلك رأى أريين فيه كلّ شيء.

أوقف الصورة.

جيساير.

ماريا.

الدائرة الذهبية.

وفي قاع نفسه، تحت كلّ سنوات التعلّم والنفوذ وضبط النفس، ظلّ صبيّ في التاسعة يمسك بين يديه مكعّبًا كاد يحلّه.

فتح على سطح عمله قائمة بمؤسّسات البحث.

وكان يضيء بإزاء عدد منها إذن جديد.

وافقت إدارة الصندوق على توسيع الصلاحيات.

كان كايل قد وفى بوعده.

بات لأريين أن يطرح مشروعات استراتيجية، وأن يجد لرأيه سندًا ونفوذًا حيث لم يكن لصوته من قبلُ صدى.

لم يكن شيء من ذلك جريمة بعد.

والبحث في السلامة الحيوية أمر تقتضيه الحاجة.

وكان لبحوث الوراثة السكّانية أن تنقذ أرواحًا.

وكانت نمذجة الأخطار التي تطول النظام كلّه من مقتضيات الإدارة المسؤولة للحضارة.

لكلّ أداة استعمال مشروع.

وكان ما يحسم الأمر هو اليد التي ستجمعها ذات يوم.

كان أريين يعرف عالم النفوذ معرفة حميمة. ويعرف أيّ مسافة يمكن أن تفصل بين ما تضمره إرادة واحدة وما يراه الناس من آثارها.

أطال النظر إلى الإمكانات الماثلة أمامه.

لا يصير المرء جانيًا عند ارتكاب فعلته الأولى وحسب.

فأحيانًا يتجاوز الحدّ قبل ذلك بكثير.

في اللحظة التي ينظر فيها إلى إمكان تدمير إنسان آخر، ويستبدل بسؤال *«أَيَحِقّ لي؟»* سؤال *«كيف السبيل؟»*

لم يكن أريين قد طلب شيئًا بعد.

ولا خاطب مختبرًا.

ولم تكن لديه خطّة محدّدة.

لكن كان له راعٍ.

وكانت الأبواب مفتوحة له.

وكان على يقين بأن إرادته لن تبقى حبيسة نفسه، وبأن أناسًا سيُساقون إلى خدمة غاية لو أبصروها لفزعوا.

خرج ليلًا إلى الشرفة.

تألّقت نيترا تحته. وعبرت فوق المدينة سفن تمضي إلى الحلقة المدارية، ومنها إلى ثايرون.

كان العالم دقيقًا.

مترابطًا.

محكومًا.

تذكّر أريين أباه.

تصرّفوا كما ينبغي.

وتذكّر أمّه.

ما وُضعت القواعد لكي تُعفينا من أن نشعر.

ظلّت الجملتان تتواجهان في ذاكرته عقودًا طويلة.

وفي النهاية اختار جملة أبيه.

لا لأنه صفح عن أبيه.

بل لأنها تصلح للاستعمال.

إذا كان الناس يحتكمون إلى الآليات، فحسب المرء أن يملك زمامها.

وإذا آمنت المؤسّسات بقواعدها، فمن عساه يسائلها عمّا يتولّد عن أحكامها؟

وإذا غابت الجريمة عن أعين الناس، فمن عساه يشعر بوزرها كلّه؟

نظر أريين إلى المدينة.

وقال بصوت خفيض: «ليس ثمّة قرارات شخصية».

راقته العبارة.

كان لها جرس الفلسفة.

وكان يبكي فيها، في الحقيقة، طفل أمام بوّابة مغلقة.

كانت على سطح العمل وراءه رسالة تنتظر من مكتب بيت ثورن.

الدعم المالي والقانوني جاهز. قدّموا التصوّر الأول للمشروع.

عاد أريين إلى الداخل.

الكراهية، حين تنضج، تكفّ عن الصراخ.

وتشرع في التنظيم.

فتح كايل له الباب الأول.

وكانت إلاريون، تلك الحضارة العظيمة تحت الشمس العظيمة، لا تزال تعرض عليه وراءه ممرّات أكثر مما ينبغي.

١٤. الأرض: مولد جيل جديد

كان المساء يهبط على الأرض، وأورشليم وراءهم جرح لم يمهله الوقت ليلتئم. جلس التلاميذ في بيت أبوابه موصدة. لم يرفع أحد منهم صوته. وحمل كلّ منهم عارًا غير عار صاحبه، بطرس إنكاره، وتوما عدم إيمانه، وسائرهم فرارهم وصمتهم وخوفهم.

عندئذ تغيّر هواء الغرفة.

لم يُسمع وقع خطوات ولا صرير باب. وفجأة كان واقفًا بينهم.

يسوع.

وقف يسوع بينهم حيًّا وادعًا، حاضرًا إلى حدّ لا يدع سبيلًا للظنّ أنه ذكرى أو طيف أو خيال استدعاه اليأس. ولم تعد للألم على وجهه الكلمة الأخيرة.

قال: «السلام لكم».

لم يتحرّك أحد. ثمّ تراجع بعضهم وخرّ آخرون على ركبهم. وغطّى بطرس وجهه بيديه. وبكى يوحنا بلا صوت. وظلّ توما شاخصًا، كأن العالم الذي شيّده بأسره على الشكّ قد انهار في لحظة.

رفع يسوع يديه، وفي معصميه آثار المسامير. ثم أزاح رداءه وأراهم جنبه الذي خرج منه دم وماء قبل أيام قليلة.

وقال بصوت خفيض: «أنا هو. ما تلمسونه ليس حلمًا ولا رجاءً باطلًا. أنتم تلمسون ما عجز الموت عن حبسه».

دنا توما كرجل يخشى ما يوشك أن يعرفه. أراد أن يلمس الجرح، فتوقّفت يده في الهواء. وتحطّم يقينه العنيد كلّه.

وهمس: «ربّي وإلهي».

نظر إليه يسوع بلا عتاب.

«آمنت لأنك رأيت. ولكن سيأتي من لا يرون، وتتّقد فيهم مع ذلك النار نفسها».

ثم جلس بينهم كأنه عائد من سفر قصير لا من مملكة الموت. وسألهم طعامًا، فناوَلوه قطعة سمك مشوي وقليلًا من الخبز. وأكل قدّامهم على مهل كما يأكل الناس، وكانت هذه الألفة بالذات أهيب من المعجزة. فالروح لا يأكل. والحلم لا يكسر الخبز. والذكرى لا تنظر في عيني إنسان.

ولمّا فرغ أخذ يحدّثهم عن الكتاب، عن موسى والأنبياء، وعن كلمات سمعوها طوال حياتهم ولم تتفتّح لهم كالأبواب إلا الآن. وقال إن ابن الإنسان كان لا بدّ له أن ينزل إلى حيث يخشى الناس أكثر ما يخشون أن ينظروا، ليريهم أن الله حتى هناك لم يفقد سلطانه على العالم.

قال: «حسبتم الصليب النهاية. وما كان الصليب إلا المكان الذي استنفدت فيه سلطة البشر آخر ما عندها. فحيث أرى الإنسان ما يستطيع أن يصنع بالله، أرى الله ما يستطيع أن يصنع بالإنسان: أن يغفر له».

ومضوا بعد ذلك شمالًا إلى المياه التي دعاهم عندها أوّل مرة. كان بحر طبرية ساكنًا، وأرخى الليل فوقه حجابًا معتمًا. قال بطرس إنه ماضٍ ليصطاد سمكًا، فمضى معه الآخرون. وألقوا شباكهم الليل كلّه ولم يصيبوا شيئًا.

وعند الفجر وقف رجل على الشاطئ.

وناداهم: «يا أبنائي، هل عندكم شيء يؤكل؟»

أجابوا: «لا».

«ألقوا الشبكة عن يمين السفينة».

فعلوا، فامتلأت الشبكة بغتة حتى لم يقووا على سحبها. عندئذ شحُب يوحنا ونظر إلى بطرس.

«إنه الربّ».

ألقى بطرس بنفسه في الماء من غير تفكير. وراح يخوضه إلى الشاطئ كأنما يبتغي مع كلّ خطوة أن يعود إلى ما قبل تلك الليلة التي قال فيها ثلاث مرّات إنه لا يعرفه.

كانت على الشاطئ نار موقدة، وعلى الجمر سمك وخبز. وقف يسوع عند اللهب ووجهه مضيء بنور الصباح. وكانت مريم المجدلية غير بعيدة عنه. لزمت الصمت، إلا أن صمتها كان غير صمت الآخرين. لم يكن فيه خزي ولا خوف. بل معرفة هادئة، كأنها علمت منذ البدء أن الموت لم يكن المكان الذي تنتهي فيه حكايتهما.

وأكلوا معًا. ولم يجرؤ أحد أن يسأله: «من أنت؟» فقد كانوا جميعًا يعرفون.

ولمّا فرغوا من الطعام التفت يسوع إلى بطرس.

وقال: «يا سمعان بن يوحنا، أتحبّني أكثر من هؤلاء؟»

خفض بطرس عينيه.

«يا ربّ، أنت تعلم أنني أودّك».

أومأ يسوع.

«ارعَ حملاني».

طقطقت النار. رفع بطرس عينيه، فعاد يسوع يسأله:

«يا سمعان بن يوحنا، أتحبّني؟»

ارتجف صوت بطرس.

«نعم يا ربّ. أنت تعلم أنني أودّك».

«ارعَ خرافي».

وسأل يسوع للمرّة الثالثة:

«يا سمعان بن يوحنا، أتودّني؟»

عندئذ آلم بطرس كلّ ما بقي في داخله يتظاهر بأنه التأم. ثلاثة أسئلة تهوي في مرّات إنكاره الثلاث. وثلاث إجابات تنهض من ثلاثة جراح.

قال بطرس: «يا ربّ، أنت تعلم كلّ شيء. أنت تعلم أنني أودّك».

وأطال يسوع النظر إليه في جِدّ.

«ارعَ خرافي».

وفهم بطرس عندئذ أن الغفران ليس نسيانًا. إنه إيداع الأمانة عند إنسان عرف الآن مقدار ضعفه.

ثم مضى بهم يسوع إلى جبل. ووقف هناك الأحد عشر، ومريم المجدلية، ونفر آخرون ساروا في أثرهم من الجليل إلى أورشليم. وانبسطت تحت أقدامهم أرض كان مقدّرًا لها أن تبقى طويلًا موزّعة بين الإمبراطوريات والكهنة والتجّار والسيوف والخوف. وانفتحت فوقهم السماء، لا مهربًا، بل تذكرة بأن قسوة العالم ليست أسوارًا تطبِق عليه.

وقال يسوع:

«أُعطيتُ سلطانًا لم يستطع الناس أن يأخذوه منّي، لأنهم لم يكونوا من أعطانيه. فاذهبوا وعلّموا الأمم. لا بالسيف. ولا بالخوف. ولا بشهوة التسلّط. علّموهم أن يبصروا. وأن يحبّوا الحقيقة فوق منفعتهم. وأن يغفروا من غير أن يخدموا الكذب. وعمّدوهم لحياة لا يعود الإنسان فيها ملكًا لنفسه وحدها».

خرّ بعضهم على ركبهم. وبكى بعضهم. وبعضهم ظلّ يشكّ، فقلب الإنسان يبقى قلب إنسان حتى وهو يرى المعجزة.

واقترب منهم يسوع.

قال: «لن أكون معكم كما كنت. لكنني أكون معكم كلّ الأيام، في كلّ إنسان يستيقظ من سبات خوفه. أكون في الوعي حين يعرف نفسه. وأكون في كلّ من يفهم أن ملكوت الله لا يأتي قصرًا من سحاب، بل نورًا في باطن الإنسان».

ثم التفت إلى مريم المجدلية.

لم تكن إشارة معلّم إلى تلميذة. كان في التفاتته شيء أقدم وأعمق وأهدأ. كما يلتقي نهران بعد طول ترحال في مجرى واحد من جديد. دنت منه مريم وتماسّت يداهما لحظة. رأى بطرس ذلك. ورآه يوحنا أيضًا. ولم يقل أحد شيئًا.

نظر يسوع إلى بطرس آخر مرة.

وقال له: «ابقَ أنت مع القطيع. تجمع شمله حين يتفرّق. وتذكّره بالخبز والنار والبحر. وتحدّثه عنّي وتقول إنني قمت».

أراد بطرس أن يعترض، فاستوقفه يسوع بنظرة.

ثم التفت إلى يوحنا: «وأنت تحمل الكلمة. احفظ ما رأيت، وأكثر منه ما فهمت».

ثمّ قال لهم جميعًا:

«ليس كلّ ما يبدأ من الله واجب الظهور أمام العالم. فمن الأعمال ما ينمو في الخفاء. ومن البذور ما ينبغي أن يقع بعيدًا من الهياكل، بعيدًا من العروش، بعيدًا ممّن يريدون امتلاكه».

وقفت مريم المجدلية إلى جانبه وحرّكت الريح شعرها. لم تكن في وجهها دهشة. كان فيه رضى إنسانة تعرف الطريق من قبل.

وتابع يسوع: «سيأتي زمان يولد فيه أناس لا يحملون اسمي راية بل يحملون وعيي شعلة. لن يحكموا العالم من قصور. سيغيّرونه لأنهم يبصرون أبعد ممّا يبصر الآخـرون. سيولدون بين الأمم في أزمنة شتّى، في أجساد أناس عاديين. وكلما دنا العالم من الهاوية سيتذكّر بعضهم».

لم يفهم التلاميذ كلّ شيء، ولعلّهم لم يكونوا يستطيعون. فما سمعوه من كلمات كان أكبر من أعمارهم.

وتحرّكت في السماء سحابة مشرقة. لا كمركبة تحمل يسوع على مرأى منهم، بل كحجاب يُستر به طريق لم يحن لهم أن يعرفوه. ورفع يسوع يديه وباركهم.

وقال: «كونوا لي شهودًا. إلى أقاصي الأرض».

ثم تراجع إلى النور.

رأى بعضهم السحابة تأخذه عن أبصارهم. وكان بعضهم ليُقسِم أنه صعد إلى العلاء. وآخرون، ويوحنا خاصّة، ظلّوا حتى آخر العمر لا يجزمون أفي تلك اللحظة انفتحت السماء فوقهم أم فيهم.

وحين زال النور بقوا وقوفًا على الجبل يحدّقون في الخلاء.

وبدا إلى جوارهم رجلان في ثياب بيض، كأنهما جواب صامت عن سؤال لم يجرؤ أحد أن ينطق به.

قال أحدهما: «لِمَ تحدّقون في السماء؟ إنّ من ذهب لم يَضِع. إنما دخل طريقًا لم تتعلّموا أن تتبعوه بعد».

استدار بطرس إلى أصحابه. كان على وجهه دمع، وكان فيه أيضًا ثبات لم يكن له من قبل.

قال: «هلمّ بنا. علينا أن نرعى خرافه».

وبعيدًا عنهم، حيث يغيب الطريق بين الصخر ونور الصباح، مشى شخصان جنبًا إلى جنب. رجل وامرأة. لم يكونا كمن يفرّ من العالم، بل كمن يحملان مستقبله في صمت، كي يجده العالم ذات يوم في نفسه.

ووراءهما بقيت أورشليم والصليب والقبر الخالي والنار على الشاطئ والقطيع الذي استُودع بطرس.

وأمامهما طريق لن تُكتب عنه الكتب من فوره.

ومع ذلك كان مقدّرًا أن يولد على ذلك الطريق يومًا جيل جديد من البشر، لا أشدّ قوّة في الجسد ولا أوفر مالًا، بل أصفى وعيًا. أناس سيتذكّرون دون أن يدروا من أين أتتهم الذكرى. أناس سيسمعون في أنفسهم، عند مفاصل التاريخ، صوتًا هادئًا:

استيقظ.

فالملكوت لا يبدأ من عرش.

إنما يبدأ في إنسان يُدرك أنه يُدرك، ويستخلص من ذلك ما ينبغي أن يترتّب عليه.

الجزء الثاني: تجزئة جريمة واحدة

١٥. ثلاثون عملة

ليس للمال نيّة.

لا يعرف كيف يكره أو يحسد أو يشتهي الانتقام. ولا يدري أيشتري خبزًا أم دواءً أم صوت سياسيّ أم موتًا آتيًا. لا يعرف إلّا الوجهة والقيمة والحساب الذي يستريح فيه هنيهة.
الإنسان هو من يَهَب المال نيّته.

والإنسان تعلّم منذ زمن بعيد كيف يفصل المال عن اسمه.

استقبل كايل ثورن أريين في الغرفة نفسها التي التقيا فيها أوّل مرّة. عاليًا فوق نيترا، وراء جدار زجاجه داكن. وتلألأت المدينة تحتهما كشبكة هائلة من الأعصاب. انسابت خطوط النقل بين الأبراج، وعكس النهر الأضواء، وفي البعيد ارتفعت الحلقة المدارية فوق الأفق.
لم يكن على الطاولة بينهما شيء.

وضع كايل راحته على سطحها.

فظهرت خريطة إلاريون.

أربعون دولة.

ثلاثون عملة متداولة.

مئات المصارف.

وآلاف الصناديق والمؤسّسات وشركات الإدارة ومكاتب المحاماة وسجلّات الملكية، لا يعرف بعضها عن بعض إلّا ما ألزمه به القانون.
سأل كايل: «ماذا ترى فيها؟»

حدّق أريين في الخريطة.

«تفتّتًا».

«السياسي يسمّيه تنوّعًا».

«والمصرفي يسمّيه فرصة».

ابتسم كايل قليلًا.

«لهذا دعوتك».

لمس كايل شمال الخريطة فأضاءت عملة الرابطة الشمالية، ثم أشار إلى ثيرينيث بين جزر الجنوب. بين ناحيتين من عالم واحد اختلف حتى معنى ما يستحقّ أن يبقى سرًّا. وامتدّ خطّ بينهما.

تبعت عينا أريين حركة مبلغ على الخريطة. بدا له أن لكلّ أرض مرّ بها حكاية أخرى ترويها عنه، حتى كاد في آخر المطاف ينكر حكاية بدايته.

والمال هو المال.

وجوه قانونية شتّى.

وغايات شتّى.

ولا اسم واحدًا.

قال كايل: «لو سألت الاتحاد لأعطاك رواية صحيحة. ولو سألت ثيرينيث لأعطتك رواية صحيحة أيضًا. وما من سجلّ هنا يكذب».

«ولا أحد يرى الصورة كلّها».

«الكلّ مفهوم خطر. لا يحبّه السياسيون».

أظهر كايل بإشارة من يده تدفّقات أخرى، بالمئات. بعضها يقصد شركات النقل، وبعضها الآخر وسائل الإعلام والمؤسّسات السياسية ومراكز الأبحاث وشركات التأمين.

وقاد خطّ منها إلى حزام كار، حيث مضى عامان ودخلت الحرب عامها الثالث بين دولتين تتنازعان الوصول إلى مكامن الطاقة.

قال أرييين: «تمدّهم بالسلاح».

لم يتحرّك كايل.

«لبيتي مصلحة مالية في شركة توفّر لأحد الطرفين تجهيزات دفاعية».

«والطرف الآخر؟»

«قروض لإعمار المدن المتضرّرة».

نظر إليه أرييين.

«لم تبدأ إعادة الإعمار بعد».

«لهذا بالذات تبدو الشروط مواتية».

أغلق كايل طبقة الحرب من العرض. فعل ذلك بلا خجل ولا فخر أيضًا. كما ينقل المرء وثيقة من ناحية إلى ناحية على مكتبه.

قال: «لا أقول هذا لأبهرك. أريدك أن تفهم العالم الذي أنت فيه. فالسلطة قد تكون ماثلة في وضح النهار ويظلّ الناس مختلفين على مَن يملكها».

«وماذا تنتظر منّي؟»

«تصوّرًا عامًّا».

«لأيّ شيء؟»

«أنت من يحدّد ذلك».

أدار أرييين وجهه نحو المدينة.

منذ لقائهما الأول وهو يفكّر فيما يريده حقًّا. وكانت أفكاره تعود كلّ مرة إلى جيساير وماريا والدائرة الذهبية، لكنه لم يستطع أن يضعها أمام كايل على هذه الصورة. كانت ستبدو ضئيلة. شخصية. مضحكة.

أراد أن تعرف ماريا أنها تركت رجلًا أعظم مما وسعها أن تُدرك.

وأراد أن يكفّ جيساير عن الوقوف أمام الناس في هيئة جواب أخلاقي عن سؤال لم يُحسن أحد بعد طرحه.

وأراد أن يكفّ الأوريليون عن النظر إلى العالم بعين حكاية قديمة تخصّهم بمكانة في التاريخ.

وأكثر من كلّ شيء، أراد أن ينكسر شيء ما.

لا كلّ شيء.

ما يكفي فحسب لكي يفقد الناس إيمانهم بأن جيساير دافيون يستطيع أن يدلّهم على طريق يأمنون السير فيه.

قال أريين: «السلامة الحيوية».

ظلّ كايل بلا حراك.

«تابع».

«في إلاريون ثلاثة فروع من البشر. يعرف الطبّ أن بينها فروقًا، ويتحاشى أهل السياسة الخوض في معناها. ولا أحد يعرف ماذا سيحلّ بنا لو وقعت محنة صحّية وشعر بعضنا أن الحضارة قد تخلّت عنه».

«أتريد دراسة خطر كهذا؟»

استدار أريين.

«أريد أن أدرس مدى استعداد الحضارة».

ابتسم كايل.

لا لأنه صدّقه.

بل لأنه استحسن العبارة.

«هذا يحتاج إلى بحث».

«وإلى معرفة».

«وإلى من يتولّاه».

«وإلى وقت».

«وإلى رضى أهل السياسة».

«أسميه اعترافًا بحقّ البحث في شؤونه المشروعة».

أسند كايل ظهره.

«وأيّ غاية لك وراء ذلك كلّه؟»

سكت أريين ثانية أطول مما تقتضيه الإجابة.

«تلك غاية لن يسمعوها منّي».

ظلّت ثلاثون عملة تضيء على خريطة إلاريون.

لكلّ منها قيمتها وقواعدها وتاريخها وحدودها. وكثر ما تغيّر المال فيما بينها حتى خُيّل أنه يفقد مع كلّ سعر صرف شيئًا من ماضيه.

كبّر كايل الخريطة.

وقال: «كلّ ما تراه هنا يستطيع أن يمنحك سلطانًا. وحين تظهر عاقبته، سيقول كثيرون إنهم لم يريدوها».

«وكَمْ من الناس سيدخلون في هذا؟»

«يتوقّف ذلك على المدى الذي تريد لأسئلتك أن تبلغه».

«وأصحاب المال أنفسهم؟»

«ستعرف عن بعضهم أكثر مما تعرف عن بعض. ولن يَسهل عليك أن تلتقي بعيني مَن تحاسبه».

«ومن سيدير الأمر؟»

«لا أحد».

نظر إليه أريين.

وتابع كايل:

«ستعرف أنت ما تريد. أما الآخرون، فلكلّ منهم عن نفسه حكاية يرضاها. سيحدّثك أحدهم عن نزاهته وآخر عن إخلاصه لعمله، وسيقسم لك ثالث أنه لم يتمنَّ لأحد سوءًا. وإذا جاء يوم الحساب، فلن يكون صدق ما يقولونه عزاءً لأحد».

«وإن لم أجد من يجيبني؟»

«فلن يعطيك أحد حقيقة ما جرى دفعة واحدة».

عاد أريين ينظر إلى العملات الثلاثين.

«وكم سيكون نصيبنا من هذا كلّه؟»

هزّ كايل كتفيه.

«ما يكفي لأن ينظر أهل إلاريون إلى هذه الليلة بغير العين التي ننظر بها نحن».

لم يكن للمال نيّة.

لكنّه اكتسب في تلك الليلة وجهة.

ومضى نحو جرح لم يحمل اسمًا بعد.

١٦. للجرح ميزانية

عمل أريين ثلاثة أيام لم يغادر فيها شقّته.

لم يُسدل الستائر. تعاقب على نيترا أمامه الصباح فالمساء، والمساء فالليل، ثم عاد الليل إلى الضوء البارد. ولم يتراكم على طاولته غير أوعية الشراب الفارغة. أما كلّ ما عداها فكان قائمًا في طبقات فوق سطح العمل.

كتب العنوان أوّلًا:

برنامج الصمود الحيوي للكوكب.

أطال النظر إليه إلى أن محاه.

أضخم مما ينبغي.

أشدّ ادّعاءً للاكتمال ممّا ينبغي.

وأشدّ جلبة ممّا ينبغي.

وعاد إلى الصفحة يمتحن ما يمكن أن تحتمله الكلمات من أسئلة.

ماذا نعرف حقًّا عن صحّة أبناء إلاريون؟

ماذا ترث الأجيال من أجساد من سبقوها؟

هل تخذلنا الرعاية يوم نشتدّ حاجة إليها؟

كيف نؤتمن على ماضي المرضى؟

ماذا يبقى من التماسك الاجتماعي إذا تفاوت نصيب الناس من المحنة؟

وأيّ عون يستطيع الذكاء الاصطناعي الحيوي أن يقدّمه للمرضى؟

كلّ سؤال منها مشروع.

بل كان بعضها ملحًّا.

ظلّ يكتب حتى بلغ عدد ما على الشاشة ثلاثة وعشرين مشروعًا.

وكانت الكلمات على الشاشة تزداد بُعدًا عن الجرح الذي خرجت منه.

المعرفة.

التقدير.

الأخلاق.

الموارد.

الرعاية.

دراسة طول العمر.

القانون.

النجدة.

الحماية.

مخاطبة الناس.

صمود المرافق.

لم تظهر على الشاشة كلمة واحدة تسمّي ما كان يريده في قرارة نفسه.

فذلك لم يكن إلّا في رأسه.

في اليوم الرابع أتى رجل من بيت ثورن. لم يحمل اسمًا يعني لأريين شيئًا. اكتفى بالتعريف بنفسه على أنه منسّق مالي.

كان أصغر مما توقّع أريين. ووجهه عادي إلى حدّ بدا معه خلوّه من السمات صفة مهنية.

قال: «السيد ثورن يريد تقديرًا أوليًّا لحجم العمل».

أتاح له أريين الاطّلاع على مشروعاته.

راح المنسّق يتفحّص ما أمامه. لم يكن يعنيه علم الأحياء. وكلما وقف عند بضعة أسطر رأى أريين في عينيه حسابًا للكلفة، ولم يرَ سؤالًا واحدًا عن البشر الذين تتناولهم تلك الأسطر.

وسأل عند أحد البنود: «هذا في باب البحوث الصحية؟»

«نعم».

«ستجد من يهتمّ به».

«لا أظنّ أن اهتمامه هو اهتمامي».

«أما هو فيظنّ ذلك».

عقد أريين حاجبيه.

«ما يهمّني أن أجد في النتيجة نفعًا».

«ستحصل على ما يهمّك. وسيرى كلّ من يسمع اسم المشروع فيه ما يخصّه».

ووقف عند مشروع آخر.

«وهنا حديث عن مستقبل الرعاية. هذا يعني الجهات الضامنة أيضًا».

«وما الذي يعني شركات التأمين فيه؟»

«إنهم يخشون على الغد، مثلك. ولكلّ منكم معنًى مختلف للخشية».

«أنا أسأل عن الحياة لا عن ثمنها».

«وسوف يقرأ كلامك مَن يجيبك بالأرقام».

ومضى المنسّق إلى البند التالي.

«هذا عمل هائل».

«الذكاء الاصطناعي الحيوي».

«ثايرون».

«لماذا؟»

«لأنّ هناك من سيُسرّ بهذا العمل. أليس ذلك ما تريد معرفته؟»

تابع أرييين أفكاره وهي تتحوّل إلى أبواب محاسبية.

شيء لم يكن قبل بضعة أيّام إلا رغبة مبهمة في إيذاء جيساير باتت له بنود في ميزانية وتقديرات زمنية وأشكال قانونية.

صار للجرح ميزانية.

ولم تعرف الميزانية بندًا اسمه الكراهية.

ولم يكن للانتقام فيها سطر يخصّه.

كانت تحوي نفقات كثيرة، لكلّ منها رقم وسطر واسم لا يدلّ على صاحبه.

ويستطيع المرء أن يقرأ الوثيقة كلّها ولا يجد فيها ما يستحي منه.

سأل أرييين: «كم سيكون المبلغ الإجمالي؟»

ذكر المنسّق رقمًا.

كان أعلى مما توقّع.

«سيَلحظ الناس هذا».

«لن يروه كما تراه أنت».

«قد يسأل أحدهم عمّا حدث».

«قليل هم الذين يسألون، يا سيّد كورفيث، وأقلّ منهم من يرضى أن يسمع الجواب».

«وإذا سألوا يومًا؟»

«سيكون الأوان قد فات».

قالها المنسّق هادئًا بلا خبث، كأنّه يصف فرقًا في التوقيت بين نظامين.

أشاح أرييين بوجهه.

في الطبقة المجاورة ظلّت أمامه الرسالة الأخيرة في حديثه مع ماريا.

القرارات الشخصية لا تبقى شخصية أبدًا.

كتب لها العبارة يوم كتبها تهديدًا، لكنها بدأت في الأيام الأخيرة تبدو له قانونًا. اتّخذت ماريا قرارًا شخصيًّا. رحلت. اختارت حياة من دونه.

واتّخذ جيساير قرارًا شخصيًّا. وقف في القاعة ونطق بفكرة.

واتّخذ كايل قرارًا شخصيًّا. فتح ممرّات المال.

وها هو أريين يتّخذ قراره.

كلّ قرار يمسّ أناسًا آخرين.

وليس الفارق إلا في المدى.

قال المنسّق: «للسيد ثورن سؤال آخر».

«ما هو؟»

«أيّ نتيجة تعدّونها مقبولة؟»

استدار أريين إليه على مهل.

«تقصد نتيجة البحث؟»

«نتيجة المشروع».

شعر بالتردّد أول مرّة.

تخيّل جيساير مريضًا. لا ميتًا. ضعيفًا وحسب. مجرّدًا من تلك الثقة الهادئة التي تجتذب إليه الآخرين. وتخيّل الأوريليين وقد اضطرّوا إلى التماس الحماية من الدول. وتخيّل جمهورًا يكفّ عن السؤال عن الشفافية ويبدأ بالخوف من الفروق بين البشر في أجسادهم.

وتخيّل ماريا تفهم أن جيساير ليس بمنأًى عن الأذى.

قال: «إثبات إمكان أن يُجرح المرء».

انتظر المنسّق.

«أيّ امرئ؟»

«الأوريليين».

«وجيساير دافيون؟»

سكت أريين.

وكان في ذلك كفاية.

أغلق المنسّق الوثيقة.

«سيكون التصوّر الأول جاهزًا في غضون عشرة أيّام».

وحين انصرف استقرّ الصمت في الشقّة.

فتح أريين مجلّدًا من محفوظات الأوريليين الصحية. ليس فيه اسم ولا سيرة مريض، بل تاريخ أجيال كُتب بلسان العلم، ووصف للدائرة الذهبية.

قرأ عنها بوصفها خاصيّة حيوية.

قرأ عن الدائرة الذهبية وقد نُزع منها معنى العلامة.

ولم يرد في الكلام ذكر لنور الروح.

لم يبقَ إلا ما أمكن أن يحويَه قياس.

فأراحه ذلك.

ما أيسر أن يعزم المرء على إيذاء رمز حين يحوّله أوّلًا إلى معلومة.

١٧. مؤسّسات الحماية

أُنشئت المؤسّسة الأولى قبل سبعة عشر عامًا.

واسمها مؤسّسة حماية الأجيال المقبلة. أُنشئت لتدعم البحوث الرامية إلى وقاية الأطفال من انتقال الأمراض الوراثية إليهم.

عرفها الجمهور من قصص العائلات التي أعانتها على تحمّل نفقات العلاج.

وظهر ممثّلوها في المدارس والمستشفيات والمناظرات السياسية. وكانت تُصدر كلّ عام تقريرًا حافلًا بصور الأطفال والأطبّاء والباحثين.

ولم يكن اسم كايل ثورن في شيء من صفحاته.

ولم يكن للمؤسّسة مالك بعينه في حقيقة الأمر. لها مجلس وأموال ومدقّقون وأسماء تملأ صفحات الأوراق الرسمية، لكن من قرأها كلّها لم يعرف إلى مَن يؤول القرار.

لم يكن في آخر السلسلة اسم.

كان فيها حقّ إصدار القرار.

ما احتاج كايل إلى أن يملك المؤسّسة. كان يكفيه أن يعرف أصحاب القرار فيها أيّ اتّصال لا يُردّ.

وكانت المؤسّسة الثانية تحمي الأنظمة الصحية من الجوائح الآتية.

ودعمت الثالثة التطوير الآمن للذكاء الاصطناعي.

واعتنت الرابعة بأخلاقيات البيانات الوراثية.

وأعانت الخامسة الأقاليم التي أضرّت بها الحرب في حزام كار.

ولكلّ واحدة اسم حسن.

تحبّ السلطة أن تتزيّا بكلمات يعسر الاعتراض عليها.

الحماية.

الأمان.

المستقبل.

الأطفال.

السلام.

ولا أحد يؤسّس «مؤسّسة النفوذ الخفيّ».

جلست نيراي سايل في الطبقة تنظر إلى دفعة أصغر من أن تنهض بها قضية كبرى، وأغرب من أن تطوي ملفّها.

أتت من أحد فروع فيستا.

في الظاهر على الأقلّ.

أشار العرض التحليلي إلى ثلاث دفعات تربط محيط فيستا بمؤسّسات لحماية الصحّة. وكان لكلّ منها غرض مشروع. واستوقف نيراي توقيتها وما بينها من شبه، مع اختلاف أصحابها.

سألها تارين فوس: «أتظنّين أن مطعمًا يموّل بحوث الوراثة؟»

«لا أظنّ شيئًا».

«ذلك أكثر آرائك تكرارًا».

كبّرت نيراي الخطّ الزمني.

«ليست المسألة في هذه الدفعة وحدها. انظر إلى الفروع الأخرى».

جلس تارين إلى جوارها.

ورأت على الخطّ الزمني مصادفة تتكرّر بين تلك الدفعات وطلبات جديدة لإجراء أبحاث.

قال تارين: «فيستا تؤيّد كثيرًا من القضايا الطيّبة».

قالت نيراي: «لا أدري أيّ هذه التبرّعات يعبّر حقًّا عمّا يريده أصحابها».

«هذه العبارة أقلّ ملاءمة لتقرير يُنشر على الناس».

«فما سرّ هذه المصادفة بين طلبات البحث وتلك التبرّعات؟»

«التخطيط الضريبي».

«ربّما».

«بناء السمعة».

«ربّما».

«أحدهم في فيستا يعذّبه ضميره».

نظرت إليه نيراي.

«هذا أبعد الاحتمالات إلى الآن».

فتح تارين بيانات المؤسّسات.

كانت جميعها قانونية.

استوفت التبرّعات موجبات الإفصاح واستوفت المؤسّسات ما عليها من تقارير. لكن كثرة ما كُتب لم تُجب عن أسئلة نيراي كلّها.

قال تارين: «نستطيع أن نطلب قائمة المشروعات».

«ولكن لن نحصل على جميع العقود».

«لا».

«ولا على نصّ التكليفات».

«لا».

«ولا على أسماء الواهبين في نهاية المطاف».

«ليس في كلّ مكان».

اتّكأت نيراي إلى الخلف.

«فماذا سنرى إذن؟»

«ما يأذن لنا القانون برؤيته».

«يأذن لنا برؤية كثير من الكلمات وقليل من الوجوه. وسنبقى نتساءل مَن اتّخذ القرار، ومَن مسّه أثره، وأيّ جواب أرادوه في النهاية».

صمت تارين برهة.

«ما زال لا مبرّر لدينا لافتراض وجود جريمة».

«أعلم».

«وليس بالضرورة أن تكون فيستا مصدر أموال غير مشروعة».

«أعلم».

«وقد تكون المؤسّسات تفعل بالضبط ما تدّعيه».

«وأعلم ذلك أيضًا».

نظر إليها تارين بابتسامة خفيفة.

«فلِمَ يبدو عليك كأنك تودّين منذ الآن أن تعتقلي أحدًا؟»

«لأن كلّ شيء قد يكون بريئًا، ومع ذلك فثمة من رتّبه».

ظهر على سطح العمل ردّ من أحد المصارف. كان قد رفض إتاحة السجلّ الكامل للدفعات، لغياب ما يثبت شبهة ارتكاب جريمة جسيمة.

قرأت نيراي الرسالة مرّتين.

كان عليهما أن يريا مجرى المال ليعرفا هل يوجد ما يدعو إلى الاشتباه.

وكانا يحتاجان إلى ما يدعو إلى الاشتباه ليُسمح لهما برؤية مجرى المال.

أشار تارين إلى أحد المشروعات التي دعمتها المؤسّسة.

«انظري».

ذهبت المنحة إلى مركز أبحاث في أوريولا يعلّق عليه المرضى بعض آمالهم في الشفاء.

قال: «قد يكون بحثًا في إطالة العمر».

«قد يكون».

«وهذا ما يتحدّث عنه الناس كلّهم الآن».

كان الطبّ على أعتاب تحوّل كبير. وصار في وسع العلاجات التجريبية أن تُبطئ الشيخوخة إلى حدّ بعيد، وتُجدّد أعضاء متضرّرة، وتطيل الحياة. وربّما كان أيّ بحث في التجدّد لدى الأوريليين خطوة مشروعة نحو حياة لا تنتهي من تلقاء نفسها.

أما نيراي فكانت تجهل بعدُ ذلك السؤال الآخر.

قالت: «ضع علامة على كلّ مشروع في علم الأحياء».

«على أيّ أساس؟»

«على أساس مصدر التمويل».

«ليس لها مصدر واحد».

«على الورق، لا».

«نيراي».

«ضع العلامات وحسب. لن نفتح تحقيقًا. نحن نبحث عمّا يتكرّر».

امتثل تارين.

وظهرت أمامهما تسعة مشروعات.

التعافي.

الصمود.

دراسة الحياة.

صون المحفوظات.

الصحة العامّة.

حماية الأنظمة.

التواصل في الأزمات.

التأمين على المرض.

أخلاقيات استعمال البيانات.

إذا نظرا إلى كلّ منها وحده لم يظهر بينها رابط.

وإذا نظرا إليها معًا بدت أجزاء من سؤال لم يتلفّظ به أحد بعد.

فتحت نيراي ملفّ فيستا وأضافت ملاحظة:

يُحتمل وجود صلة بين أموال مخصّصة للأبحاث. الغرض المشترك غير محدّد.

وطلب منها النظام تقديرًا للخطر.

غير محدّد.

نقرت لتؤكّد.

قال تارين: «أتعرفين ما الغريب؟»

«أشياء كثيرة».

«ثمّة صلة بين مؤسّسة إغاثة حزام كار ومؤسّسة السلامة الحيوية».

فتحت نيراي السجلّ.

كان ذلك صحيحًا.

إحداهما تموّل المستشفيات الميدانية وإغاثة اللاجئين.

والأخرى تدعم دراسات في الصحّة.

وكان لثيرينيث ذكر في شؤونهما المالية كلتيهما.

سألت: «ومن يقف وراء ذلك المال؟»

راجع تارين السجلّ.

«هوية المالك الأخير محميّة».

نظرت نيراي إلى الخطوط المتشابكة.

حرب على أحد الجانبين.

وبحوث في علم الأحياء على الجانب الآخر.

وبينهما مال بلا اسم.

لم يخطر لها يومئذ أنها تنظر إلى ما سيصبح شِقَّين من كلمتها أمام المحفل.

كلّ ما رأته كان مؤسّسات.

وكلّ واحدة منها تزعم أنها تحمي شيئًا ما.

١٨. ذكاء اصطناعي حيوي بلا كراهية

لم يكن للذكاء الاصطناعي الحيوي وجه.

في الأفلام القديمة كانوا يُعطون الآلات عينين وصوتًا ومشية تشبه مشية الإنسان. احتاج الناس إلى رؤية الذكاء في هيئة كائن حيّ ليُتاح لهم أن يثقوا به أو يخافوه.

أما الأنظمة الحقيقية فلم تعد تحتاج إلى مثل ذلك المسرح.

كان الذكاء الاصطناعي الحيوي الذي أُتيح لأريين استعماله قائمًا في مراكز حوسبة متفرّقة على ثايرون. لم تكن له نواة واحدة ولا مقرّ واحد. وخزنت ذاكرته ما تراكم من معرفة بالحياة والمرض ومن تجارب في فهم ما يجري داخل الأجساد.

وكان قادرًا على تبيّن صلات يتطلّب اكتشافها من فريق بشري سنوات.

واستُخدم في استحداث العلاجات.

وفي تجديد الأعضاء.

وفي تقدير المخاطر الوراثية.

وفي حماية الأجيال المقبلة.

لم يكن شرّيرًا.

وذلك كان أخطر ما فيه.

حين بلغته أسئلة أريين، لم يكن وراء الكلمات في نظره إنسان له ماضٍ وجرح.

كان ثمة سؤال عن الصحّة.

وسؤال حمل معه أمل الناس في عمر مديد.

وآخر عن مستقبل المرضى.

وكان ثمة من يسأل عمّا يجوز للعلم وما لا يجوز.

ولكلّ سؤال قدّم الذكاء الاصطناعي الحيوي جوابًا.

ولم يفقه شيئًا من أمر الرجل الذي ينتظر الأجوبة.

جلس أريين قبالة سطح عمله يتأمّل ما يجيئه.

جاءته في أول الأمر نتائج عامّة. إحصاءات وتقديرات ومواضع شكّ وتحذيرات من الخطأ في التأويل.

ثمّ تكشّفت صلات أعمق.

قرأ أريين كلامًا عن حيوات اقترنت في ذاكرته بالدائرة الذهبية. لم يكن في ما قرأ حكم بالضعف. فأكثر الأوريليين أصحّاء، بل هم في بعض الوجوه أشدّ صمودًا من أبناء الفروع الأخرى.

لكن لكلّ مزيّة حدًّا.

وما يبدو يقينًا اليوم قد يتغيّر إذا تغيّرت الظروف.

قرأ أريين النتائج ولم يتحرّك.

لم تعرض عليه الآلة سلاحًا.

كان هو من رأى في الكلمات خريطة للهشاشة.

ورافقت كلّ جواب تحذيرات.

البيانات تخصّ جماعات سكّانية.

ينطوي النموذج على قدر كبير من عدم اليقين.

لا يجوز استعمال النتائج في التمييز بين الناس.

يُشترط تقييمٌ أخلاقي وقانوني قبل أيّ استعمال عملي.

لم يمحُ أريين التحذيرات.

كلّ ما في الأمر أنه تركها على هامش ما أراد أن يراه.

واتّصل فيما بعد برئيسة أحد فرق البحث. ظهرت صورتها فوق الطاولة. كانت امرأة سيلينية في أواسط العمر، تملك الوجه الهادئ لمن أمضى معظم حياته مع الأمراض فتعلّم ألّا يستعجل النطق باليقين.

قالت: «أسئلتك تتّسع».

«فالمشروع يتطوّر».

«بدأنا بالحديث عن التعافي».

«وما زلنا نتحدّث عن الصحّة».

«وهل بقي المعنى هو المعنى؟»

«لا نستطيع أن نَعِد الناس بعمر أطول ونزعم أن أسئلتهم ستبقى على حالها».

أومأت العالمة، لكنها لم تبدُ مقتنعة.

«من صاحب التكليف الأخير؟»

«مؤسّسة حماية الأجيال المقبلة».

«هذه جهة مانحة. أسألك عمّن سيستعمل النتائج».

«السلطات الصحية».

«أيّ سلطات؟»

«وفقًا لما تقتضيه الحاجة».

«هذا ليس جوابًا».

نظر أريين إليها.

«إنه بحث وقائي على مستوى الكوكب. وسنُطلع الجهات المعنيّة على النتائج عند انتهاء المراجعة القانونية».

«فلماذا لا أرى ما تطلبون منّا بوضوح؟»

«لأن لما نعمل عليه حرمة يلزمنا جميعًا مراعاتها».

وكان ذلك صحيحًا.

سكتت العالمة.

ثمّ قالت: «اعترض الذكاء الاصطناعي الحيوي على جانب من العمل».

«لماذا؟»

«رأى فيه أمرًا أشدّ حساسية مما يجوز».

«ما الذي أقلقكم؟»

«أن يستحيل ما نسأل عنه مصدر أذًى لمن يأتمنوننا على سلامتهم».

«وهؤلاء بالذات من نقول إننا نريد حمايتهم».

«ربّما. لكن النظام لا يعرف نيّتك».

كاد أرييين يبتسم.

«فمَن الذي سيحكم على نيّتي؟»

«مسؤوليتي لا تقف عند ما تقوله عن نفسك».

«أريد جوابًا».

جمُدت العالمة.

«عفوًا؟»

«تقولين لي إن هناك حدًّا. وأنا أسألك ماذا تقولين غدًا لمن كان ينتظر أن تمدّي له يدًا».

«ومَن يتحمّل مسؤولية ما قد يحدث له؟»

لم يُجب أرييين جوابًا مباشرًا.

«أليس من مهمّتك حماية إلاريون من مخاطر الغد؟»

«بلى».

«فكيف ستحمينه من شيء تأبين أن تفهميه؟»

أطرقت العالمة إلى البيانات أمامها.

كان هذا من الأسئلة التي يمقتها العلماء. يُذكّرهم بأن الحذر يُتّهم في كل حين بالجبن، والفضول بالاستهانة بالتبعات.

قالت: «سنحتاج إلى رأي أخلاقي جديد».

«ستتكفّل به المؤسّسة».

«رأي مستقلّ».

«بطبيعة الحال».

انتهى الاتّصال.

بعد يومين صدر رأي مكتب الأخلاقيات، وفيه حدود صريحة لما أُجيز وما بقي معلّقًا على موافقة لم تُمنح.

قرأ أريين الوثيقة.

كانت دقيقة.

وكانت صارمة.

ولم تبلغ صرامتها الموضع الذي كان ينبغي أن تبلغه في ضمير الرجل الذي قرأها.

لم تكن في الذكاء الاصطناعي الحيوي كراهية.

ولم يكن له ما يحمله على إيذاء الأوريليين.

لم يعرف مَن جيساير، ولا لِمَ يشعر أريين عند ذكر اسمه بانقباض تحت عظم صدره.

لم يفعل سوى أن أجاب عن أسئلة.

لم تدخل الكراهية في حساباته.

دخلت في اختيار الأسئلة.

١٩. مختبرات بلا خريطة

قام المختبر الأول قرب ساحل أمينيا حيث عكف الباحثون على آمال المرضى في الشفاء.

وكان الثاني في دولة شمالية تضمّ واحدة من أرقى جامعات الطبّ في إلاريون. فيه أمضى الباحثون أعمارهم سعيًا لفهم الإنسان.

وقام الثالث على الحلقة المدارية، معنيًّا بسلامة سكان مدن ثايرون المغلقة.

وكان الرابع على ثايرون، وعمله الحوسبة.

أما الخامس فلم يكن مختبرًا بالمعنى المألوف. كان شركة تحليل في قطاع التأمين تدرس الآثار الاقتصادية للأزمات الصحية.

وانصرف السادس إلى دراسة سلطة القانون في أوقات الطوارئ.

لم يكن أيّ من هذه الفرق يعمل على جائحة.

على الأقلّ، لم تقل ذلك الوثائق التي أمامه.

كان علماء أمينيا يرون في ما يفعلونه سبيلًا إلى شفاء مريض. ولم يخطر لهم أيّ معنًى آخر قد يُحمَّل عملهم.

وفي المختبر الشمالي انكبّ الباحثون على أسئلتهم، لا يعرفون ماذا تعني الدائرة الذهبية لرجل لم يلتقوا به قطّ.

وفي المدار كان الفريق يعتقد أنه يحمي أهل ثايرون ممّا قد يطرأ عليهم من أمراض مجهولة.

وكان محلّلو التأمين يحسبون كلفة الأزمات على المستشفيات والمصانع والأقاليم وأهلها.

وأعدّ القانونيون دراسة عامّة في صلاحيات الدول إبّان الطوارئ الصحية.

كلّ إنسان يعرف ما بين يديه.

ولم يملك أحد الخريطة.

أريين كان يملكها.

امتلأ سطح عمله طبقة فوق طبقة. ولم يجد أمامه شيئًا مكتملًا؛ بل وجوهًا من الممكن وحدودًا لم يدرِ أيبلغها أم لا.

تعارضت بعض النتائج.

وجاء بعضها غير دقيق.

وأبت مختبرات أن تستمرّ بغير معطيات إضافية. وطلبت أخرى مهلة.

بدأ صبر أرِيين ينفد.

أما كايل فلا.

قال له في أحد لقاءاتهما: «للبحث إيقاعه».

«أحتاج إلى نتائج لا إلى إيقاع».

«وتحتاج إلى أن تطيق سؤال مَن يسألك ماذا ستفعل بها».

فتح كايل خريطة التمويل. وقياسًا إلى لقائهما السابق، صار ما يرى أرِيين أمامه أقرب إلى المتاهة.

قال أرِيين: «هذا أعقد مما تدعو إليه الحاجة».

«وليس النفوذ هيّن الكلفة».

«قد يتكلّم أحد».

«ومَن تراه مستعدًّا للكلام؟»

أشار كايل إلى اسم فيستا. ظلّ أرِيين ينظر إليه، ويحاول أن يتخيّل وجوه أولئك الذين لا تعني لهم الكلمة أكثر من باب مطعم.

سأل أرِيين: «لِمَ فيستا؟»

«لكلّ مال حكاية، وليس على كلّ حكاية اسم يرافقها».

«ومن أين يأتي ذلك المال؟»

نظر إليه كايل.

«أيلزمك أن تعرف؟»

سكت أريين برهة.

«لا».

«فلا تسأل».

ظهر في ناحية أخرى من الخريطة تدفّق قادم من حزام كار.

«وهذا؟»

«ربح».

«من الحرب».

«من التجارة».

«تزوّد شركات التوريد حكومةً تعترف بها المعاهدات الدولية بالتكنولوجيا».

«ثم تداوي المؤسّسة الناس الذين جرحتهم تلك التكنولوجيا».

اتّكأ كايل إلى الخلف.

«العالم يحبّ التوازن».

شعر أريين بالنفور منه.

لم يكن نفورًا أخلاقيًّا، بل كان أقرب إلى النفور الشخصي. كان كايل يتحدّث عن الألم دون أن تخالجه رجفة، كأن الناس مجرّد متغيّر آخر. أما أريين فظلّ يحتاج إلى أن يشرح لنفسه لِمَ يفعل ما يفعل. يحتاج إلى جيساير وماريا والأوريليين، وإلى الظلم القديم وإلى هوانه هو.

أمّا كايل فلم يحتج إلى شيء.

كانت الآلية تكفيه.

سأل كايل: «متى سيُقفل المشروع؟»

«لم نصل بعد إلى النتيجة الأخيرة».

«أسألك متى ينتهي التمويل».

«حين أعرف أيَّ حدّ لما أتمنّاه من أذًى».

تغيّرت نظرة كايل.

«تتكلّم عن حدّ».

«نعم».

«ترى أين يكون؟»

«عند من يعنيني أمرهم».

ظلّ كايل صامتًا.

ومضى أرييين يقول:

«لا أريد خراب الحضارة. أريد أزمة تكفي لأن تكشف أن الأوريليين ليسوا استثناءً. أن إرثهم الحيوي ليس هبة بلا ثمن. وأن جيساير يعجز عن إنقاذ قومه».

«وسائر الفروع؟»

«أريد للمحنة أن تقف حيث أردت لها».

«تريد؟»

عقد أرييين حاجبيه.

«وستقف».

نظر كايل إلى خريطة المختبرات.

«الطبيعة لا تميل إلى مراعاة الأهداف السياسية».

«لهذا نحتكم إلى العلم».

«تستطيع الآلة أن تحسب احتمالًا. ولكنها لا تستطيع أن تُطبق أبواب العالم على نيّتك».

مال أرييين إلى الأمام.

«أنت من أراد إيقاف جيساير».

«أردت إيقاف فكرته».

«من غير جيساير لن يكون لها صوت».

«صوت الشهيد في الغالب أقوى من أصوات الأحياء».

نهض أرييين.

«لن يكون شهيدًا. سيكون الرجل الذي وعد بالنور وعجز حتى عن حماية أبناء فرعه».

تأمّل كايل وجهه.

«ما زلت تفعل هذا من أجله».

«أفعله من أجل توازن إلاريون».

«بطبيعة الحال».

وقعَت الكلمة وقع الإهانة.

وانصرف أرييين من غير وداع.

تلك الليلة نفسها انتهت في أحد المختبرات جولة أخرى من المحاكاة. قرأت رئيسة الفريق النتائج ووصفتها بأنها غير حاسمة، وأوصت باستكمال البحوث وتشديد الرقابة.

تلقّت المؤسّسة تقريرها.

ومضى التقرير في رحلته من يد إلى أخرى.

وكان لكلّ قارئ ما استوقفه فيه.

ووصلت إلى أرييين الجداول.

وبقي التحذير في الملحق.

لم يكذب أحد.

ولم يُغيّر أحد النتائج.

كلّ ما في الأمر أن الحقيقة مرّت بأيدٍ كثيرة حتى لم يبقَ منها إلّا ما احتاج الرجل في آخر الطريق إلى رؤيته.

ومضت المختبرات في عملها.

كلّ تحت نوره الخاصّ.

وكان بين تلك الأنوار ظلام.

وفي ذلك الظلام أمسك بالخريطة رجل واحد.

٢٠. شكوك ماريا

لم يستوقف ماريا ليورن الطلب الأول.

كان يتعلّق ببيانات صحية حُجبت فيها أسماء الأوريليين. وكان للمشروع البحثي اعتماد أصولي ورأي أخلاقي وتمويل من مؤسّسة معروفة.

وعبرت المحفوظات الصحية مئات الطلبات مثله.

كان الطبّ يتغيّر أسرع من القوانين التي تنظّمه. وسعى الباحثون إلى وقف الشيخوخة وتجديد الأعضاء التالفة ومدّ العمر إلى أمدٍ ما استطاعت الأجيال السابقة تصوّره.

وكانت محفوظات الأسر الأوريلية عظيمة القيمة لهذا البحث.

ففي تلك الأسر حكايات تعافٍ أدهشت الأطبّاء، وسير عائلات حُفظت على مدى مئات السنين، بدقّة لا تتوافر في قواعد البيانات الصحّية المعتادة.

وافقت ماريا على الطلب الأول.

وتلقّت الثاني بعد تسعة أيّام.

جاء من دولة أخرى وتعلّق بعلاجات جديدة لإطالة العمر.

وكان هو الآخر مستوفيًا كلّ الوثائق المطلوبة.

وتناول الطلب الثالث حقّ المرضى في الأمان.

والرابع أحوال الناس في الأزمات الصحية.

أما الخامس فدراسة قانونية تتناول مسؤولية الناس بعضهم عن بعض في زمن المحن، ولا تطلب بيانات المرضى.

ولعلّ ماريا ما كانت لتنظر إليها في مجموعها لولا أنها عثرت في الطلب الخامس على صياغة غير مألوفة كتلك التي وردت في الأول.

شواهد تبقى على الزمن، وتحمل أثر الأجيال التي عبرتها.

لم يكن في العبارة خطأ علمي.

ولا كانت صيغة لا مثيل لها.

إنما الغريب أن ترد عند منظّمتين لا جامع بينهما بحسب الوثائق.

فتحت ماريا الطلبات السابقة.

ظهرت الصياغة في ثلاثة منها.

وفي موضع غير الآخر كلّ مرّة.

مرّة في وصف البيانات.

ومرّة في التعليل القانوني.

ومرّة في ملحق فنّي.

كأنّ أحدًا ترك صدى جملة واحدة في وثائق متباعدة.

أمضت الساعات التالية في مقارنة البيانات الوصفية. أما محتوى التحليلات المحميّة فلم تمسّه، إذ لم تكن مخوّلة ذلك. لم ترَ سوى هوية صاحب الطلب، ونوع ما طلبه، ومَن أصدر الرأي، وما الغرض الرسمي.

ردّتها الأوراق مرارًا إلى الأسر الأوريلية وإلى مصير الناس يوم تحلّ بهم محنة صحية.

ورسمت ماريا لنفسها خريطة خاصّة.

لم تكن مالية كخريطة نيراي.

كانت خريطة في علم الأحياء.

في أحد طرفيها محفوظات الأُسر.

وفي الطرف الآخر أزمة صحية افتراضية.

وبينهما أسئلة يدنو بعضها من بعض من غير أن تتلامس في أيّ موضع.

«تعملين إلى وقت متأخّر مرّة أخرى».

جاءها صوت جيساير من ورائها.

انتفضت ماريا. لم تسمعه يدخل.

كان واقفًا عند باب حجرة العمل الصغيرة في دار المحفوظات. يرتدي ثوبًا داكنًا بسيطًا ويحمل في يديه كوبين فيهما شراب ساخن.

«كيف دخلت؟»

«من الباب».

«أقصد إلى القسم المحمي من دار المحفوظات».

«دخلتُ الردهة. أما هنا فأنت من أذنت لي بالدخول».

نظرت إلى الطاولة. أخذها التركيز فلم تنتبه إلى الإشعار.

ناولها جيساير الشراب.

«تقول نيراي إنك متى نسيتِ أن تأكلي وجب أن يأتيك أحد بشيء يتظاهر على الأقل بأنه طعام».

«أتتحدّثان عنّي؟»

«في مسائل أمن الكوكب دون سواها».

ابتسمت ماريا قليلًا، وسرعان ما عادت إلى الجدّ.

نظر جيساير إلى الطبقات فوق الطاولة.

«ماذا يجري؟»

«لا أعرف».

«هذا كلام يشبه كلام نيراي».

«لعلّه طبع في العائلة».

جلس قبالتها.

صار جيساير في الأسابيع الأخيرة ضيفًا مألوفًا على اللقاءات الصحية والمدنية. ومضت كلمته في نيترا تنتشر. دُعي إلى المناظرات والجامعات والتجمّعات العامّة. وبدأ بعضهم يرى فيه زعيم حركة لم تحمل اسمًا بعد.

أما هو فكان يرفض ذلك.

وكلما زاد رفضه ازداد الناس ثقة به.

قال: «أريني».

شرحت له ماريا الطلبات واحدًا بعد آخر. وأصغى جيساير من غير أن يقاطعها.

سأل: «هل يمكن أن تكون بينها صلة؟»

«يمكن أن تبدو كلّ الأشياء مترابطة إذا أمعن المرء النظر فيها طويلًا بما يكفي».

«لم تُجيبيني».

«قد تكون بينها صلة. لكنني أجهل كيف».

«صاحب التكليف واحد؟»

«لا».

«المؤسّسة نفسها؟»

«لا».

«المختبر نفسه؟»

«لا».

«فما الشيء الواحد فيها؟»

أشارت ماريا إلى ميادين البحث.

«الوجهة».

وانتظر جيساير.

وتابعت: «تخيّل أنك تصغي إلى غرفة ملأى بالباحثين. لكلّ منهم همٌّ مشروع، وكلّ منهم يتمنّى أن يجد جوابًا ينفع أحدًا. ثمّ تخرج وفي نفسك إحساس بأن أحدًا كان ينتظر منهم جوابًا عن سؤال آخر لا يجرؤ أن يقوله بصوت مسموع».

«وما الذي يجنيه من هذا؟»

«يتوقّف ذلك على السؤال الذي لا يعرفه أحد سواه».

تأمّل جيساير الخريطة.

«أتظنّين أن أحدهم يبحث عن موطن ضعف لدى الأوريليين؟»

لم تُجب ماريا على الفور.

«أظنّ أن عددًا أكبر مما ينبغي من الناس يتقاضون أجورًا على دراسة أمور قد يُساء استعمالها على هذا النحو».

«ممّن؟»

«هذا ما لا أراه».

أغلقت ماريا بعض البيانات ونظرت إليه.

في ضوء الغرفة الليّن كادت الدائرة الذهبية في عينيه تغيب عن البصر. مجرّد خطّ رفيع يفوت من لا ينتبه إليه.

كان أريين يكرهه.

جاءتها الفكرة بغتة.

وتذكّرت ماريا وجهه في الشقّة، ويده مطبقة على معصمها، والنبرة التي نطق بها اسم جيساير.

ثم تذكّرت الرسالة.

القرارات الشخصية لا تبقى شخصية أبدًا.

«ماريا؟»

«أريين».

لم يتحرّك جيساير.

«ما به؟»

«لا أعرف».

«أتظنّين أنه وراء ذلك؟»

«ليس لديّ ما يحملني على هذا الظنّ».

«لكنّه خطر لك».

«نعم».

صمت جيساير قليلًا.

«لأنه يعمل في الأوساط المالية؟»

«لأنه يرى الناس آليات. ولأنني حين غاب الغضب عن صوته صرت أخافه أكثر».

وضع جيساير كوبه على الطاولة.

«ينبغي أن نخبر نيراي».

«من غير دليل؟»

«دون أن نتّهم أحدًا».

«أعرف أختي. إذا أعطيناها سؤالًا بلا دليل أخذت تبحث عن دليل».

«أحسب أن هذا عملها».

نظرت ماريا إليه.

«وإن كنتُ مخطئة؟»

«فلن تجد شيئًا إذن».

«ما من بحث ينتهي إلى لا شيء تمامًا. لا بدّ أن يجرح ولو قليلًا من الثقة».

أومأ جيساير.

«فلا تكلّميها عن أريين إذن. أَطلعيها على المشروعات».

عادت ماريا تنظر إلى الخريطة.

«وإن كانت كلّها بريئة؟»

«نراجعها ونقفل الملفّ. بلا أسماء مرضى».

قالت ماريا: «لا أريد أن أجعل من البيانات الصحية أدلّة إثبات في متناول كلّ أحد».

«أوافقك. أرسلي إلى نيراي الجزء المتاح للعموم فقط».

«لكنّ عبارتك باتت لها حياة خاصّة. الناس يبرّرون بها أشياء لم تقصدها».

«أعرف».

«بعضهم يريد نشر السجلّات الصحّية للسياسيين أيضًا. وآخرون يقولون إن الخصوصية ليست إلا ملاذ المذنبين».

أطرق جيساير.

«لعلّني لم أرسم الحدّ بالكلمات الدّقيقة التي يستحقّها».

«بل فعلت. إنما يسمع الناس الجزء الذي يحتاجون إليه».

وساد بينهما صمت قصير.

ثم أغلقت ماريا الطبقات كلّها وأبقت قائمة المشروعات.

«سأرسل إليها العناوين وأسماء أصحاب الطلبات ومصادر التمويل المعلنة وحسب».

«وسؤالًا».

«أيّ سؤال؟»

نظر جيساير إلى الخريطة المطفأة.

«مَن يدفع المال كي تلتقي هذه الأشياء المتباعدة ذات يوم؟»

أعدّت ماريا رسالة.

المرسَل إليها: نيراي سايل.

الموضوع: صلة محتملة بين طلبات بحثية.

وكتبت في متنها:

ليس هذا دليلًا على أيّ تجاوز. لكنني أحتاج إلى معرفة ما إذا كان لهذه المشروعات مصدر مالي مشترك، أو أشخاص مشتركون يملكون حقّ القرار. كلٌّ منها معقول في ذاته. وهي مجتمعة تطرح سؤالًا لا أريد أن أنطق به قبل أن أعرف من طرحه.

وأرفقت القائمة.

وتردّدت قبل الإرسال.

لم يلمسها جيساير. ولم يُملِ عليها ماذا تفعل.

بقي هناك وحسب.

أرسلت ماريا الرسالة.

وفي مبنى الطبقة أضاء تنبيه إلى جانب اسم نيراي.

وعلى بُعد بضعة آلاف من الكيلومترات أتمّ نظام مختبري تحليلًا آخر، وغادرت النتيجة المكان الذي وُلدت فيه.

وعلى ثايرون انتهى حساب لم يُكتب قبالته اسم من ينتظره.

وفي ثيرينيث وافق مدير صندوق على دفعة أخرى.

وفي أحد فروع فيستا أُضيف إلى دفاتر اليوم قيد لم يستوقف أحدًا.

وجلس أريين كورفيث وحده في شقّته يشاهد الخطوط تتقارب أمامه. ولم تجتمع في مكان آخر على خريطة واحدة.

لم يكن ثمة مرض بعد.

ولم تبدأ للمرض حمّاه الأولى.

لم تُغلق مدينة بعدُ، ولم تُضطرّ أسرة إلى أن تترك عزيزًا وراء الجدار الشفّاف للعزل في المستشفى.

حتى تلك اللحظة لم يكن ثمة غير المال.

والأسئلة.

والبيانات.

والحسابات.

وأناس أبرياء كثيرون أدّى كلّ منهم قدرًا صغيرًا من العمل، وهو لا يعرف الجملة التي سيُدرج فيها عمله ذات يوم.

لم يكن للكارثة جسد بعد.

لكن كانت لها دفاتر حسابات.

٢١. امتحان العمى

فتحت نيراي رسالة ماريا بعد سبع دقائق من وصولها.

كانت لا تزال في الطبقة. كان معظم الموظفين قد انصرفوا، ولم يبق في الممرات سوى فرق التحليل الليلية، وأنظمة الأمن، وأناس لا يدرون لِمَ يأبى سؤال ما أن يدعهم يعودون إلى بيوتهم.

كانت نيراي من هؤلاء الأخيرين.

قرأت الرسالة مرة.

ثم ثانية.

وفي الثالثة نحّت اسم ماريا، ولم تُبقِ أمام عينيها إلا قائمة المشاريع.

بحوث في العلاج.

أسئلة تهمّ المرضى.

دراسات في حياة الأُسر.

حماية خصوصية المرضى.

استجابة المؤسسات الصحية في أوقات الشدة.

والوجه القانوني للمسألة.

كان لكل بند مسوّغ مفهوم، ولم يكن في أيّ منها ما يبعث على الريبة. بل إن بعض تلك الأسئلة كان من أهم ما يشغل الطب الحديث.

فتحت نيراي السجلات المالية.

ظهرت أمامها أسماء كثيرة. أما السؤال الذي جاءت به إلى تلك السجلات، فمن دون جواب.

لم تكن الفراغات من جنس واحد. كان بوسعها أن تمضي في القراءة إلى حدّ ما، ثم تنقطع بها السبل. وكان لسطح التحليل أن يعرض ما عُرف، من غير أن يتكهن بما غاب.

جمعت نيراي كل ما وقع تحت يدها.

فبسطت على الطاولة خريطة.

لم تشبه خريطة جريمة.

بل شظايا زجاج.

«أما زلت هنا؟»

كان تارين فوس واقفًا بالباب، ومعطفه على كتفه.

قالت نيراي: «كلا. لقد عدت لتوّي إلى البيت».

دخل تارين.

«أهكذا تعودين إلى البيت؟»

«اصمت».

نظر إلى الخريطة.

«عمّ نبحث؟»

«لا أدري».

«رائع. هذا أحبّ أنواع البحث إليّ».

بعثت إليه قائمة ماريا من غير الرسالة المرفقة بها.

جلس تارين واستعرض البنود واحدًا واحدًا على مهل.

«كلها أبحاث صحية».

«ليست كلها».

«حسنًا. أبحاث صحية، ودراسات قانونية، ونماذج للأزمات».

«وما الذي يجمع بينها؟»

«الأوريليون».

«جوابًا أدق».

فكّر تارين.

«شيء يخص الأوريليين أنفسهم».

«أدقّ من ذلك».

ساد الصمت قليلًا.

ثم أشار إلى السجل الزمني.

«المسألة تتجاوز أحوال الناس. فيها أيضًا ما تفعله المؤسسات».

أومأت نيراي.

«ثمة من يعنيه الأوريليون، ويعنيه كذلك ما ستفعله الحضارة إن حلّت بهم محنة».

استند تارين إلى ظهر مقعده.

«لعلها أبحاث لحمايتهم».

«لعلها».

«وقد تكون متصلة بعلاجات إطالة العمر».

«قد تكون».

«وقد تكون تأهبًا لوباء طبيعي».

«قد تكون».

«وقد تكون أيضًا ذلك الشيء الذي لم تريدي قوله».

نظرت إليه نيراي.

أشار تارين إلى جملة ماريا الأخيرة.

«السؤال الذي تأبى أن تنطق به».

أغلقت نيراي الرسالة.

«لا يحق لنا أن نبدأ بأسوأ التفسيرات».

«لكن يحق لنا أن نختبره».

«إذا توافرت لنا المعطيات».

«وهل توافرت؟»

نظرت نيراي إلى البقع المعتمة على الخريطة.

«ما تقوله لنا معطياتنا هو أنّا لا نرى المعطيات».

كان للطبقة أن تنظر في حركة الأموال بين الدول. لكن لحياة الناس الخاصة حرمتها، ولصلاحيات الطبقة حدودها، ولكل دولة قوانينها.

وهكذا قد يصير السؤال الواحد عشرين طلبًا.

وكل طلب يستلزم مسوّغًا خاصًّا.

والمسوّغ بالذات هو ما لم يكن في يد نيراي بعد.

قالت: «لنجرب أن نعرف من اتخذ القرارات».

انصرف تارين إلى فحص الأسماء الواردة في السجلات.

وجد النظام آلاف الصلات.

كان لبعضها دلالة.

أما أكثرها فلم يكن كذلك.

كانت الأسماء نفسها تتكرر في دوائر مهنية واسعة. ذلك مما تقتضيه أعمال أصحابها، ولم يكن في ذاته مدعاة للظن بأحد.

كلما فتحا مزيدًا من السجلات وجدا مزيدًا من الصلات.

وكلما وجدا مزيدًا منها شقّ عليهما تمييز ما قد تكون له دلالة.

قال تارين: «تلك مشكلة الطبقة. حين تنظرين إلى كوكب بأسره، لا يفصل بين أيّ إنسان وآخر سوى بضعة عقود».

«لذلك لا نبحث عن صلة».

«فعمّ إذن؟»

«عن وجهة».

غيّرت نيراي طريقة العرض.

غابت أسماء الشركات.

وغابت أسماء المشاريع.

وغابت الدول.

بقيت أمامهما أعمال بشرية مجرّدة من أسمائها.

قصص عائلات.

أسئلة باحثين.

عمل مختبرات.

قلق على المرضى.

هموم مستشفيات.

وشكوك فيمن تقع على عاتقه المسؤولية.

ومخاوف مما قد تفعله المحنة بالناس.

كفّ تارين عن المزاح.

«تبدو الأمور أسوأ على هذا النحو».

«تبدو مختلفة على هذا النحو».

«لو عرفنا من يقف وراء كل هذا...»

«لا نعرف».

«لو عرفنا إلى أين تنتهي هذه الأعمال...»

«لا نعرف».

«لو عرفنا لِمَ قد تُستخدم...»

«لا نعرف».

أغمضت نيراي عينيها.

وترددت في رأسها كلمات جيساير في المؤتمر.

لا سبيل إلى حساب النصيب مغمضي العيون.

كان يومها يتحدث عن الدخل الأساسي الشامل.

عن القيمة.

عن العدل.

وأمامها الآن شيء آخر يحاول المجتمع أن يحسبه مغمض العينين.

الخطر.

قال تارين: «لنطلب على وجه الاستعجال كشف هوية أصحاب الملكية الفعلية».

«وبأيّ حجة؟»

«تزامن المشاريع».

«التزامن ليس جريمة».

«خشية الإضرار بأناس أبرياء».

«لم نقم الدليل على وقوع أيّ تجاوز».

«فماذا نفعل إذن؟»

لم تجبه نيراي.

على بُعد ثلاث مناطق زمنية من هناك، كان أريين كورفيث جالسًا أمام تقرير من فرط رتابة عنوانه ما كان أكثر الناس ليكلّفوا أنفسهم فتحه.

دراسة في التنسيق بين المؤسسات الصحية في أوقات الأزمات.

أعدّته شركة في زانوس متخصصة في إدارة الأزمات. ولم يعرف محللوها من المسألة غير فرضية طُلب إليهم النظر فيها.

مرض مجهول.

دول عدة.

أناس يشتد عليهم البلاء دون غيرهم.

قوانين مختلفة.

نظم صحية مختلفة.

وثقافات سياسية مختلفة.

وكان المطلوب منهم أن يستبينوا كيف سيفهم إلاريون ما يحلّ بأهله.

كان المحللون يرون في عملهم خدمة عامة.

أرادوا أن يعرفوا مواطن الوهن في النظام قبل أن يكشفها مرض حقيقي.

وجاءت النتيجة مقلقة.

تحدث التقرير عن آلات يقظة.

وعن عاملين في المستشفيات يبذلون أقصى ما يستطيعون.

وعن ذاكرة الأسر، وما ائتُمِن عليه حافظوها.

وعن خلافات بين الدول.

بعضها حرصًا على المرضى.

وبعضها الآخر حرصًا على السمعة.

وتحدث عن سياسيين يخشون أن تنقلب كلمة على من قيلت في شأنهم.

وبعد ما مضى من نزاعات على التمييز، أمكن فهم ذلك الحرص.

إلا أن له في المحنة الماثلة ثمنًا.

قرأ أريين ما خلص إليه التقرير.

أولى بوادر القلق.

وأولى الشهادات.

وأولى الكلمات التي عبرت الحدود.

وأول مرة وُوجه فيها الجمهور بالحقيقة.

وبين البداية والنهاية هوّة.

زمن مضى.

وزمن آخر ربما يمضي.

استند أريين إلى ظهر مقعده.

كل عنصر في النظام كان يؤدي بالضبط ما أُنشئ لأجله.

كان الذكاء الاصطناعي يتبيّن الأنماط، وكان الأطباء يحمون مرضاهم.

وكانت القوانين تصون الخصوصية.

ولم يظهر الخلل إلا حين اجتمعت هذه الأشياء.

فالآلة تتبيّن الأنماط.

والطبيب يحمي المريض.

والأرشيف يصون الأسرة.

والموظف يسهر على حرمة القانون.

والسياسي يقي المجتمع الذعر.

ومع كل هذا الحرص على الحماية، ظلت الحقيقة كاملة كلامًا لا يجرؤ أحد على النطق به.

وفي هامش التقرير تنبيه من المحللين:

لا يكفي تفاوت الضرر الذي يصيب الناس للحكم، من غير تمحيص، بأن مردّه إلى أصولهم. وقد يؤدي التسرع في تسمية فئة بعينها إلى وصم أفرادها أو تعريضهم للعنف أو حرمانهم من العون الطبي.

توقف أريين عند تلك العبارة.

كانت صائبة من الوجهة الأخلاقية.

وما أشدّ العون الذي وجده في صواب الآخرين على تجاهل مسؤوليته هو.

جاء كايل من غير موعد.

ودخل شقة أريين كأنما يملك المكان، ويملك معه زمن من يعيشون فيه.

لم يغلق أريين التقرير.

قرأ كايل عنوانه.

«دراسة للاستجابة؟»

«مراجعة للسلامة».

«بالطبع».

تصفح كايل النتائج.

لم يتغيّر وجهه، لكنه قرأ على مهل، خلافًا لعادته.

قال: «سيعرف العاملون في الصحة أن ثمة ما يجري».

«سيعرفون».

«وسيدركون الخطر».

«سيكون ثمة من يدركه».

«إذن خطتك لا تنجح».

أشار أريين إلى تكملة التقرير.

«أن ترى أمرًا شيء، وأن تفعل شيئًا حياله أمر آخر».

أطال كايل النظر إلى ما أمامه.

«فأنت لا تمتحن المرض».

«لا».

«إنما تمتحن شجاعة المؤسسات، أتسمّي ما تراه؟»

ابتسم أريين ابتسامة خفيفة.

«أمتحن قواعدها».

«تلك القواعد ثمرة إخفاقات مضت».

«وستكون سبب إخفاق يأتي».

استدار كايل نحوه.

«إياك أن تتخذ من وهن النظام عذرًا لنيّتك أنت».

«أنت من علّمني أن النظام لا نيّة له».

«أجل، لا نيّة له. أما أنت فلك نيّة».

أغلق أريين التقرير.

«ما الذي جاء بك؟»

نظر إليه كايل برهة.

«وردت إلى المؤسسات أسئلة من الطبقة».

توقفت أصابع أريين فوق الطاولة.

«أيّ أسئلة؟»

«عامة حتى الآن. أسئلة عمّن يحملون المسؤولية».

«نيراي».

«على الأرجح».

«أتعرف شيئًا؟»

«تعرف أنها لا ترى».

نهض أرييين.

«ذلك لا يكفي».

«أحيانًا تبدأ الرؤية بأن يدرك المرء عماه».

«أتستطيع إيقافها؟»

«لي بعض النفوذ. أما أن أنهى دائرة رسمية عن طرح الأسئلة، ففيه اعتراف مني بأني أخشاها».

مضى أرييين إلى النافذة.

امتدت نيترا تحته. آلاف الأضواء، وملايين البشر، وأنظمة تقيس حركة السير والطاقة والإنتاج والطقس والصحة والأمن.

حضارة تكاد ترى كل شيء.

ولا تدري أن ثمة من يتساءل الآن متى ستدرك أنها تموت.

قال أرييين: «ماريا».

لم يجبه كايل.

«لا بد أنها هي من بدأت الأمر».

«لِمَ؟»

«تعرف أرشيف الأسر».

«وتعرفك أنت أيضًا».

فاستدار أريين إليه بغتة.

وتابع كايل بهدوء:

«من عرَف رجلًا يؤذي الناس، أبصر أحيانًا ما يضمره قبل أن يبصره المحلّل».

«أنا لا أؤذي الناس».

نظر إليه كايل.

لم تكن في نظرته ذرة احتقار.

وذلك كان أشدّ عليه.

كرّر أريين: «أنا لا أؤذيهم».

«إذن لن يضيرك أن ينظر أحد في قراراتك».

«قراراتي تتمتع بالحماية».

«وعلى ذلك بالضبط تعوّل».

خرج كايل.

وبقي أريين أمام النافذة.

وعلى سطح عمله انفتحت الدراسة من جديد.

ذلك الزمن الضائع.

زمن ينقضي بين أن ترى الحضارة ما يجري، وأن تبيح لنفسها أن تُفصح عنه.

وفي هذه الأثناء أرسلت نيراي من الطبقة أولى طلباتها.

إلى ثيرينيث.

وإلى زانوس.

وإلى دولتين من دول أمينيا.

وإلى إدارة مراكز الحوسبة في ثايرون.

وكتبت إلى كل جهة باللغة القانونية التي تفهمها، مع ما بين القوانين من اختلاف.

وصلت الردود الأولى في تلك الليلة نفسها.

المشروع مستوفٍ للقوانين المحلية.

يتعذر إطلاعكم على مزيد من المعلومات.

لأصحاب الشأن حقوق مصونة.

وقد روعيت خصوصية الأفراد.

لم يثبت وجود خطر وشيك.

قرأ تارين الردود واحدًا تلو الآخر.

«كلهم على حق».

قالت نيراي: «أجل».

«ومع ذلك لا تصدقين الأمر».

نظرت نيراي إلى خريطة ماريا البيولوجية وخريطتها المالية.

انبسطتا جنبًا إلى جنب.

وبينهما قوانين تصون الصحة والملكية والبحث والتجارة والخصوصية، وتحول دون أن تنطبقا إحداهما على الأخرى تمام الانطباق.

وكل قانون منها كان يحمي شيئًا جديرًا بالحماية.

وللمرة الأولى سألت نيراي نفسها سؤالًا ستردّده بعد سنوات أمام الكوكب بأسره:

ماذا يحدث حين تجتمع كل أسباب حمايتنا، فتصير مخبأً للرجل الذي كان ينبغي لها أن تحمينا منه؟

لم يكن أوان الجواب قد حان.

غير أن أرييين كان يعرف الجواب.

تمنحه زمنًا.

ليس طويلًا.

وإنما يكفي.

٢٢. الاستثناءات

لكل قانون حدّ.

ولكل حدّ تقريبًا باب.

يسمّونه حينًا مصلحة عامة ملحّة.

وحينًا ضرورة يقتضيها البحث.

وحينًا حماية للحياة.

وحينًا أمن الدولة.

لا تُجعل الأبواب ليمرّ منها المجرمون. بل لأن ما من قانون يستطيع أن يتنبأ بكل ظرف قد يصبح فيه التزام حرفه أشد ضررًا من مخالفته.

إذا شبّ حريق في مستشفى، فلن يستأذن المسعف كل مريض في نقل بياناته الصحية.

وإذا أطلّ شبح وباء استعجل الناس نجدة بعضهم بعضًا.

وإذا تعطّل في ثايرون نظام تتوقف عليه الحياة، اختلفت مسؤولية من يُستدعى لإصلاحه عنها في الأيام العادية.

كان الاستثناء طريقة القانون في الإقرار بأن الحياة أعقد من القاعدة.

وكان كايل ثورن يعرف للأبواب صفة أخرى.

أنها تنفتح من جانبيها.

في مكتب للمحاماة على الطرف الجنوبي من نيترا جلس تسعة خبراء. لم يعرفوا أنهم يعملون لحساب كايل. كانت مؤسسة المناعة الصحية الكوكبية هي التي كلّفتهم في الأوراق بوضع إطار عام لتعاون الهيئات العلمية إبان أيّ أزمة بيولوجية مقبلة.

وتوزعت بينهم المسائل.

فمنهم من انصرف إلى حقوق الأُسر.

ومنهم من عُني بالتعاون بين العوالم.

ومنهم من فحص مسؤولية الباحث.

ومنهم من تمعّن في معنى السرّ المهني.

ومنهم من درس حقوق الناس في زمن الطوارئ.

لم يكن في ذلك شيء منافٍ للقانون.

بل العكس.

فبعد الأوبئة السالفة اشتد الطلب على دراسات كهذه. كان إلاريون غنيًّا بالتقنيات، أما نظمه القانونية فترجع في أصولها إلى زمن كانت الأمراض فيه أبطأ سيرًا من قرارات الحكومات.

ترأست الفريقَ القانوني إيليرا سِن.

كانت من السيلينيين، وقد أفنت حياتها في التشريعات الصحية. فقدت أباها في شبابها إبان وباء محلّي، حين امتنع مستشفيان عن تبادل البيانات إذ لم يتفقا على السند القانوني لذلك.

آمنت بأن القاعدة السيئة قد تقتل كما يقتل المرض.

ولهذا قبلت العمل.

قالت لفريقها في لقائهم الأول: «مهمتنا أن نحول دون أن تنشغل أربعون دولة في زمن الأزمة بتبادل الاستمارات، والناس يموتون».

لم يكن في الغرفة من يعترض على هذا.

وبعد بضعة أسابيع اكتمل إطار الاستثناءات المؤقتة.

ينبغي أن يكون لكل إذن غرض محدد.

وأن يسجَّل كل استعمال له.

وأن تُراعى حدود الصلاحيات الممنوحة.

وأن تُصان هوية الناس عند عرض النتائج.

وأن ينقضي الاستثناء بانقضاء المشروع.

وأضافت إيليرا شرطًا آخر.

لا بدّ من جهة تتحمّل المسؤولية أمام الناس، أيًّا كانت العاقبة.

أدخلت العبارة في المسوّدة وأرسلتها إلى الجهة المكلِّفة.

وبعد يومين عادت إليها الوثيقة.

وقد غيّروا صياغة شرطها.

وتعرّفت في السطر الجديد إلى ألفاظ من سطرها القديم، ولم تجد فيه ما أرادت أن تقوله.

وضعت إيليرا الجملتين جنبًا إلى جنب.

كان الفارق ضئيلًا.

في عبارتها كان ثمة من يلزمه أن يتحمّل المسؤولية.

أما العبارة الجديدة فأدخلت على ذلك الالتزام ما يضعفه.

وفي ذلك الفارق الضئيل خافت أن تضيع الحماية برمّتها.

سألت: «من غيّر هذا الجزء؟»

فتح الموظف سجلّ التعديلات.

«مراجع خارجي تستعين به المؤسسة».

«اسمه؟»

«محميّ بموجب العقد».

«محامٍ؟»

«مستشار في الاستثمارات الدولية».

استندت إيليرا إلى ظهر مقعدها.

«وما شأن أهل الاستثمار بالاستثناءات الصحية حتى يعلّقوا عليها؟»

«يقول إن في عبارتك إجحافًا بحقّ الذين انصرفوا إلى العلم بحسن نيّة».

كانت حجّة معقولة.

فلم تكن إيليرا تريد أن يجازي الناسُ باحثًا على أمله في شفاء مريض بأن يضعوه موضع الشبهة.

رفضت إيليرا التعديل.

فأعادته المؤسسة مشفوعًا بتعليل جديد.

ورفضته إيليرا مرة أخرى.

وفي الثالثة أبلغوها أن البند المختلف عليه سيرحَّل إلى مرحلة لاحقة.

وأُقرّ سائر الإطار.

لم تُلغَ الحماية.

أُرجئت فحسب.

وفي مبنى الطبقة تلقّت نيراي جواب الصندوق الأول.

لم يستطع القائمون عليه إطلاعها على المعلومة التي طلبتها، فالحجة في نظرهم غير كافية.

ومن دولة ثانية جاء جواب رأى أن ما أوردته من صلات بين المشاريع لا يزال عامًا.

وأفاد مركز الحوسبة في ثايرون أنه لا يملك الإجابة التي تطلبها.

سألت ماريا: «كيف يعقل ألّا يعرف المركز من المستفيد من عمله؟»

كانت صورتها تطفو فوق مكتب نيراي. وكانت في بيتها، وخلفها ما يزال أرشيف الأُسر مفتوحًا على طبقات عدة. وها هي الأخرى تسهر مجددًا على عملها.

أجابت نيراي: «يعرف مَن خاطبه».

«وذاك؟»

«له جواب هو الآخر».

«وماذا بعد؟»

«يقول إن المسؤولية تعود إلى المؤسسة».

«والمؤسسة؟»

«لها مجلس إدارة».

«نيراي».

«لا أدري».

أطرقت ماريا.

«معنى ذلك أننا لم نصل إلى شيء».

«بل وصلنا. عثرنا على تشابه في أوراق أربعة مشاريع على الأقل. وعادت إلى الظهور أسماء رأيناها في قضية فيستا. وعرفنا أن لثايرون موضعًا في هذه القصة».

«ونعرف أن ذلك كله قد يكون بريئًا».

«أجل».

«واسم أرييين؟»

سكتت نيراي.

«لم يرد في أيّ مكان».

أومأت ماريا، ولم يظهر على وجهها أثر للارتياح.

قالت نيراي: «قولي لي بالضبط ما الذي يجعلك تفكرين فيه».

«سبق أن كتبت لك».

«كتبتِ أنه يعرف الناس كما يعرف المرء عمل الآلات».

«وهو يعرفهم كذلك».

«لا يكفي».

«أعرف».

«أحتاج إلى وقائع بعينها».

نهضت ماريا وأقبلت على النافذة. كانت نيترا تبدو من ورائها ليلًا، وأضواء الجسور تقطّع النهر.

«حين كنا معًا أراد أن يعرف كل شيء. أين أنا. ومع من. ولِمَ قلت كلمة. ولِمَ سكتّ. لم تكن المعلومات ما يبتغي. كان يريد ألّا يبقى في الوجود شيء يعجز عن إدخاله في الصورة التي رسمها».

وظلّت نيراي صامتة.

وتابعت ماريا: «لما تركته أخذ يتوسل أولًا. ثم غضب. ثم راح يتهمني. وفي النهاية كفّ».

«كفّ عن الاتصال بك؟»

«كلا. كفّ عن الكلام بنبرة مَن يريد استرداد ما فقد».

«وأيّ نبرة صارت له؟»

استدارت ماريا.

«نبرة رجل حسم أمره على أنّ يومًا سيأتي وأفهم».

دوّنت نيراي عبارتها.

«هل تكلّم عن جيسايرا؟»

«نعم».

«هل توعّده؟»

«لم يفعل صراحة».

«ماريا».

«قال إن أناسًا مثل جيساير يتظاهرون بأن قراراتهم ملك للجميع، ثم يَدَعون غيرهم يحمل تبعاتها. وقال إن الأوريليين سيعرفون يومًا ثمن تفرّدهم».

رفع تارين، الجالس خارج مجال الصورة، رأسه.

وأشارت إليه نيراي بعينيها أن يلزم الصمت.

وسألت: «لِمَ لم تخبريني قبل الآن؟»

«لأني لم أشأ أن يتحول كل شكّ يساور امرأة في شريكها السابق إلى تحقيق. ولأني خشيت أن أكون قد أسقطت خوفي على مشاريع لا شأن لها بي».

قالت نيراي: «الخوف ليس دليلًا».

أومأت ماريا.

«لكنه قد يدلّ على وجهة».

«أجل».

قالت نيراي كلمتها بحذر.

كان للخطأ في عملها وجهان.

أحدهما أن تتهم إنسانًا لم يفعل شيئًا.

والآخر أن تطرح الشبهة جانبًا لمجرد أنها وليدة تجربة شخصية لا سبيل إلى إيداعها في جدول.

كان على التحليل أن يقي من الأحكام المسبقة.

ولم يكن له أن يدّعي أن معرفة البشر بالعنف لا وزن لها ما لم يظهر العنف في دفاتر الحساب.

قالت نيراي: «لن أفتح تحقيقًا في أمر أريين. ليس بعد».

أطبقت ماريا شفتيها.

«لكنّي سأطلب تقييمًا لما قد تنطوي عليه تلك المشاريع معًا من أخطار. من دون ذكر اسمه».

«وإن لم يدلّ النظام عليه؟»

«فلن أعرف عندها أكثر مما أعرفه الآن».

«أنك لا ترين».

«أجل».

ولما انتهى الاتصال، اقترب تارين منها.

«أنت تظنينه الفاعل».

«أظن أن لماريا أسبابًا بعينها تحملها على الخوف منه».

«لم يكن هذا جوابًا».

«لأنني لا أملك جوابًا».

صاغت نيراي طلبًا بإجراء تقييم مؤقت للصلات التي قد تنذر بخطر.

وطلبت فيه الإذن بالنظر في القرائن التي عرضتها هي وماريا.

لا يمسّ الطلب البيانات الصحية نفسها.

وتظل نتائج البحوث البيولوجية مصونة.

وكل ما أرادته نيراي أن تعرف من المسؤول عمّا يُسأل، ومَن تُوضع الإجابات بين يديه.

أرسلت الطلب إلى المجلس المشرف.

وجاء الجواب صباحًا.

لا سند قانونيًّا كافيًا.

تتباين جهات الاختصاص، ولم يثبت وجود غاية مشتركة للمشاريع محلّ النظر.

قرأت نيراي الجملة مرارًا.

لم يثبت وجود غاية مشتركة.

فكيف يتسنّى لها إثباتها وقد رُفض طلبها التحقق من وجودها؟

قال تارين: «دائرة».

«لا».

نهضت نيراي.

«للدائرة مركز واحد على الأقل. أما هذا فنظام يتصرف كأن لا مركز له».

وفي تلك الأثناء، وقّعت إيليرا سِن في مكتب المحاماة الصيغة النهائية للإطار.

ولم تكن راضية عنها.

فكتبت في رأيها المرفق:

إن أعظم الأخطار قد يفوت من يكتفي بالنظر في كل حالة على حدة. ومن حق الناس أن تكون ثمة جهة ترى الأمر كله وتتحمّل تبعته.

حُفظ رأيها في السجلات.

وتسلّمته المؤسسة.

وأُقرّ الإطار القانوني.

وانفتحت أبواب الاستثناء.

ولكل منها سبب وجيه.

في أحدها أمل علّقه باحث على عمله.

وفي آخر وعد بالتعاون بين ثايرون وإلاريون.

وفي ثالث عهد بصون ما اؤتُمن عليه أصحابه.

وفي رابع رجاء يحدو أناسًا يعملون في مختبر.

وفي خامس استعداد ليوم قد يحتاج فيه المرضى إلى النجدة.

لم يكن في أيّ استثناء منفردًا ما يفتح طريق الكارثة.

ولم ينفتح ذلك الطريق إلا يوم اجتمعت الاستثناءات.

باب.

وخلف الباب باب.

وخلفه باب آخر.

وعند المنتهى إنسان لم يُكتب اسمه على مفتاح واحد.

٢٣. الدفعة الأخيرة

كانت الدفعة الأخيرة أصغر الدفعات.

وكان الغرض منها أبعد ما يكون عن إثارة الخيال.

لم يكن من قبضها عالمًا يثير اسمه الفضول.

ولا دلّ وصفها على مغامرة علمية.

كانت في الظاهر رسمًا إداريًّا من تلك الرسوم التي قلّما تستوقف أحدًا.

وكانت قيمتها دون مبيعات يوم واحد في فرع كبير من فروع فيستا.

وحملت أوراقها اسم شركة من سارانستان.

ووصل إشعارها إلى موظف في الحلقة المدارية.

كان غرضها مشروعًا.

ومن جنس الأعمال اليومية التي تخدم مرفقًا صحيًّا.

أعمال تألفها المستشفيات وشركات التأمين والدول والمؤسسات، ويعتمد عليها الناس يوم يشتد بهم البلاء ويحتاجون إلى الدواء والأجهزة ومن يسهر على المرضى.

لم يكن فيها شيء عجيب.

سوى أن خريطة أريين كانت ستظل ناقصة لولاها.

بعث إليه المنسّق المالي لبيت ثورن تأكيدًا.

اكتمل الأمر.

قرأ أريين الرسالة وأغلقها.

كان جالسًا في الشقة التي عاش فيها يومًا مع ماريا.

بعد رحيلها أمر بإزالة معظم ما اختارته هي للبيت. ولم يفعل ذلك دفعة واحدة. بدأ بالنباتات. ثم باللوحة قرب النافذة. ثم بالطاولة المنخفضة التي ما فتئ يرتطم بها، وإن تكن ماريا تقول إن العلّة ليست في الطاولة، وإنما في عجزه عن النظر أمامه.

بقي إناء واحد.

إناء عادي، أزرق داكن، غير مستوي الحافة. اشترته ماريا من سوق في حيّ نيترا القديم. وقالت إنما أحبّته لأن فيه عيبًا لا يحاول إخفاءه.

لم يستعمله أرييين قط.

تركه هناك شاهدًا على قدرته على العيش إلى جوار شيء يذكّره بها.

ولم يكن في الحقيقة إلا شاهدًا على نقيض ذلك.

أضاء إشعار على الجدار.

ماريا ليورن تطلب لقاءً شخصيًّا.

أطال أرييين النظر إليه.

ثم ابتسم.

وفتح الرسالة.

أحتاج إلى أن أتحدث معك في مشاريع علمية تتصل بالأوريليين. أقترح الحديقة العامة عند الضفة الشمالية. غدًا بعد مغيب الشمس.

لم يكن فيها تضرّع.

ولا خوف.

قرأ أرييين الرسالة مرة أخرى.

طالما أعجبه ما تكتبه من جمل لا ثغرة فيها. كأنها تضع كل كلمة أمامها أولًا، وتقلّبها على وجوهها، ثم تأذن لغيرها أن يراها.

وافق.

وفي الغد كانت حديقة الضفة الشمالية تكاد تخلو من الناس.

نمت فيها أشجار جُلبت من جميع أقاليم إلاريون. احتاج بعضها إلى تربة معدَّلة اصطناعيًا، وبعضها إلى قدر محسوب من الرطوبة أو إلى ما يقيه شتاء المكان. وكانت الحديقة شاهدًا على قدرة الحضارة على إيجاد متّسع مشترك حتى لما لا يجتمع بعضه إلى بعض في الطبيعة.

كانت ماريا تنتظر عند صفحة الماء.

وراقبت يدي أريين وهو يقترب.

لم تكونا منقبضتين.

ولم يكن على عجلة.

وعلى وجهه ذلك التعبير الذي كانت تخشاه أكثر من أيّ تعبير آخر. سكينة رجل لم يعد محتاجًا إلى انتزاع شيء بالقوة في اللحظة الراهنة، لإيمانه بأن الزمن يعمل لمصلحته.

«ماريا».

«أريين».

وقف على بُعد خطوات منها.

«ما توقعت أن تطلبي لقائي يومًا».

«ولا أنا».

«أيعلم جيساير أنك هنا؟»

أحسّت ماريا بجسدها يتوتر.

لا بغتة.

بل على طريقته القديمة.

بذاكرة الجلد.

«لم آت لأتكلم في أمر جيساير».

«بالطبع».

«ظهرت في السجلات الصحية مشاريع تتناول الأوريليين، وقد أقلقني ما قرأته».

قطّب أريين جبينه قليلًا.

«ثم؟»

«لبعض القائمين عليها صلة بجهات مالية عملتَ فيها».

«عملت في مئات الجهات».

«بالضبط».

«أهذا اتهام؟»

«سؤال».

«فاطرحيه».

نظرت ماريا في عينيه.

«هل تموّل أبحاثًا في أنساب الأوريليين؟»

«لا».

كان أسرع مما ينبغي في الجواب.

لا كرجل بُوغت.

بل كرجل سبق أن ألقى على نفسه هذا السؤال.

«ألك يد أخرى في تمويلها؟»

«لا علم لي بكل ما تفعله الصناديق التي عملت لها يومًا».

«ألك أن تتخذ قرارات باسم إحدى مؤسسات الحماية؟»

«لا».

وكان ذلك حقًّا.

وأدركت ماريا أنه حق.

ولهذا بالضبط أصرّت.

«وهل لك تأثير فيمن يتخذونها؟»

ابتسم أريين.

«يا لها من صفة قانونية غريبة».

«لا أسألك بلسان القانون».

«ففيمَ تسألين إذن؟»

«فيك أنت».

غابت الابتسامة عن وجهه.

«أخيرًا».

«لم آت لأنكأ ما مضى».

«كلا. جئت لتري إن كنت قد صرت شريرًا بما يكفي ليبدو لك اليوم أن رحيلك آنذاك لم يكن منه بدّ».

«لم يكن منه بدّ يوم ضربتني».

أشاح أريين بنظره.

«دائمًا تختزلين الأمر في لحظة واحدة».

«كلا. أنت الذي تحاول دائمًا أن تذيب تلك اللحظة في كل ما سبقها وما تلاها».

«لأن الإنسان ليس لحظة واحدة».

«ولكن من اللحظات ما يكشف مَن يكون».

مرّت ريح في الحديقة. تحركت دفعة واحدة أوراق أشجار أتت من قارات شتى، ولكل منها صوت.

اقترب أرييين.

لم تتراجع ماريا، غير أن يدها دنت من جهاز اتصالها من غير أن تشعر.

فلاحظ ذلك.

«ما زلت تخافينني».

«نعم».

أصابه الجواب في مقتل.

توقّع مقاومة.

توقّع اتهامًا.

بل لعلّه توقّع احتقارًا.

وما توقّع هذه الحقيقة البسيطة.

«ومع ذلك جئت وحدك».

«لست وحدي».

تلفّت أرييين.

«جيسايرز؟»

«لا».

وأشارت ماريا إلى الحديقة وأنظمة الأمن العامة والناس من بعيد.

«العالم».

ضحك أرييين ضحكة قصيرة.

«هذا بالضبط ما أمقت فيكما».

«ماذا؟»

«ذلك اليقين بأن العالم يقف في صفكما».

«العالم لا يقف في صف أحد».

«ولكنكما تتصرفان كأن مجرد أن تكونا على مرأى من الناس يحميكما».

«كذلك ينبغي أن يكون».

«ليس كل ما يراه الناس يفهمونه».

«ولهذا أسأل».

قسا صوت أرِيين.

«تسألين متأخرة».

لم تتحرك ماريا.

«عَمَّ؟»

«عمّا إذا كانت القرارات الشخصية تظل شخصية».

«سبق أن كتبت لي هذه العبارة».

«وما زلت لا تفهمينها».

«فاشرحها لي».

ظلّ أرِيين يحدّق فيها.

لم يكن في عينيه ندم.

كان فيهما توق إلى أن ترى العالم أخيرًا كما يراه.

قال: «رحلتِ. واخترتِ جيساير. ثم رحتما تقولان إنه لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ، وإن كل ما عظم شأنه ينبغي أن يظهر للعيان، وإن على أمثالي أن يكشفوا عن أيديهم».

«لم يكن جيساير يتكلم عنك».

«لم يكن بحاجة إلى ذلك».

«وما صلة هذا بالأبحاث التي تخصّ الأوريليين؟»

لزم أريين الصمت.

سألت ماريا: «ماذا تفعل؟»

«لا شيء لم تجزه أنظمتكم».

«ما أجبتني».

«هو الجواب الوحيد الذي تحتاجين إليه».

«أريين».

«طوال أعماركم كنتم تنظرون إلى دائرتكم الذهبية فترون فيها برهانًا على تفرّدكم».

«ما رأيت فيها شيئًا كهذا قط».

«ولم تكوني بحاجة إلى ذلك. فقد رأى آخرون بالنيابة عنك».

«مَن؟»

«أولئك الذين يترقّبون جيساير كأن في مجيئه عودة حقيقة قديمة. أولئك الذين يحسبون أن من حق سلالتكم أن تملي على كوكب كامل كيف يحيا».

«يرفض جيساير كل من يصنع منه أسطورة».

«ولذلك بالضبط يزدادون له حبًّا».

أحسّت ماريا ببرودة تسري فيها.

لم يكن في كلامه شيء محدّد.

وإنما فيه كل هذا الاستعداد.

كل هذه الجمل التي تبدو ختامًا لحديث لم تكن تعلم بعد أنه بدأ.

سألت: «ما الذي سيحدث؟»

وفقد أرييين، للحظة، زمام نفسه.

«يوم تبدأ بيوتكم بإغلاق أبوابها واحدًا إثر آخر، لعلّك تدركين أخيرًا أن ما من قرار شخصي».

كان الصمت الذي أعقب العبارة مطبقًا.

سمعت ماريا صوت الماء.

والريح.

وأنفاسها هي.

وسمعت زلّة أرييين.

سألت: «ولِمَ تغلق أبوابها؟»

تغيّر وجه أرييين.

تغيّرًا لا يكاد يُلحظ.

لكنها كانت تعرفه.

«أتكلم بوجه عام».

«لا».

«عن التبعات الاجتماعية».

«قلتَ بيوتكم».

«بيوت الأوريليين السياسية. مؤسسات العائلات».

«واحدًا إثر آخر».

«تعبير وحسب».

«ليس من تعابيرك».

تقدم أرييين خطوة أخرى.

«حذارِ يا ماريا».

تراجعت هذه المرة.

لا عن ضعف.

بل لتردّ بينهما شيئًا من المسافة.

«أهذا تهديد؟»

«تحذير».

«مِن ماذا؟»

فتح أريين فمه.

ثم أطبقه.

وللحظة عاد إلى وجهه الرجل الذي عرفته قديمًا. رجل يعجز عن احتمال ألا تكون له السيطرة التامة على الصورة التي تراه بها. رجل يتمنى لو يعيد جملة إلى جوفه بعدما أدرك أنها باتت على مرأى منها.

قال أخيرًا: «من عواقب العالم الذي تبنونه».

وواصلت ماريا النظر إليه قليلًا.

وقالت: «لا أدري ما الذي تفعله. لكني أعرف أنك لم تعد تخشى المستقبل. تتكلم عنه كأنك تعرفه».

واستدارت.

«ماريا».

وقفت ولم تلتفت.

«لن يحميك جيساير من كل شيء».

«لم يدّعِ ذلك يومًا».

«يوم تأتي الساعة التي يعجز فيها عن حماية أهله أنفسهم، تذكّري أنني قلت لك ذلك».

ومضت ماريا.

لم تركض.

ولم تبدأ يداها ترتجفان إلا بعد أن جاوزت المجموعة الأولى من الأشجار وغابت عن عيني أريين.

فتحت قناة اتصال بنيراي.

لم تنتظر أن يأتيها صوتها.

قالت نيراي عوضًا عن التحية: «كنتِ على حق. ما كان ينبغي لك أن تذهبي وحدك».

«قال إن بيوت الأوريليين ستبدأ بإغلاق أبوابها».

وساد الطرف الآخر صمت.

«بالضبط».

«ماذا قال بالضبط؟»

أعادت ماريا عبارته.

ثم الثانية.

لن يحميك جيساير من كل شيء.

يوم يعجز عن حماية أهله أنفسهم.

دوّنتهما نيراي.

«هل لدينا تسجيل؟»

«لا. يتابع نظام الأمن العام السلوك المنذر بالخطر، أما حديث الناس الخاص فلا يسجّله ما لم يقع عنف».

«هل مسّك؟»

«لا».

«هل هدّدك؟»

«قال إنه يحذّرني».

«هذا لا يكفي للقبض عليه».

«لا أريد منك أن تقبضي عليه».

«فماذا تريدين؟»

وقفت ماريا تحت شجرة من الأرخبيل الجنوبي. كانت أوراقها العريضة تحجب النور، حتى ليكاد ما تحتها يظلم.

«أن تجدي المال».

أنهت نيراي الاتصال وفتحت في الحال كل الردود التي تلقتها الطبقة.

أقبل تارين على مكتبها.

«ماذا جرى؟»

«نحتاج إلى تدبير عاجل».

«لأيّ غرض؟»

«وقف المشاريع مؤقتًا ريثما تتبيّن غايتها المشتركة».

«بناء على كلام إنسان واحد؟»

«بناء على كلام إنسان ربما كان وراء تمويلها من غير أن نعلم».

«ربما».

«أجل».

قرأ تارين إفادة ماريا.

«لن يوافق المجلس المشرف».

«نذهب إذن إلى هيئة الرقابة الصحية».

«ستقول إننا لم نثبت خطرًا بيولوجيًّا».

«لجنة الأخلاقيات».

«ستقول إن المشاريع حصلت على الموافقة».

«النيابة المشتركة بين الدول».

«ستقول إننا لا نعرف ما الجريمة».

نظرت إليه نيراي.

«فإلى أين يذهب المرء بخبر كارثة قبل أن تصبح جريمة؟»

لم يجب تارين.

أعدّت نيراي بلاغًا استثنائيًّا.

وأرفقت به خريطة المشاريع.

والصلات المالية.

وشهادة ماريا.

وتقديرًا لما قد تفضي إليه الأمور مجتمعة.

أرسلته إلى المجلس المشرف وهيئة الرقابة الصحية ومكتب حماية الحقوق الوراثية.

وطلبت وقف منح الأذون الجديدة للاطلاع على بيانات الأوريليين مؤقتًا، وتجميد الأموال التي لم تُصرف بعد.

تسلّم النظام البلاغ.

وأدرجه في باب العاجل.

على أن يُبتّ فيه مبدئيًّا خلال اثنتين وسبعين ساعة.

وفي الأثناء، على الحلقة المدارية، وصل خبر الدفعة الأخيرة.

فتح النظام السجل.

ومضى في عمله المعتاد.

وتوالت القيود على الشاشة.

إلى أن اكتمل القيد.

لم يجد ما يستدعي الرفض.

ومضت الدفعة في إحدى عشرة ثانية.

اكتمل الأمر.

وصل التأكيد إلى أرييين بُعيد عودته من الحديقة.

كان واقفًا أمام الإناء الأزرق الداكن الذي حملته ماريا يومًا إلى شقته.

وبحركة واحدة أطاح به عن الطاولة.

وقع على الأرض.

ولم ينكسر.

ارتدّ، وانقلب، ثم استقر على جانبه.

وراح أرييين ينظر إليه وحنقه يتصاعد.

حتى عيبه نجا من ضربته.

فتح قناة الاتصال بكايل من غير دعوة.

وظهر كايل فوق سطح العمل.

«ماريا تعرف».

«وماذا تعرف؟»

«تعرف أن شيئًا يُدبَّر».

«ثمة فرق».

«كانت في الطبقة».

«ذلك نعرفه».

«لقد التقيتها».

وظلّ وجه كايل هادئًا.

«ولِمَ؟»

«أرادت أجوبة».

«وهل أجبتها؟»

«لا».

«ماذا قلت لها؟»

صمت أريين.

فأعاد كايل السؤال.

على مهل هذه المرة.

قصّ عليه أريين عبارته عن البيوت التي ستغلق أبوابها.

لم يتحرك كايل قيد أنملة.

«أنت أحمق».

«لن تستطيع أن تثبت شيئًا».

«الدليل ليس السبيل الوحيد إلى أن يعرف الإنسان شيئًا».

«المشروع جاهز».

«لم أسألك عن ذلك».

«والدفعة الأخيرة قد مضت».

ظلّ كايل ينظر إليه.

«أوقف الأمر».

تصلّب أرييين.

«ماذا؟»

«أوقف ما تبقّى. ودع الأمور تهدأ».

«لا نستطيع».

«غاية ما نخسره مال».

«بعض ما فعلناه تجاوز الحدّ الذي يسهل بعده الرجوع».

أغمض كايل عينيه.

وللمرة الأولى منذ عرفه أرييين بدا عليه الإعياء.

«إلى أيّ مدى رضيت أن يبلغ الأمر؟»

«لم أحدّد له مدى».

«لا تعبث معي».

«للنماذج حدود».

«أيّ حدود؟»

«الغاية إحداث أزمة».

«وكم إنسانًا؟»

«يتعذر تحديد ذلك بدقة».

انحنى كايل نحو الصورة.

«كم؟»

لم يجبه أرييين.

وفي ذلك الصمت فهم كايل أكثر مما كان يريد أن يفهم.

هو الذي أتاح المال.

وهو الذي وضع ثقله في الأمر.

وهو الذي علّم أريين أن يمضي في نيّته من غير أن يسأل نفسه عمّن سيحمل تبعتها.

كان يُقنع نفسه بأنهم لا يُعدّون إلا لأزمة تكسر قوة جيساير السياسية، وتضع حدًّا للشفافية قبل أن تصير قانونًا.

وكان عن علم منه يعين رجلًا يضمر الكراهية.

كل ما فعله أنه أبى أن يعترف إلى أيّ مدى تستطيع الكراهية أن تمضي، متى مُنحت المال والقدرة والوقت.

كرّر: «أوقف الأمر».

«لا».

«لم يكن طلبًا».

«لم تعد الخريطة في يدك وحدك».

قست ملامح كايل.

«لولا رجالي لما كان في يدك شيء».

«وقد فرغ رجالك من عملهم».

وفهم كايل أمرًا أخيرًا.

لم يعد أريين بحاجة إليه.

وانقطع الاتصال.

في مبنى الطبقة ظلّ بلاغ نيراي الاستثنائي مضيئًا.

ينتظر الرأي القانوني.

وبجانبه على المكتب انبسطت خريطة المال، حافلة بقيود يبدو لكل منها تفسير.

عرفت نيراي أنها إذا كانت مخطئة فقد تلحق الضرر بالبحث وبالمؤسسات وبأناس أبرياء.

وإذا لم تكن مخطئة فقد تكون اثنتان وسبعون ساعة أطول مما يحتمل الأمر.

لم تعرف ما الذي سيحدث.

ولا أين.

ولا كيف.

عرفت شيئًا واحدًا. أن الرجل الذي أطبق أصابعه يومًا على معصم ماريا تكلم عن بيوت أوريليّة مغلقة، قبل أن يكون لدى أحد أيّ سبب لإغلاق بيت واحد منها.

وفي موضع ما من دفاتر الكوكب، كانت الدفعة الأخيرة قد مضت لتوّها.

٢٤. الحمّى الأولى

كان اسم الصبي إيلان.

وكان في السادسة، ولا تبدو دائرته الذهبية إلا إذا بكى أو اشتدّ تركيزه.

كانت أمّه تقول إنها رأتها للمرة الأولى بعد مولده بقليل. وقال لها الأطباء إن ذلك غير ممكن، فعلامة الأوريليين لا تظهر في الأطفال عادة إلا بعد حين.

لكنها كانت على يقين.

وللأمهات يقين حتى في أمور يتعذّر إثباتها.

كانوا يعيشون في بلدة صغيرة عند طرف أوريولا. لم يكن بيتهم دارًا عريقة ذائعة الصيت، ولا موضعًا يقصده المتتبّعون لآثار أساطير الأوريليين القديمة. كان بيتًا عاديًّا، له مطبخ يملؤه الضوء، وحديقة صغيرة، وجدار يرسم عليه إيلان سفن النقل على كثرة ما نهاه والداه عن ذلك.

في ذلك الصباح لم يُرد النهوض.

وجدته أمّه مكوّرًا تحت الغطاء.

«إيلان».

فتح الصبي عينيه.

كانت الدائرة الذهبية ساطعة.

لا خيطًا رقيقًا رفيعًا كعادتها.

كانت تحيط ببؤبؤ عينه خطًّا مضيئًا متصلًا.

قال: «أشعر بالبرد».

وكان جلده ملتهبًا.

أجرى نظام الرعاية المنزلي قياساته الأولية. حرارة مرتفعة. نبض متسارع. وتغيّرات طفيفة في مؤشرات الالتهاب.

وخلت التوصية من أيّ قلق.

سوائل.

راحة.

إعادة الفحص بعد ساعتين.

كانت في الإقليم بضعة أمراض موسمية مألوفة، ولم تظهر على إيلان أعراض توحي من الوهلة الأولى بشيء خطير.

ومع ذلك اتصلت أمّه بطبيبة البلدة.

قالت: «دائرته ساطعة جدًّا».

ابتسمت الطبيبة.

«يحدث ذلك مع الحمّى».

«ليس هكذا».

«لكل حمّى ما تظهر عليه».

«إنه أوريلي».

«أعرف».

«ألا يمكن أن يكون ثمة علاقة؟»

سكتت الطبيبة لحظة.

«بماذا؟»

لم تدرِ الأمّ ما تجيب.

لم يكن عندها اسم مرض.

ولم تكن عندها حالات أخرى.

لم يكن لديها سوى طفل تعرفه خيرًا مما تعرف نفسها.

طلبت الطبيبة إجراء فحص أشمل.

وبعد ساعتين كان الوهن قد ازداد على إيلان.

ورفع النظام الصحي درجة المراقبة.

وبعد أربع ساعات أوصى بنقله.

جاءت مركبة الإسعاف في صمت. وارتدى المسعفان لباس الوقاية، لا خشية عدوى مجهولة. فتلك عدّتهما لكل مريض بحمّى غير مفسّرة.

ذهبت أمّ إيلان معه.

وبقي أبوه عند الباب يتبع المركبة بعينيه وهي تبتعد.

وعلى حائط غرفة الصبي بقيت السفن المرسومة بالأزرق.

مُنح إيلان في المستشفى رمزًا لحالته.

AUR-N-77104

لم تكن الحروف الأولى تعني «أوريلي».

بل كانت رمز الإقليم والمستشفى.

وستكون تلك من المفارقات الصغيرة التي لم يتنبّه لها الناس إلا بعد وقوع كل شيء.

قارن الذكاء الاصطناعي الطبي حالته بملايين الحالات السابقة.

ولم يعثر على حالة تطابقها تمامًا.

ولم يكن ذلك غريبًا.

فإن للجسد البشري تنويعات تكاد لا تنتهي، ومعظم ما يختلف فيه عن غيره لا يدل على مرض جديد.

وأدرج النظام حالته تحت تسمية أولية:

استجابة التهابية حادّة غير محدّدة.

وأحال الحالة إلى هيئة الرصد الإقليمية.

لا بوصفها إنذارًا.

بل معلومة.

على مسافة مئة وثمانين كيلومترًا، استيقظت امرأة مسنّة في اليوم نفسه تُعاني الحمّى.

كانت أوريليّة.

وتعيش وحدها.

عدّ نظامها المنزلي ما بها عدوى مألوفة، وأوصاها بالراحة.

وفي نيترا جاء شاب إلى المستشفى يشكو وهنًا شديدًا. كانت أمّه مختلطة النسب وأبوه أوريليًّا. وقلّما كانت الدائرة الذهبية تظهر في عينيه.

لم يلحظها العاملون في المستشفى.

وفي سارور مرضت شقيقتان.

وفي دولة أخرى رجل عائد من رحلة عمل.

لم يجمع الحالات مكان واحد.

ولا مستشفى واحد.

ولا طبيب واحد.

كانت، في كل سجل، حالات مفردة.

تعرف الأنظمة الطبية ما يشكوه المرضى.

وتعرف العائلات تاريخها.

وتعرف الدروب ما اجتازه الناس من مسافات.

وللمال أيضًا ذاكرة.

غير أن أحدًا لم يكن يرى الحكاية برمّتها.

ليس بعد.

في الطبقة جلست نيراي أمام بلاغها الاستثنائي.

مضت عشر ساعات على إرساله.

طلبت إحدى الهيئات الثلاث معلومات إضافية.

وأكّدت الثانية تسلّمه.

وأفادت الثالثة بأنها ستدعو اللجنة إلى الاجتماع.

وضع تارين على المكتب كأسين فيهما شراب.

«اذهبي ونامي».

«لا».

«إنهم ينظرون في بلاغك».

«النظر فيه ليس قرارًا».

«وجلوسك هنا لن يعجّل في انقضاء المهل القانونية».

«ولهذا أراها سيئة».

«لعلّ ما ترينه سيئًا فيها هو أنها تحمي الناس منك».

نظرت إليه نيراي.

جلس تارين.

«من موظف يستشعر أمرًا بقوّة ويريد من أجل ذلك أن تُفتح له الحسابات كلها».

«لا أريد أن تُفتح لي الحسابات كلها».

«أعرف. لكن القانون لا يستطيع أن يفترض أن كل من يجيء بعدك ليجلس في مكانك سيكون أنت».

أخذت نيراي الكأس.

«ولهذا بالذات ينبغي أن يكون معلومًا من الذي ينظر في البيانات».

«ها أنت تتكلمين بلسان جيساير».

«بل أتكلم بلسان من تنتظر منذ عشر ساعات أن تتفق مؤسسات عدة، حتى تعرف هل يحق لها أن تسأل عمّن يموّل عملًا قد يعرّض ثلث السكان للأذى».

فتح تارين أحدث التقارير المصرفية.

«وردتنا معاملة واحدة جديدة».

رفعت نيراي عينيها.

«ألها صلة بالمؤسسات؟»

«ربما».

«تارين».

«عادت إلى الظهور شركة سبق أن رأينا اسمها في قضية فيستا. والمبلغ صغير».

«والغرض؟»

«خدمة موصوفة بأنها صحية».

«ولأيّ مشروع؟»

«الجواب محميّ بالسرية التجارية».

فتحت نيراي السجلّ الزمني.

مضت الدفعة قبيل لقاء ماريا بأريين.

قال تارين: «لعلّه استعداد عادي».

«لعلّه».

«شأن مؤسسات الحماية هو الأمن الصحي».

«أعلم».

«ومنذ الأوبئة السابقة اعتاد الناس التأهّب».

«أعلم».

«فما لك تنظرين إليها هذه النظرة؟»

كبّرت نيراي الخريطة.

معلومات.

وتساؤلات علمية.

وعمل باحثين.

وآراء قانونية.

وقلق على الناس.

والآن هذه الدفعة.

«لأن الوجهة بانت لي بتمامها».

صمت تارين.

ثم قال: «لا مرض نعرفه».

«لا».

«ولا إنذار صحي».

«لا».

«ولا دليل لدينا على أن هذه الأشياء يتصل بعضها ببعض».

«لا».

«فليس لدينا إذن ما نوقفه».

وأطالت نيراي النظر إلى الخريطة.

«لدينا جملة أفعال كان لها في نظام آخر أن تدق ناقوس الخطر».

«في أيّ نظام آخر؟»

«في نظام لم يوجد بعد».

انفتح خط ماريا من غير إشعار.

كانت صورتها تهتز كأنها تمشي.

«نيراي».

«ماذا يجري؟»

«ورد إلى أرشيف الأُسر طلب استثنائي».

«ممّن؟»

«من مستشفى في أوريولا. طفل به حمّى مجهولة».

انحنى تارين نحو الصورة.

«طفل واحد؟»

«حتى الآن».

«لِمَ يطلبون سجلّ أسرته؟»

«الدائرة الذهبية في عينيه بارزة على غير العادة، وعنده علامات حيّرت أطبّاءه».

أحسّت نيراي أن كل فكرة في رأسها توقّفت.

قال تارين: «قد يكون للشيء ألف تفسير».

أومأت ماريا.

«أعلم».

«تبرز العلامة عند أطفال الأوريليين حين يصابون بالحمّى».

«أعلم».

نظرت نيراي إلى الساعة.

«متى سُجّلت الحالة؟»

فأخبرتها ماريا.

بعد الدفعة الأخيرة بعدة ساعات.

والتقارب في الزمن لا يثبت شيئًا.

كانت نيراي تعرف ذلك.

ففي كل ساعة كانت تجري في إلاريون مليارات المدفوعات ويمرض آلاف الناس. وأيّ خريطتين تُطبق إحداهما على الأخرى لا بد أن تكشفا، إن كانتا واسعتين بما يكفي، عن حوادث تقاربت أوقاتها.

قالت: «اطلبي من المستشفى أن يُحيل الحالة إلى هيئة الرصد المشتركة بين الدول».

«سبق أن أحالها إلى الهيئة الإقليمية».

«أعني المشتركة بين الدول».

«لا يجيز النظام ذلك لحالة واحدة».

«فليتقدّم أرشيف الأُسر إذن بطلب استثناء».

نظرت إليها ماريا.

«ما من سند قانوني يبيح لنا كشف نسب المريض خارج الإقليم».

وظلّت تلك الجملة معلقة بينهما.

تذكرت نيراي الأذون التي مُنحت في الشهور الأخيرة للباحثين في شؤون الأوريليين.

وها هو طفل أوريليّ يرقد في المستشفى بحمّى مجهولة، والقانون يصون نسبه حتى عن أعين مَن يحاولون مساعدة أطفال مثله.

وكانت تلك الحماية حقًّا.

فالطفل ليس معلومة مشاعة.

ونسبه ليس ملكًا للدولة.

ولا ينبغي أن يكون مرضه ذريعة إلى مراقبة قومه كلهم.

ومع ذلك أحسّت نيراي أن أحدًا سبقهما إلى حيث تقفان الآن.

قالت: «تقدّمي بالطلب، وسأعضده بتحليلي المالي».

«وأيّ شأن لتحليل مالي بهذا المريض؟»

«هذا بالضبط ما لا نعرفه».

«يا نيراي، إذا وصلنا بين تمويل مريب ومرض طفل أوريلي واحد من غير بيّنة، فقد نثير الذعر».

«وإن لم نصل بينهما؟»

لم تُجب ماريا.

في مستشفى أوريولا كان إيلان نائمًا.

وجلست أمّه عند جدار غرفته الشفّاف. لم يفصل الأطباء بينها وبين ابنها نهائيًّا بعد، لكنهم طلبوا إليها البقاء في الحيّز الواقي.

استيقظ إيلان.

«أمّي».

وضعت راحة يدها على الجدار.

«أنا هنا».

«ادخلي».

«بعد قليل».

«أشعر بالبرد».

«أعرف».

«لِمَ لا أستطيع العودة إلى البيت؟»

ابتسمت الأمّ تلك الابتسامة التي يرسمها الأهل على شفاههم ليرى الطفل في وجوههم طمأنينة لا يحسّونها.

«عليهم فقط أن يعرفوا ما بك».

نظر إيلان إلى يده.

«ألأنني ذهبيّ؟»

انحبس نفَس أمّه.

«لا».

«قالوا في المدرسة إن الدائرة تمرض أحيانًا».

«من قال ذلك؟»

«أحدهم».

«الدائرة ليست مرضًا».

«فما لها تضيء هكذا؟»

لم تكن تعرف.

وضعت يدها الأخرى على الجدار.

«لأن جسدك يقاوم».

«وهل سينتصر؟»

«نعم».

أجابته في الحال.

وللأمهات يقين حتى في أمور ما زال أمرها معلّقًا.

وتلقّى الذكاء الاصطناعي الطبي في الإقليم آنذاك حالة رابعة.

ثم خامسة.

مدن مختلفة.

وأعمار مختلفة.

وعلامات متقاربة.

وجد النظام بين الحالات ارتباطًا إحصائيًّا ضعيفًا.

وربما كان بين المرضى أمر مشترك ورثوه.

لكنه لم يُذع تنبيهه في الناس إنذارًا عامًّا.

كان لا بد أولًا من التأكّد أن ما بدا له لم يكن من صنع المصادفة أو طريقة الفحص.

فقد علّمت تجارب التمييز القديمة الناس ألّا يسارعوا إلى الحكم على سلالة بأسرها من بضعة أفراد.

وطلب النظام معلومات إضافية.

فأمدّه أحد المستشفيات بما لديه.

وكان آخر بانتظار جواب.

ولم تكتمل الصورة في الثالث.

ولا عرف الرابع ما يكفي ليحسم الأمر.

كانت الآلة تلمح الرسم.

وما كان لها، بحكم القانون، أن تخطّ حدوده.

وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت جيساير رسالة من أوريولا.

كان يعرف أهل إيلان. لم تجمعه بهم صلة وثيقة، لكنه عرفهم بما يكفي ليتذكّر الصبي الذي سأله ذات يوم في اجتماع للأُسر إن كانت الدائرة الذهبية ترى أشياء أجمل مما تراه العيون العاديّة.

وكان جيساير قد أجابه يومها أن العين لا ترى بحسب لونها، وإنما بقدر شجاعة صاحبها على أن ينظر.

وها هو الآن واقف عند نافذة بيت دافيون يصغي إلى أمّ إيلان.

قالت: «لا يريدون أن يدعوني أدخل عليه».

«أهو في العزل؟»

«احترازًا فحسب، حتى الآن».

«وماذا يقول الأطباء؟»

«أنهم لا يعرفون».

كان في صوتها شيء يعرفه جيساير.

لم يكن الذعر.

بل تلك الحافة قبله بقليل.

قال: «سآتي».

«لا».

خرج الجواب منها حادًّا.

«أنت أوريلي».

لزم جيساير الصمت.

قالت: «اعذرني. إنني فقط... لو كان الأمر... نحن لا نعرف».

«أفهم».

«لقد سأل إيلان عنك».

«قولي له إني إلى جانبه».

«لكنك لست إلى جانبه».

مسّ جيساير زجاج النافذة بيده.

في الخارج رقدت أوريولا في العتمة. بيوت قديمة وأودية ومحفوظات أسرية وطرقات مشت عليها أجيال ممن يحملون الدائرة الذهبية.

قال: «لعلّ المرء يستطيع أحيانًا أن يكون إلى جانب إنسان آخر من مكانه الذي يقف فيه».

ولما انقطع الاتصال بقي وحيدًا.

ولمحت عيناه، للحظة، صورة.

هذه المرة لم يكن في الرؤيا مستشفى ولا إيلان.

انفتح أمامه ممر طويل تقطّعه جدران شفّافة.

وخلف كل واحد منها إنسان مسجّى.

وخلف كل واحد منها إنسان مسجّى.

وفوق الأسرّة أضاءت دوائر ذهبية.

بالآلاف.

ثم بالملايين.

واختفت الصورة.

تعلّق جيساير بإطار النافذة.

وقال للفراغ: «لا».

ولم يدرِ على من كان يردّ.

في الطبقة أضاء تنبيه صحي.

لم يكن مُذاعًا للناس.

كان أوليًّا.

رَصد نظام الإقليم تزامنًا غير مألوف لحالات قد تجمع بين أصحابها صفة موروثة. والأمر يحتاج إلى مزيد من التحقّق.

لم تره نيراي.

فلم يكن ذلك مما يُعرض على الدائرة المالية.

ولم يَبدُ لماريا منه غير بعضه.

ورد إلى أرشيف الأُسر استفسار عن احتمال القرابة بين المرضى.

وما رأى كل مستشفى سوى مرضاه.

ونال كل نظام شطره من الحكاية.

على سطح عمل نيراي تلألأت خريطة مالٍ مرّ من يد إلى يد.

وأمام ماريا خريطة ما أثاره علم الأحياء من أسئلة.

وفي الشبكة الصحية خريطة المرضى الأوائل.

وقامت بينها قوانين وسلطات وأذون وأسباب وجيهة تقتضي ألّا ينكشف كل شيء لإنسان واحد.

في الصباح كانت الحمّى لا تزال في جسد إيلان.

وارتفع عدد الحالات المجهولة إلى سبع.

وعصرًا إلى اثنتي عشرة.

وقبل مغيب شمس إلاريون مرض أول طفل في دولة أخرى.

قُيّد في النظام بوصفه حالة منفصلة.

وكان له في أسرته اسم.

أمّا في التاريخ فلم يكن له من اسم بعد.

سيبحث الناس يومًا عن اللحظة التي بدأت فيها واقعة الثلث.

وسيشيرون إلى أول بيان عام.

وإلى إغلاق أوريولا.

وإلى اليوم الذي نطقت فيه الشبكة الصحية باسم الأوريليين.

وإلى أول مدينة وراء جدار شفّاف.

لكن الكوارث لا تبدأ يوم يسمّيها المجتمع.

بل تبدأ قبل ذلك.

في سؤال يقع ثقله على أناس أبرياء.

في دفعة مالية مرّت من غير أن تدق في ضمير أحد جرسًا.

في استثناء وُضع لصون الحياة.

في آلة تلمح رسمًا لا تستطيع أن تقول ما هو.

في رجل ينفرد بمعرفة الخريطة.

وفي حمّى طفل واحد لم يدرك أحد بعد ما لها من وزن في التاريخ.

فتح إيلان عينيه.

وكانت الدائرة الذهبية فيهما تسطع أكثر من ذي قبل.

ووراء الجدار الشفاف وقفت أمّه.

ووضعت عليه ثلاث أصابع.

فرفع الصبي يده وفعل مثلها من الجانب الآخر.

وبقي بين بشرتيهما زجاج.

أول جدار.

لم يكن ثمّة بعدُ بيت أول أُغلق بابه.

لكن غرفة أولى كانت قد أُغلقت.

الجزء الثالث: طاعون الدائرة الذهبية

٢٥. بيوت أوريولا

بحلول الصباح صار عددهم ثلاثة وعشرين.

ثلاثة وعشرون إنسانًا بهم حمّى لم تستطع الأنظمة الصحية أن تصنّفها بدقّة.

وكان واحد وعشرون منهم من الأوريليين.

وواحد أبوه أوريلي، وإن لم تظهر عليه الدائرة الذهبية قطّ ظهورًا لا شكّ فيه.

أمّا المرأة الأخيرة فلم يكن لأرشيف الأُسر علم بها. وُلدت خارج أوريولا ولم تُعلِن قطّ إلى أيّ نسب تنتمي.

وكان للحالات في كل مستشفى وجه مختلف.

ففي أحدها يرقد طفل.

وفي آخر امرأة مسنّة.

وفي الثالث اثنان من الإخوة.

وفي الرابع رجل كان يعمل قبل أيام قلائل على الحلقة المدارية.

اعتمدت الأنظمة الصحية في المقارنة بين المرضى على أحوالهم وأعراضهم والظروف التي عاشوها. ولم يكن الاسم أو العرق أو السلالة ليُجعل حجة في الطب بغير مسوّغ واضح. فقد كانت بيانات النسب من أشدّ الأمور حرمة في إلاريون.

ولم يقم الدليل بعد على وجود ذلك المسوّغ.

فما كان للنظام أن يفترضه.

وفي مستشفى أوريولا انقطع إيلان عن الكلام.

لم يكن نائمًا. كانت عيناه مفتوحتين يتبع بهما النور على السقف، لكنه لم يعد يُجيب إلا بحركة من أصابعه. إصبع واحدة لنعم. واثنتان للا.

وقفت أمّه وراء الجدار الشفّاف.

«أتسمعني؟»

إصبع واحدة.

«هل يؤلمك شيء؟»

إصبعان.

«أتشعر بالبرد؟»

واحدة.

راح الفريق الطبي يعدّل العلاج بتغيّر قراءاته. وكان النظام يقيّم كل خطوة، ويُقارنها بملايين الحالات، ثم يراجعها طبيب.

لم يكن أحد يتصرّف على غير هدى.

ومع ذلك لم يعرف أحد ما الذي يتصدّى له.

رفع إيلان يده.

ووضع ثلاث أصابع على الجدار.

وفعلت أمّه مثله.

وبينهما زجاج وهواء ولائحة لا تأذن لها بالدخول.

قالت: «أنا هنا».

أغمض الصبي عينيه.

في ذلك اليوم بدأت أولى البيوت تغلق أبوابها.

من غير أمر من الدولة.

طوعًا في بادئ الأمر.

كانت لبيوت الأُسر الأوريليّة العريقة أعرافها الصحية الخاصة. سُنّ بعضها يوم كانت الأمراض أبطأ انتشارًا، وكان الناس يعتقدون أن جدران بيت العائلة تستطيع أن تفصل بين النقاء والعالم. وفي الأزمنة الحديثة لم يكن الأخذ بها يعدو أن يكون رمزيًّا في الغالب.

أمّا الآن فأُغلقت أبوابها العتيقة حقًّا.

كفّت الأسر عن إرسال أطفالها إلى المدارس.

ولزم العاملون بيوتهم.

وقاست الأنظمة المنزليّة درجات الحرارة ومؤشرات الدم وما يطرأ على الدائرة الذهبية من تغيّر.

وعلى الشبكات العامة ظهرت أولى صور العيون.

صور لقزحيّات.

وخطوط ذهبية مكبّرة.

وراح الناس يقارنون بينها، ويتقصّون الفروق، ويؤشرون إلى المواضع التي تبدو فيها الدائرة أعرض أو أسطع أو متقطعة.

ونبّه العاملون في الصحة، مرة بعد أخرى، إلى أنه لا يُعوَّل في التشخيص على هيئة العين.

وما أصغى إليهم أحد.

فالخوف يحبّ العلامات التي يمكن رؤيتها.

وصلت ماريا إلى أوريولا قبل الظهر.

كان جيساير ينتظرها أمام بيت دافيون. لم يلبس ثوب وقاية، واقتصر على كمامة بسيطة فاتحة اللون تفرضها اللوائح المحلية.

قالت: «ما كان ينبغي لك أن تأتي إلى هنا».

«أنا أسكن هنا».

«تفهم قصدي».

نظر جيساير إلى البيوت الموصدة في الوادي.

«إن كان عليّ أن أرحل في هذه الساعة بالذات، فما كان هذا البيت بيتي يومًا».

«لست أتحدث عن البيت».

«أعرف».

«بل عنك».

«أنا أيضًا أوريلي».

«ولهذا بالضبط».

دنت ماريا منه.

«إن كان البلاء مقصودًا به أهلنا، فأنا أخشى عليك أكثر من أيّ أحد. أنت سليل أعرق الأُسر المعروفة، ولا ندري بالضبط ما الذي يعنيه ذلك».

«لعلّه لا يعني شيئًا».

«ولعلّه يعني كل شيء».

نظر جيساير إليها في هدوء.

«أطلبت منك نيراي أن تقنعيني؟»

«قالت نيراي إني إن لم أقنعك فستأتي بنفسها وتجرّك جرًّا».

«أودّ أن أرى ذلك».

«أما أنا فلا».

زالت الابتسامة عن وجهه.

والتفتت ماريا إلى أوريولا.

«تكلّم أريين عن بيوت ستغلق أبوابها قبل أن نعرف حالة واحدة».

«أعرف».

«إن كانت له يد في ما يحدث...»

«لدينا شك».

«لديّ أكثر من الشك».

«لديك معرفة بإنسان».

«أهي شيء قليل؟»

«لا. غير أنها لم تكن لتكفي لإيقاف العالم».

أطرقت ماريا.

ومسّ جيساير يدها.

«لا ذنب لك».

«لقد رأيت الوجهة».

«وأخبرت بها».

«متأخرة».

«قبل الحمّى الأولى».

«ولكني لم أسبقها بما يكفي».

وعرف جيساير أن لا طائل من الاعتراض. لا لأنها مصيبة، بل لأن الشعور بالذنب في مثل هذه الحال لا يختار ضحيّته بحسب الحقيقة. إنما يختارها بحسب القرب.

وكانت ماريا أقرب الناس إلى أريين.

ولذلك أحسّت أنه كان ينبغي لها أن تبصر أبعد مما يبصر سواها.

فُتح بيت دافيون مركزًا للتنسيق.

لا مستشفى.

لم تكن فيه أجهزة ولا أطباء يُحسنون علاج المرض الجديد. وإنما كانت فيه الغرف الواسعة ونقاط الاتصال ومصادر الطاقة المستقلة وقاعات قديمة تحت الأرض يمكن فصلها عن بقية الدار.

ورفض جيساير اقتراح مجلس العائلة أن يُقصر البيت على أبناء أعرق السلالات.

وقال: «إنْ فتحنا البوابة لمن يحملون الاسم الصحيح وحدهم، فلا نستحق واحدًا من الأسماء التي عُلّقت على جدراننا».

وبدأت تأتي إلى البيت أُسر لا ملجأ لها.

لم يكن المرض قد أصابها كلها.

بل كان ببعضها الخوف فحسب.

أمّ جاءت بابنيها بعدما طلب إليها الجيران أن تخلي المجمّع السكني الذي يضمّهم.

ورجل مسنّ أُلغي نقله إلى المستشفى، لأنّ دولة أخرى كفّت عن استقبال المرضى الوافدين من أوريولا.

وشابّة في شهور حملها الأخيرة. كان شريكها من السيلينيين. وأفادت الفحوص الوراثية أن الطفل الذي تحمله ذكر.

صبي أوريلي.

جلست في مكتبة آل دافيون القديمة ووضعت كلتا يديها على بطنها.

وقالت لماريا: «قضيت عمري أحلم بابن. والآن أشعر أن ما أورثته إيّاه حُكم عليه».

«أورثتِه الحياة».

«وعلامة».

«العلامة ليست مرضًا».

«فقولي ذلك لمن سيخافون أن ينظروا إليه».

جلست ماريا قُبالتها.

«لا نعرف بعد ما الذي يجري».

«ولهذا بالضبط أخاف».

وتأمّلت المرأة صور آل دافيون.

«أتظنّينهم تخيلوا يومًا أن دائرتهم ستعني الموت؟»

«لا».

«فلأيّ شيء كانت إذن؟»

نظرت ماريا إلى الدوائر الذهبية المرسومة في عيون أولئك الذين عاشوا قديمًا.

«لعلّها لم تكن لشيء».

نظرت المرأة إليها في عجب.

وتابعت ماريا: «ليس لازمًا أن تكون لكل شيء غاية. ليس كل ما نرثه رسالة. أحيانًا لا يعدو أن يكون جزءًا من جسد. قطعة من طريقنا».

«وإن كانت تلك الطريق تقودنا إلى هنا؟»

لم تجد ماريا ما تجيب به.

ووصلت نيراي في ساعة متأخرة من المساء.

لم تأذن لها نقطة الحماية بالدخول إلى أوريولا إلا بعد ثلاث مراجعات. فقد كانت سيلينيّة وأمّها أوريليّة، ولم يكن لدى النظام من المعلومات ما يكفي ليتبيّن إن كان اختلاط النسب ينطوي على خطر.

قالت وقد دخلت بيت دافيون: «يبدو أنني صرت أوريليّة بما يكفي ليُخضعوني للفحص».

قال جيساير: «لكان ذلك سرّك في صغرك».

«كنت حمقاء في صغري».

«كنت تريدين أن تكوني واحدة منهم».

«وكثيرًا ما يكونان الشيء نفسه».

ولم يطولا العناق.

وفتحت نيراي من فورها سجلات العمل.

«عندنا ثمانٍ وسبعون حالة مؤكّدة. وأكثر من مئتي حالة أخرى تنتظر التصنيف. وأكثرها في أوريولا، لا كلّها».

سألت ماريا: «كم أوريليًّا بينهم؟»

«لا نعرف العدد بدقّة».

«كيف لنا ألّا نعرف؟»

«ليس كل إنسان يعلن نسبه. وليس أهل كل دولة يحفظون تلك المعلومات بالطريقة نفسها، وللمرضى حقّهم في الخصوصية».

«أما زال النظام ممتنعًا عن إعلان وجود صلة وراثية؟»

«النظام الإقليمي عدّها محتملة».

«والمشترك بين الدول؟»

«ليست لديه معلومات مؤكّدة تكفي».

ضحكت ماريا في حنق.

«وكم يحتاج منها؟»

«مرهون ذلك بجودتها، لا بعددها وحده».

«الحمّى تُضرم النار في الناس والآلات تقيّم الجودة».

قالت نيراي: «الآلات تفعل ما أردناه منها. لم نكن نريدها أن تَسِم عرقًا بأسره بأنه خطر صحي حين لا تعرف إلا عشر حالات».

«واليوم ناهزت الثمانين».

«وبعد ساعات قد تبلغ الثمانمئة».

ساد الصمت الغرفة.

ونظر جيساير إلى أخته.

«أهذا ظنك؟»

«ظني أنّ هذا الشيء، أيًّا كان، لم يبدأ اليوم».

عرضت نيراي الخريطة.

كانت الحالات الأولى المعروفة متباعدة الأمكنة.

وشغلت بعضها جهات اعتاد الناس الارتحال بينها.

وجمعت غيرها صلات قربى.

وبعضها الآخر لا رابط ظاهرًا بينه.

قالت: «لقد جاوز أوريولا. لكننا لم نعترف لأنفسنا بذلك بعد».

وعلى أحد الجدران الجانبية في بيت دافيون انفتح بثّ الأخبار المحلي. قالت المذيعة: «تؤكّد السلطات ثمانيًا وسبعين حالة من حمّى مجهولة. وينفي العاملون في الصحة أن تكون هيئة الدائرة الذهبية كافية لتشخيص العدوى».

وفي تسجيل قصير سألت أمّ أمام مدرسة مغلقة لماذا عليها أن تُبقي طفلها في البيت ما دام لا يشكو شيئًا. وأشار أب آخر إلى باب بيت أوريلي وطالب بوضع حراسة عليه.

خفّض جيساير صوت البثّ وقال: «كلاهما يخاف على الأطفال». ولم تجب نيراي. كانت خريطتها قد ازدحمت بأمكنة أكثر مما سمّت المذيعة.

وجاءت عندئذ رسالة من المستشفى.

ساءت حال إيلان.

نهض جيساير.

«أنا ذاهب إليه».

قالت ماريا ونيراي بصوت واحد: «لا».

نظر إليهما.

«أمّه وحدها».

قالت نيراي: «معها الفريق الطبي».

«وشتّان بين الأمرين».

«إن أصابتك العدوى فلن تنفع أحدًا».

«وإن بقيت هنا؟»

«بوسعك أن تكلّم الناس. أن تنظّم العون. أن تقنعهم بالتقيّد بالتدابير».

«تريدينني إذن صوتًا ولا تريدينني إنسانًا».

«أريدك أن تبقى حيًّا».

نظر جيساير إلى خريطة أوريولا.

ثم إلى بوابات بيته الموصدة.

«طوال هذه السنين والناس يحدّثونني بما يزعمون أن أسلافي كانوا يقدرون عليه. كانوا يَشفون بلمسة. ويدخلون بيوتًا خاف سواهم أن يطأها. ويقفون إلى جانب المرضى».

قالت نيراي: «ولعلّهم لذلك ماتوا جميعًا».

رفع جيساير عينيه إليها.

لم تكن قسوة.

وإنما خوف شقيقة لم تشأ بعدُ أن تقيّد أخاها بين الأرقام.

قالت: «لست بحاجة إلى أن تُثبت أنك من آل دافيون».

«لا أريد أن أثبت شيئًا».

«فابقَ إذن».

جلس جيساير.

وفي المستشفى وضعت أمّ إيلان ثلاث أصابع على الزجاج.

ولم يرفع الصبي يده بعد الآن.

وقبل انتصاف الليل أُغلقت أبواب ثلاثة وأربعين بيتًا أوريليًّا آخر.

وقبل الصباح زاد العدد على ألف.

في البدء كانوا يغلقون أبوابهم بأنفسهم.

وبعد أيام قلائل سيشرع آخرون في إغلاقها عليهم.

٢٦. أنظمة لا ترى الكلّ

عرفت سايرا أورين اللغة التي تتخاطب بها الآلات.

ليست لغة الكلمات.

بل الصلاحيات.

لم يكن لكل نظام معلومات إلا أن يقول ما يبيحه له القانون. وما أُودع فيه كان أقلّ شأنًا مما أُذن له أن ينقله إلى سواه.

كانت سايرا مهندسة شبكات البيانات المشتركة بين الدول. صمّمت قنوات التواصل بين المستشفيات وشركات التأمين والسجلات الصحية ومراكز الأبحاث. وأفنت حياتها في تمكين المؤسسات من تبادل البيانات من غير أن يصير الإنسان شيئًا مشاعًا.

كانت تؤمن بالحدود.

وتؤمن بالفصل بين الصلاحيات.

وتؤمن بأن ما من نظام يحقّ له أن يعرف عن الإنسان كلّ شيء.

ولهذا استدعتها نيراي.

التقتا في مركز أزمات الاتحاد.

وأضاءت على الجدران خمس خرائط.

خريطة المرضى.

وخريطة القرابات.

وخريطة سعة المستشفيات.

وخريطة حركة النقل.

وخريطة الأموال المشبوهة.

ولم تكتمل واحدة منها.

ولا كان من الجائز أن تُوضع أيّ اثنتين منهما إحداهما فوق الأخرى تمامًا بغير إذن.

أطالت سايرا النظر فيها.

قالت: «تريدينني أن أصل بينها».

«أريد أن أعرف هل يمكن وصلها».

«من الوجهة التقنية، نعم».

«ومن الوجهة القانونية؟»

«لا».

«حتى في حال الطوارئ؟»

«لم تُعلَن حالة الطوارئ الصحية بعدُ في الكوكب كلّه. وللاتحاد سلطة على سجلاته دون سجلات غيره. وحقوق الأُسر مصونة، كذلك حقوق أصحاب المال».

وأشارت نيراي إلى خريطة المرضى.

«كل ما أريده أن أتحقّق مما إذا كانت لمخاوفي بشأن تلك المشاريع صلة بما يحدث لهؤلاء المرضى».

«كل ما تريدينه؟»

«لا أريد أسماءهم».

«وحتى وجود صلة بلا اسم هو معلومة عنهم».

«وماذا عن المعلومة المتعلقة بمن دفع ثمن الأبحاث؟»

«الطبقة المالية لا تعرف من يكون».

«بالضبط».

اقتربت سايرا من الخرائط.

«أستطيع بناء جسر موقّت يتيح المقارنة من غير أن يكشف عن اسم مريض».

«فافعلي».

«لا صلاحية لي».

«ولمن الصلاحية؟»

«للجميع».

عقدت نيراي حاجبيها.

«هذا ليس جوابًا».

«بل هو جواب في غاية الدقة. نحتاج إلى موافقة هيئة الرقابة الصحية وأرشيف الأُسر والمجلس المشترك بين الدول واثنتي عشرة دولة على الأقل والجهة المؤتمنة على البيانات خارج الكوكب. وإن دخلت الأموال في المسألة، لزمنا إذن قضائي كذلك».

«كم يلزم من الوقت؟»

«في الأحوال العادية، بضعة أشهر».

«وفي الطوارئ؟»

«إذا اتفق الجميع، بضع ساعات».

«فلنجمع بينهم».

نظرت إليها سايرا.

«الناس أم الأنظمة؟»

«كلاهما».

وبعد ست عشرة دقيقة بدأ اجتماع الأزمة.

جلس عن جانب ممثلو الهيئات الصحية.

وعن الجانب الآخر القائمون على أرشيف الأُسر.

ومعهم محامون ومراقبون مصرفيون وممثلون عن الدول ومدافعون عن الحقوق المدنية.

كان كل منهم يعرف وجهًا غير الذي يعرفه الآخر من المشكلة.

وكل منهم يخاف كارثة غير التي يخافها الآخر.

أهل الطب يخافون الوباء.

ومجالس الأُسر تخاف التمييز.

والدول تخاف أن يفلت الأمر من يدها.

والمحامون يخافون إرساء سابقة.

والمدافعون عن الحقوق يخافون نظامًا قد يصل يومًا بين كل معلومة وأخرى عن كل إنسان.

قالت سايرا: «نطلب إجراء مقارنة لوقت محدود. من غير أسماء، ولا كشف لبيانات فردية. نريد أن نتبيّن هل لمخاوف أثارتها أبحاث حديثة أساسٌ في محنة المرضى اليوم».

سأل ممثّل ثيرينيث: «ومن سيطّلع على النتيجة؟»

«فريق الطوارئ الصحية».

«والطبقة؟»

أجابت نيراي:

«لن يُبلَّغ المحلّلون الماليون إلا بما يفيد وجود صلة أو عدمها بين المشاريع التي نراجعها والخطر الراهن».

«أي إنكم ستستخدمون بيانات صحية في تحقيق مالي».

«سنستند إلى ثبوت الخطر ليتسنى لنا أن نعرف من موّله».

«تلك سابقة خطيرة».

«السابقة الخطيرة ترقد بالفعل في المستشفيات».

وكان دارين فولتر حاضرًا عن المجلس النقدي للرابطة الشمالية. لم تكن له سلطة مباشرة على البيانات الصحية، لكنه مثّل عند وقوع الأزمات بين الدول مجموعة من البلدان التي سيقع على مؤسساتها المالية والتأمينية بعض العبء.

قال: «يا نيراي، أتفهم ضيق الوقت. لكن النظام الذي يجمع المورّثات والصحة والمال هو بالضبط ما حذّر منه خصوم جيساير».

«اقترح جيساير أن تنكشف السلطة للأعين، لا أن تُنشر ملفات الناس الصحية».

«كل نظام مركزي يبدأ بالقول إن السلطة وحدها ما يريد أن يراه».

«فلا ننشئ إذن نظامًا مركزيًّا».

«بل ماذا؟»

أجابت سايرا:

«تبادلًا مؤقتًا للبيّنات بين مراكز تبقى منفصلة. تظلّ البيانات حيث هي. وما من سجلّ يجيب بأكثر من نعم أو لا أو قيمة إحصائية. ويُقيَّد كل استفسار. وسيطّلع المريض في ما بعد على ما يبيّن أن معلوماته دخلت في مراجعة الطوارئ».

سألت ممثّلة الحقوق المدنية: «وهل يستطيع أن يرفض؟»

«ليس بأثر رجعي».

«إذن ليس لرضاه من معنى».

«إذا انتظرنا موافقة كل مريض فاقد الوعي بنفسه فلن نعرف شيئًا».

«هكذا بالضبط يبدأ وضع استثنائي لا ينتهي أبدًا».

شعرت نيراي بغضب يتصاعد في صدرها.

لم يكن غضبًا من أحد بعينه.

فقد أعرب كل واحد منهم عن مخاوف معقولة.

وذلك أسوأ ما في الأمر.

لو كانوا حمقى لأمكن إقناعهم.

ولو كانوا فاسدين لأمكن فضحهم.

لكنهم كانوا يحمون قيمًا حقّة.

الخصوصية.

والحقوق.

والسيادة.

والثقة.

وبينما كانوا يحمونها كلًّا على حدة، كان المرض يعبر بينهم.

قالت نيراي: «اقترحوا ضمانات. لا رفضًا».

سأل فولتر: «مثل ماذا؟»

«يكون كل استفسار ظاهرًا للمؤسسات المشاركة كلّها. ويُحفظ سجلّ بكل استعمال للبيانات. وتخضع النتائج للمراجعة بعد انقضاء الأزمة. ومن يتجاوز الغرض المحدّد يتحمّل المسؤولية بشخصه».

«وهذا، على أيّ حال، لا يحمي الفرد من الدولة».

«أجل. لكن الدولة حين تنظر إليه لن تكون خفيّة».

سكت فولتر.

كان يتذكّر تلك الفكرة من خطاب جيساير.

أن يرى الخاضع للرقابة من يراقبه.

لم تكن الفكرة جوابًا عن كل شيء.

لكنها خير من اطّلاع يُجرى في السرّ.

واستمر التفاوض.

وفي تلك الأثناء جاوز عدد الحالات الألف.

كان الذكاء الاصطناعي الطبي في الاتحاد قد رجّح بقوّة وجود صلة وراثية. لكن استنتاجه اقتصر على ما توافر للاتحاد. وخلصت دولتان أخريان إلى نتائج مماثلة، في حين لم يكن لدى ثلاث دول بعدُ عدد كافٍ من المرضى المؤكَّدين.

كل نظام يعرف شطرًا.

وما من نظام يستطيع أن ينطق بالجملة كاملة.

فتحت سايرا مخطّط البنية التقنية.

وقالت: «الآلات ليست عمياء. إنما هي معصوبة العيون. وكل عصابة منها وضعها إنسان لسبب وجيه».

سأل فولتر: «أنستطيع أن نزيح العصابة عن عينيها هنيهة؟»

«نستطيع أن نترك لها فرجة ضيقة».

«ومن يقرّر مبلغ اتّساعها؟»

«أنتم».

هزّت نيراي رأسها.

«لا. القواعد. لا الجالسون في هذه الغرفة».

«ولا بد للقواعد من أحد يكتبها».

«ولا بد للجميع أن يروا من كتبها».

وبعد خمس ساعات أُقرّ جسر محدود للمقارنة.

انضمّت إليه اثنتا عشرة دولة على الفور.

وتسع بشروط.

ورفضته أربع.

وطلبت البقية رأيًا قانونيًا إضافيًا.

ووافقت محفوظات الأُسر على ألّا تجري المقارنة إلا على بيانات إجمالية.

وظلّت خريطة المال خارج الاتصال المباشر.

وليس لنيراي من الأمر إلا النتيجة التي تفيدها إن كانت هناك صلة تستحق التحقيق بين المشاريع قيد النظر ومحنة المرضى.

بدأ عمل الجسر.

وأخذ يرسل الأسئلة.

لم يتلقّ الجسر أسماءً.

وظلّت الملفات الصحية الكاملة مصونة.

ولم يعبر الجسر إلا البرهان الحسابي على ما اتّفق من المعطيات.

وصلت أولى النتائج بعد تسع دقائق.

كانت الصلة الوراثية قويّة.

وأكّد الجواب الثاني أن القلق بشأن بعض المشاريع لم يكن في غير محلّه.

وأظهر الثالث أن أثر البلاء لم يقف عند حدود عائلات طالما حسب الناس أن القربى بينها بعيدة.

استدعت نيراي خريطة المال.

المؤسسات.

وأسئلة العلماء.

وعمل الباحثين.

والاستثناءات.

والتقارير.

والدفعات.

وبين يديها الآن أوّل ما يصلها بالمرض.

لا بيّنة على الجريمة.

بل بيّنة على وجهة.

قالت: «أرسلوا هذا إلى النيابة».

سأل تارين: «وبأيّ صفة؟»

«خطر وشيك يتهدّد النظام كلّه».

«ما زلنا لا نعرف الفاعل».

«لكننا نعرف ما أُنفق عليه المال».

«وشتّان بين الأمرين».

«أجل. لكن المشتريات سبقت الأجساد».

في الطرف الآخر من نيترا كان كايل ثورن يتابع أخبار الصحة ذاتها التي يتابعها الناس.

وإن لم تكن تلك كل أخباره.

كانت تطّلع عيناه على تقديرات خاصة أعدّتها شركات التأمين والتكتلات الاقتصادية. وكانت أدقّ من التصريحات السياسية، فالمال كان يتأهب للكارثة قبل أن يُؤذن للدول بتسميتها.

وتوقعت مئات الآلاف من الحالات في أيام قلائل.

وربما الملايين.

اتصل كايل بأريين.

ولم تظهر له صورة هذه المرة.

بل صوت فحسب.

قال كايل: «علينا أن نتيح نتائج الأبحاث كلّها».

«لماذا؟»

«فلعلّ فيها ما يعين الأطباء».

«ليست النتائج في يدي».

«فاجمعها».

«ليست عندي كلّها».

أغمض كايل عينيه.

«وأنت من طلبها».

«لم أكن وحدي صاحب الشأن».

«لا تتذرّع أمامي بما صنعت يداك».

«بعض ما تطلبه لم يعد لي أمر فيه. ولستُ في ذلك مطلق اليد».

«إذن قد أوجدت خطرًا ما عاد منشئه نفسه يفهمه».

لزم أريين الصمت طويلًا.

وقال أخيرًا: «ما كان يُفترض أن يموتوا جميعًا».

فتح كايل عينيه.

«ومن الذي ما كان يُفترض أن يموت؟»

«لم أتوقع أن يبلغ هذا المبلغ».

وعند حافة الطاولة تحركت أصابعه حركة بقيت في ذاكرتها منذ الطفولة. بدت خمسة أوجه من المكعب صحيحة. وعلى الوجه الأخير بقيت بضع خانات في غير مواضعها.

أمام بوابة حديقة الحيوان توسّل يومًا أن يُسمح له أن يبدأ من جديد. والآن كان يتأمّل خريطة المستشفيات. وما من حركة أخرى تستطيع أن تعيد الموتى إلى بيوتهم.

«كم كنت تتوقع؟»

«عددًا يكفي».

«ذلك ليس رقمًا».

«لم تكن الأرقام لتعنيك قبل اليوم».

نهض كايل.

«قبله كنت تزعم لي أنها ستكون أزمة محدودة».

«أردتَ أن يخاف إلاريون عالَم جيساير».

«أردت أن أوقفه».

«وهذا سيوقفه».

نظر كايل إلى خريطة المستشفيات.

«كلا. هذا سيصنع منه ما كنت تخشاه».

قطع أرييين الاتصال.

وأخذت نقاط أخرى تتلألأ على الخريطة الصحية.

وبدأت الأنظمة تصل بعضها ببعض.

بعد فوات الأوان.

لكنها المرّة الأولى التي تفعل فيها ذلك معًا.

٢٧. الاسم الذي خافوا أن ينطقوا به

عرف إلاريون ما للتسمية من قوّة.

قد يصون الاسمُ المرءَ.

وقد يهبه حقًّا وانتماءً وتاريخًا ومكانًا بين الناس.

ولكن الاسم قد يكون أيضًا هدفًا تُصوَّب إليه السهام.

قبل بضعة أجيال، كانت دولتان تأخذان بالنسب في إسناد الوظائف ومنح التأمين الصحي. فالأوريليون في نظرهما مرضى أكثر كلفة، لمزايا موروثة عُرف بعضها عنهم. والسيلينيون يُردّون عن سلك الأمن بذريعة أنهم مفرطو الحساسية. ويُقدَّم الفيرانيون في دوائر الإدارة والمؤسسات المالية لما يُزعَم عنهم من موهبة فطرية في التنظيم.

وفي ما بعد أُبطلت تلك القواعد.

وبقيت الريبة التي خلّفتها.

ولهذا خشي مسؤولو الصحة أن ينطقوا بكلمة «أوريلي» قبل أن تغدو الصلة فوق الشك.

وحين التأم المجلس الصحي الكوكبي كان عدد الحالات المؤكّدة قد جاوز مئتي ألف.

وكان المرضى، إلا قلّة منهم، أوريليين أو من ذوي القربى الثابتة بالأوريليين.

قالت كبيرة اختصاصيي الأوبئة في الاتحاد: «الرابطة الإحصائية بيّنة. أما كيف يكون أحد الأمرين سببًا في الآخر فليس بيّنًا».

واعترض ممثّل فوكوروين: «الجمهور لا يفرّق بين الإحصاء والسبب. إذا قلنا إنه مرض أوريلي عدّ الناس كل أوريلي مصدرًا له».

أجابت ماريا: «وإن كتمنا ذلك، فلن يعرفوا من المعرّض للخطر».

«الجميع في خطر».

«لكن الخطر لا يتساوى عليهم».

«لا نعرف إن كان الأوريليون أكثر نقلًا للمرض».

«ولا ندّعي أنهم ينقلونه أصلًا».

«هذا ما لن تسمعه آذان الناس».

وجلست نيراي بجوار سايرا تتابع نقاشين في آن.

في غرفة واحدة كان أناس يتداولون في اختيار الكلمات.

وفي المستشفيات كان يُبتّ فيمن يُترك له سرير.

قال دارين فولتر: «أقترح هذه العبارة. مرض مجهول متفاوت الحدوث في جماعة تربط أفرادها صلة وراثية».

نظرت ماريا إليه.

«ذلك سبيل إلى النطق بكلمة أوريلي من غير أن تنطقوا بها».

«إنها عبارة دقيقة».

«كلا. بل مريحة».

«يا ماريا، الكلمات قد تقتل».

«وغيابها كذلك».

رفعت رئيسة المجلس يدها.

«علينا أن نفصل بين سؤالين. مَن يصيبه المرض، ومَن قد ينشره».

كرّر ممثّل فوكوروين: «الجمهور لن يفصل بينهما».

قالت نيراي: «علينا إذن أن نعلّمه».

«أفي غمرة الذعر؟»

«ومتى إن لم يكن الآن؟ أبعد أن يُحبس الأوريليون في بيوتهم؟»

«بعض البيوت أُغلق طوعًا».

«لأن الدول لاذت بالصمت».

والتفت إليها دارين فولتر.

«فبماذا تشيرين؟»

«أن نقول الحقيقة بتمامها. أن المرض يصيب الأوريليين على الأخص. وأنه لا دليل إلى الآن على أن مجرّد الانتساب إليهم يزيد من احتمال نقل العدوى. وأن التمييز يقلّل استعداد المرضى للإبلاغ عن مرضهم فيزيد بذلك الخطر على الجميع».

«وإن عرفنا غدًا خلاف ذلك؟»

«نقوله غدًا».

«لا يمكن تبديل الثقة كل يوم».

«لكن أقرب ما نعرفه إلى الحقيقة قد يتغيّر ساعة بعد ساعة».

ولم يتفق المجلس.

وأصدر بيانًا خلا من كلمة «أوريلي».

وتحدث عن خطر صحي يتفاوت بين فئات السكان، وعن الحاجة إلى الفحص الطوعي وتقييد التنقل مؤقتًا في المناطق التي كثر فيها المصابون.

وأكمل الناس المراد من تلقاء أنفسهم.

فأخذت تسمية «طاعون الدائرة الذهبية» تنتشر على الشبكات.

ولم يعرف أحد من أطلقها أوّل الأمر.

لعلّه صحافي.

أو أحد الآباء أفزعه ما يجري.

أو إنسان كره الأوريليين من قبل، ولم يكن ينتظر إلا كلمة تُوهمه أن له سببًا.

وسبق الاسم في انتشاره التوصيات الرسمية.

في سارور أبى سائق مركبة نقل أن يُصعد على متنها أسرة أوريليّة.

وقال: «ليس بيني وبينكم شيء».

وأبرز الأب شهادة تُثبت أنّ نتائج فحصهم سلبية.

«معنا إذن».

«لي أطفال في البيت».

«ولي مثلك».

«فمن أجْل هذا بالضبط يُفترض أن تتفهم».

وبقيت الأسرة على الرصيف.

ولزم الركاب الآخرون الصمت.

ما خلا واحدًا هبّ لنصرتها.

كان فيرانيًّا.

«إمّا أن تُصعدهم، وإمّا أن ننزل كلّنا».

ولم ينزلوا كلّهم.

نزل ثلاثة.

وفي مدينة أخرى احتشد قوم أمام بيت أوريلي يطالبون بإغلاقه. فلما أطفأ أهله الأنوار، أخذ الحشد يصفّق.

وفي حيّ السيلينيين بنيترا فتح الناس مركزًا أهليًّا للأُسر التي فقدت مأواها.

ولم يكن على بوابة المدخل شعار لسلالة من السلالات.

كان عليها سطر واحد:

للمرض ضحايا. وللخوف ضحايا يصنعهم.

وفي مستشفى أوريولا وضعت الشابة ابنها.

كان الطفل معافى.

وحين فتح عينيه لم تظهر فيهما الدائرة الذهبية.

تنهّدت أمّه ارتياحًا.

ثم استحيت من ارتياحها.

وقالت لماريا، وكانت تكلّمها عبر الشاشة: «ما أفظعني».

«كلا».

«دعوتُ ألّا تكون فيه».

«دعوتِ أن يحيا».

«أوهما شيء واحد؟»

لم تجب ماريا.

وتحرّك الطفل، فأظهر النور القويّ حول بؤبؤ عينه خطًّا ذهبيًّا رفيعًا.

وأخذت أمّه تبكي.

لم ينقص حبّها له.

لكنها عرفت أن العالم من أول لحظة سيبصر فيه سؤالًا.

وفي نيترا اجتمعت نيراي بإدارة الطبقة.

ورُفض من جديد بعض طلبها الكشف الفوري عن أصحاب الأموال التي موّلت المشاريع.

وقد أتاح الخطر الصحي الوشيك تجميد بعض الحسابات.

وبقيت أسئلة عن المسؤولية بلا جواب في عدد من الدول.

قالت نيراي: «عندنا ما يؤكّد أن قلقنا من هذه الأبحاث له ما يسنده في ما يجري اليوم».

صحّح لها محامٍ: «عندنا اقتران بين أمرين».

«ومن دفع ثمن هذا الاقتران؟»

«نحن نستقصي ذلك».

«وإلى متى؟»

«لثيرينيث مهلة ثلاثين يومًا للرد».

ضحكت نيراي.

ولم يكن في ضحكتها شيء من المرح.

«بعد ثلاثين يومًا قد لا يبقى من يُردّ عليه».

«لا نستطيع أن نلغي القانون كلّما لاح خطر».

«لست أطلب إلغاء القانون. بل أطلب أن يستطيع القانون أن يسبق حفّاري القبور إلى العمل».

«إن فتحنا الآن دفاتر كل صندوق محمي أرسينا سابقة».

«لعلنا بحاجة إلى سابقة».

«يسهل قول مثل هذا الكلام في الأزمات».

انحنت نيراي نحوه.

«ومتى ترون أن يُكشف عما في النظام من وهن؟ أفي زمن السكينة حين لا يعني أحدًا؟»

وفي المساء التأم المجلس الصحي مرة أخرى.

وكان عدد الحالات قد جاوز المليونين.

ووصل هذه المرة تقرير من ثايرون أيضًا.

ظهرت الأعراض ذاتها على ثلاثة عاملين في إحدى القباب المغلقة.

اثنان منهم أوريليان.

والثالث أبوه أوريلي.

فتحت رئيسة المجلس البيان المعدّ سلفًا.

وما زالت تنقصه كلمة واحدة.

نهضت ماريا.

«إن خفتم أن تسمّوا من يقتلهم المرض فلستم تقوننا من التمييز. إنما تقون أنفسكم من المسؤولية».

قال فولتر: «ليس هذا من الإنصاف».

«وليس من الإنصاف أيضًا أن تعرف الأمهات الحقيقة من رسائل غرباء، والدول تتحدث عن التفاوت بين فئات السكان».

«قد يُطلق الاسم شرارة العنف».

«لقد بدأ العنف بالفعل».

«وقد يزيده سوءًا».

«والصمت يجعله أعمى».

انضمّ جيساير إلى الاجتماع من بيت دافيون.

ولم يكن قد تكلم حتى تلك اللحظة.

قال: «انطقوا به».

فالتفتوا جميعًا إلى صورته.

استهلّت الرئيسة كلامها: «يا جيساير، علينا أن نزن...»

«أنا أوريلي. وماريا أوريليّة. والناس الراقدون في المستشفيات أوريليون. لا تحموننا بتحويلنا إلى عبارة وصفية».

«وإذا رآكم المجتمع خطرًا؟»

«فقولوا بوضوح إننا أناس يتهددهم الخطر، لا خطر يتهدد الناس».

وأطال دارين فولتر النظر إلى جيساير.

«وإن لم يكفِ ذلك؟»

«كثيرًا ما لا تكفي الحقيقة. والكذب أقلّ كفاية».

عدّل المجلس بيانه.

وقبيل منتصف الليل أطلّت كبيرة مسؤولي الصحة في إلاريون على القنوات العامة كلها.

ولم تسمِّ المرض إلا بما يصفه.

ثم سمّت الناس باسمهم.

«تُظهر المعطيات المتاحة إلى الآن أن هذا المرض المجهول يصيب، بمعدّل غير متناسب، الأوريليين وأشخاصًا تربطهم بهم صلات وراثية معيّنة».

وأتبعت ذلك بإيضاح.

عن انتقال العدوى.

وعمّا يظلّ غير مؤكّد.

وعن حظر التمييز.

وعن ضرورة الفحص العاجل والحماية.

لكنّ جُلّ الناس لم يعلق بذاكرتهم إلا الجملة الأولى.

وعلى الشاشات في أرجاء الكوكب ظهرت عيون ذهبية.

وأخيرًا نطق العالم باسم الضحايا.

وفي اللحظة نفسها، وضع عليهم علامة.

٢٨. الدائرة الذهبية وراء الزجاج

صار الزجاج المادة التي اتخذت منها الجائحة شكلها.

كان في المستشفيات.

وعلى حدود الأحياء.

وفي محطات النقل.

وبين الأطفال وآبائهم.

وبين المرضى ومن أرادوا مدّ يد العون إليهم.

كان شفافًا، ومع ذلك يفصل.

وتلك وظيفته.

في الصور القديمة التي بقيت من الأيام الأولى، كانت الوجوه تبدو ملتصقة بجدران غرف العزل. أيدٍ من الجانبين. شفاه تتحرك ولا تتلامس. ودوائر ذهبية في العيون، يزيدها الزجاج وضوحًا بما يعكسه من ضوء المستشفى.

كانت العلامة التي لا تُرى إلا حينًا بعد حين تتجلى مع الحمّى أكثر فأكثر.

لم يعرف الأطباء أهي من المرض أم مجرد استجابة من الجسم.

ولم يكن الفرق ليعني الناس في شيء.

أخذت أجهزة مسح القزحية تظهر عند مداخل المتاجر.

وكانت مهمتها المعلنة قياس الحرارة والمؤشرات الصحية الأساسية.

وفي بعض المحال الخاصة صارت تنبّه إلى العلامات الأوريلية.

كان ذلك مخالفًا للقانون.

وقال أصحاب المحال إنهم يحمون زبائنهم.

حظرت إحدى الدول هذه الأجهزة.

وسمحت بها أخرى مؤقتًا.

وتظاهرت ثالثة بأنها لا تعرف عنها شيئًا.

أربعون دولة.

وأربعون جوابًا عن خوف واحد.

في أوريولا، أتيح لإيلان الاتصال بجيساير عبر القناة الطبية.

بدا وجه الصبي أصغر مما عهده جيساير. سلبته الحمى امتلاءة الطفولة. كانت عيناه مفتوحتين، والدائرة الذهبية فيهما تسطع سطوعًا يكاد لا يكون طبيعيًا.

سأله جيساير: «أتذكرني؟»

تحرك إيلان.

إصبع واحدة.

«أمك هنا بقربك».

نظر الصبي نحو الزجاج.

«قالت لي إنك سألت عن الدائرة».

تحركت شفتا إيلان.

كان الصوت خافتًا.

«أترى؟»

انحنى جيساير ليقترب.

«ماذا؟»

«أسأل إن كانت ترى أوضح».

تذكّر حديثهما القديم.

قال: «لا. الدائرة لا».

انتظر إيلان.

«الإنسان يرى على قدر ما يجرؤ على النظر».

أطبق الصبي جفنيه.

«أنا لا أريد».

«ما الذي لا تريد أن تراه؟»

«أمّي وهي تبكي».

لم يجد جيساير جوابًا.

كانت أم إيلان واقفة في الجانب الآخر من الزجاج، تغطي فمها بيدها.

قال جيساير: «من حقك أن تخاف. لا يلزمك أن تكون شجاعًا طوال الوقت».

«وأنت تخاف؟»

«نعم».

«ممَّ؟»

نظر جيساير إلى أم الصبي.

وإلى القراءات الطبية.

وإلى وجهه المنعكس في الشاشة.

«من أن أعجز عن مساعدتك».

صمت إيلان برهة.

«إذن نحن سواء».

ارتسمت على شفتي جيساير ابتسامة واهنة.

«نعم».

قطع الطاقم الطبي الاتصال.

كان إيلان يحتاج إلى تدخّل طبي آخر.

ظل جيساير جالسًا أمام الشاشة الخالية.

يداه ممدودتان على الطاولة.

يدا آل دافيون.

اليدان اللتان روت الكتابات القديمة أنهما أسكنتا الحمّى.

وها هما تعجزان عن لمس طفل واحد.

أقبلت ماريا تحمل وعاء حساء ساخن. لم ينتبه جيساير إليها.

«كُل. أنت هنا منذ الصباح».

«سألني إيلان إن كنت سأساعده».

«وماذا قلت له؟»

«إنني سأبقى معه على الخط».

«وقد بقيت».

«لن يشفي ذلك رئتيه».

«لا. لكن أمه أخبرتني أنه بعدها سمح لهم بأن يهيئوه للعلاج».

أخذ جيساير الملعقة. ارتجفت في يده ارتجافًا حمله على وضعها من جديد.

قال: «يغضبني أن ينتظر الناس معجزة من رجل من آل دافيون. واليوم انتظرتها أنا أيضًا للحظة».

جلست ماريا إلى جواره. «سأذهب إلى أمه. حاول أن تأكل ولو قليلًا».

مات إيلان قُبيل الفجر.

لم تكن أمه إلى جانب جسده.

لكن الطاقم الطبي سمح لها بالبقاء عند الزجاج.

وحين سكتت الأجهزة، أبقت عليه ثلاث أصابع طويلًا.

علم جيساير بموته بعد دقائق.

لم يُصدر بيانًا.

ولم يتحدث عن أول طفل مات ممن عرفهم شخصيًا.

خرج فحسب إلى حديقة آل دافيون، ووقف فيها حتى أشرقت شمس إلاريون.

مات في ذلك اليوم ثمانية آلاف آخرون.

كان إيلان الوحيد الذي عرف جيساير اسمه.

ولعل هذه من أقسى خصال الكوارث الكبرى.

الأعداد تكبر.

والألم أبدًا له وجه بعينه.

سرير واحد.

أم واحدة.

يد واحدة على الزجاج.

ظهرت على الشبكات العامة صورة طفلة أوريلية وراء جدار شفّاف في مركز للحجر الصحي. كانت في العاشرة تقريبًا. قصّ أحدهم شعرها تيسيرًا لعمل الطاقم الطبي، والدائرة جليّة في عينيها.

في الجانب الآخر وقف مسعف سيليني.

وضعت الطفلة كفّها على الزجاج.

فوضع كفّه قبالة كفّها.

طافت الصورة بالكوكب.

رأى فيها قوم رمزًا للرحمة.

ورأى آخرون فيها دليلًا على وجوب إبقاء الأوريليين معزولين.

كان في وسع الصورة الواحدة أن تغذّي الحب والكراهية معًا.

يتوقف ذلك على ما يحمله المرء في نفسه قبل أن تقع عيناه عليها.

رأى أريين كورفيث الصورة.

كبّر عيني الطفلة.

الدائرة الذهبية.

العلامة نفسها التي كانت تبدو في عيني ماريا حين تغضب أو تخاف أو تستغرق في التركيز حتى تغيب عما حولها.

في كسر من الثانية انفتحت أمام عينيه عربة نقل محطمة. ضوء أبيض. أصابع أمه في راحته. وصوت المسعف: «خصائص التجدد الأوريلي».

انغلقت أبواب مركبة الإسعاف على طفل لا يعرفه. وطوال تلك السنين لم ينسَ أريين في أي جانب من الباب ظل واقفًا.

والآن يقف طفل آخر في الصورة وراء الزجاج. وفي عينيه الدائرة ذاتها. حاول أريين أن يستحضر وجه الصبي الذي نقلوه يومها، فلم يرَ إلا الطفلة المذعورة.

قال في نفسه إنه لا يعرف هذه الطفلة.

وإن صورة فرد واحد لا يصح أن تحجب غاية حضارة بأكملها.

وإن لكل تغيير عظيم ثمنًا.

ثم أغلق الصورة.

وبعد دقائق فتحها من جديد.

كانت الطفلة ما تزال حية.

وهذا أسوأ.

الموتى كفّوا عن النظر.

جاء كايل بنفسه.

لم يأذن له أرِيين بالدخول، لكن إذن الدخول القديم الذي لم يرَ يومًا حاجة إلى إلغائه كان لا يزال ساريًا.

انفتح الباب.

قال كايل: «لا بد من تسليم محفوظات الأبحاث إلى المجلس الطبي».

«سبق أن أجبتك».

«لست أحدثك الآن عن خطتك. أحدثك عن العلاج».

«لا أملك نتائج يمكنني أن أضعها بين يديك».

«لا بد ممن يستطيع أن يستخلص منها شيئًا».

«الذكاء الاصطناعي الحيوي».

«وأين هو؟»

«لم يعد في متناول يدي».

«أين النموذج يا أرِيين؟»

نظر إليه أرِيين.

«لا أستطيع أن أسلّمك ما تطلب».

ظل كايل واقفًا لا يتحرك.

«حتى هذا أضعتموه».

«رأيت في ذلك أمانًا أكثر».

«لمن؟»

لم يُجب أرِيين.

وتابع كايل: «أردتَ ألّا يرى أحد الحقيقة كاملة. والآن حتى أنت لا تراها».

«أرى النتيجة».

«أنت ترى الجثث».

أشار كايل إلى خريطة الصحة العامة.

«هذه أزمة أفلت زمامها».

«لم أدّعِ يومًا أنها ستمرّ بلا ضحايا».

«ولا تقتصر على الأوريليين».

تصلّب أريين.

«وفيات غير مباشرة. مستشفيات أنهكها العبء. أدوية ناقصة. طرق نقل مقطوعة. بشر من كل الفروع».

«سيمضي هذا».

«أمّا الأوريليون فلا؟»

«هم صلب المشكلة».

اقترب منه كايل.

«كلا. صلب المشكلة يقف أمامي».

ضيّق أريين عينيه.

«لك يد في ما فعلتُ».

«نعم».

«كنت تقف إلى جانبي».

«نعم».

«ورجالك أعانوني».

«نعم».

نطق كايل بكل اعتراف في هدوء.

دون أن يدافع عن نفسه.

«ولهذا أعرف ما جنت يداي».

«ما الذي تغيّر؟»

«حجم ما حدث».

ابتسم أرِيين بمرارة.

«فالأخلاق عندك مسألة عدد وحسب».

«لا. كل ما فعله العدد أنه حرمك أن تكذب على نفسك وتسمّي ما تفعله سياسة».

استدار أرِيين نحو صورة الطفلة وراء الزجاج.

«سيصنع جيساير من هذا أسطورة جديدة».

«ربما».

«سيلجأ الناس إليه».

«إنهم يلجؤون إليه بالفعل».

«أرأيت إذن؟»

نظر كايل إليه بشيء يشبه الشفقة.

«كنت طوال الوقت تخشى أن يبدو جيساير نبيًّا. فصنعت له بيديك مشهد القيامة».

وانصرف.

بقي أرِيين وحده.

كانت الطفلة على الشاشة تلمس الزجاج.

لم يدرِ إن كانت قد نجت.

ولم يرد أن يعرف.

في أوريولا، لم يرجع جيساير إلى الدار إلا مساء.

وجد أم إيلان تنتظره عند العتبة.

لم يكن مسموحًا لها أن تدنو منه. كانت تخضع للعزل المنزلي.

وقفا وبينهما بضعة أمتار.

قالت: «لقد تحدث إليك».

«نعم».

«كان خائفًا».

«نعم».

«هل قلت له الحقيقة؟»

«حاولت».

أومأت المرأة.

«إذن فعلت أكثر مما فعلناه جميعًا».

طأطأ جيساير رأسه.

«لا».

«لا تَسلُبني هذا».

رفع عينيه.

قالت: «أحتاج إلى أن أصدّق أنه لم يرحل وحده».

تذكّر جيساير عبارة من كتاب الأسرة.

لا تمضِ وحدك.

كان إيلان وراء زجاج.

وأمّه وراء زجاج آخر.

وهو على الشاشة.

ومع ذلك نشأ بينهم في اللحظة الأخيرة شيء لم يكن بوسع أيّ جدار أن يفصم عراه تمامًا.

قال جيسايز: «لم يرحل وحده».

هذه المرة لم يدرِ أكان ما قاله حقًّا.

لم يعرف إلا أن عليه أن يقوله.

٢٩. صوت جيساير والجسر إلى الإلار الموحّد

حين تخذل الناس لغتهم المشتركة، يبدؤون البحث عن صوت.

وحين تخذلهم لغتهم المشتركة، لا يبحثون بالضرورة عن أحكم صوت.

ولا عن أدقّ الأصوات.

بل عن صوت ينحسر معه، ولو لبرهة، إحساسهم بأن العالم يتشظى إلى تعليمات يناقض بعضها بعضًا.

كانت الهيئات الصحية تتحدث عن العزل.

والسياسيون عن الاستقرار.

والمصارف عن السيولة.

ومجالس العائلات عن حماية الأوريليين.

وأجهزة الأمن عن النظام.

كلٌّ يتقن لغة مؤسسته.

وما من أحد يتكلم لغة الخوف برمّته.

لم يكن جيساير يريد أن يتكلم.

بعد موت إيلان رفض ثلاث دعوات إلى الحديث علنًا. قال إنه لا يحق له أن يصوغ من موت طفل خطابًا. لم يرد الوقوف أمام الكاميرات وصورة راحة الصبي ملتصقة بالزجاج لا تزال ماثلة أمام عيني أمه. ولم يرد أن يصنع لنفسه من ألم غيره سلطانًا.

وجدته ماريا في قاعة الأسرة القديمة.

كان جالسًا تحت صورة آسير دافيون الذي روي عنه أنه كان يطوف من بيت إلى بيت زمن الحمّى القديمة. قال قوم إنه كان يشفي المرضى. وقال آخرون إنه كان يبقى إلى جوارهم وحسب حين يخاف جميع من عداهم أن يمسّوهم.

قالت ماريا: «يحتاج الناس إلى أن يعرفوا ما ينبغي لهم أن يفعلوه».

«لهذا عندهم الأطباء».

«قسم من الناس فقد الثقة بالأطباء».

«أفأثق بهم نيابةً عن الناس؟»

«بل قل للناس إن في وسعهم أن يثقوا بهم».

نهض جيساير.

«ولماذا أنا؟»

«لأن السياسيين حين يقولون الزموا بيوتكم، لا يسمع الناس إلا أمرًا. وحين يقول المصرفيون الزموا الهدوء، يسمعون أن ثمة من يحمي الأسواق. أمّا إذا قلتها أنت، فلعلهم يسمعون إنسانًا».

«وهذا على وجه التحديد ما قاومته عمري كله».

«ماذا قاومت؟»

«أن يجعلوا مني شيئًا لستُه».

«إذن قل لهم من أنت».

نظر إليها جيساير.

«ومن أكون؟»

«أوريليّ خائف لا يملك أن ينقذ أحدًا بلمسة».

ابتسم على الرغم من كل شيء.

«لا تبدو بداية تبعث كثيرًا من الأمل».

«إنها الحقيقة».

لم يكن أول حديث لجيساير من قاعة اجتماعات.

وقف في حديقة دار آل دافيون.

لم تكن وراءه رايات ولا شعارات دول ولا شارات عائلات. لم يكن هناك إلا الشجر والأسوار القديمة، ووادٍ توصد فيه بيوت أخرى أبوابها.

بدأ بقوله: «اسمي جيساير دافيون. أنا أوريليّ. وأنا خائف».

في غضون ساعة سرت تلك العبارة في الكوكب كله.

لا لسموّها.

بل لأنها أباحت لهم أن يقولوها.

كان الملايين خائفين، ومنذ أسابيع لا يسمعون إلا أصواتًا تتصرف كأن الخوف خلل فنيّ في إيصال المعلومة. كان جيساير أول شخصية معروفة لا تفسّر الخوف، ولا تبدّده، ولا تستره.

اعترف به.

«أخاف على من في المستشفيات. وعلى الأسر التي فرّقوها. وعلى الأطفال الذين يتأملون عيونهم ويتساءلون إن كانوا قد وُلدوا وفيها حكم عليهم. وأخاف أيضًا من أناس بدأوا، من فرط خوفهم، ينظرون إلى جيرانهم كما لو كانوا مرضًا».

وسكت قليلًا.

«لسنا مرضًا. ولسنا علامة. نحن بشر».

كانت الدائرة الذهبية ظاهرة في عينيه.

لم يُخفها.

«التزموا التدابير الصحية. لا تذهبوا حيث ينبغي ألّا تذهبوا. احموا أنفسكم وغيركم. ولكن لا تخلطوا بين الحماية والإذلال. قد يقتضي الأمر عزل المريض. أما أن تنبذوا إنسانًا لما وُلد عليه، فذلك جُبن».

خشي بعض مسؤولي الصحة أن تُضعف كلمات جيساير الانضباط.

وحدث أمر آخر.

بعد حديثه ازداد عدد الأوريليين الذين أبلغوا طوعًا عن أعراضهم.

وقلّ عدد الفارّين من المناطق المغلقة.

ووافقت أسر أكثر على نقل مرضاها إلى المستشفيات، إذ سمعت للمرة الأولى أن القبول بتدبير صحي لا يقتضي الإقرار بذنب.

وفي بعض المدن انحسر العنف.

لا في كل مكان.

فما من صوت يستطيع أن يوقف الخوف في كل إنسان.

لكنه غيّر مجراه حينًا.

واظب جيساير على مخاطبة الناس.

لم يسمِّ أحاديثه خطبًا قط.

كان يتكلم مع الناس.

مع أمّ فقدت ثلاثة من أبنائها.

ومع طبيب فيرانيّ اتهمه أبناء قومه بإعانة الأوريليين على حساب سواهم.

ومع عاملة سيلينية في خدمة الجنائز كفّت عن عدّ الأسماء إذ لم تعد تقوى على ذلك.

ومع شيخ أوريليّ قال إن الجائحة عقاب على هجر التقاليد القديمة.

فسأله جيساير: «أفتعاقب الأطفال أيضًا؟»

لم يُجب الشيخ.

«إذا لم نجد للمعاناة تفسيرًا إلا أن نجعل الله قاتل أطفال، فلعلّ الأَولى أن نكفّ عن تفسيرها».

أخذ الناس يحفظون كلمات جيساير وينسخونها ويرسلونها إلى سواهم.

وكلما أبى أن يصير أسطورة، ازداد شبهًا بها.

أصاب أريين في أمر واحد على الأقل.

لقد زادت الأزمة من سلطان جيساير الأخلاقي.

لكنه أخطأ في فهم السبب.

لم يتّبعه الناس لنَسَبه.

تبعوه لأنه تكلم عن الخوف دون أن يستغله.

وسرت مع صوته فكرة كان قد جهر بها قبل حين في نيترا.

لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ.

يومها بدت فكرة مجردة.

كانت جملة من منتدى عام، يتداولها الاقتصاديون والقانونيون والمصرفيون. وعند معظم سكان إلاريون كانت أقلّ شأنًا من ثمن الخبز أو الإيجار أو رصيد الحساب.

ومنحتها الجائحة جسدًا.

أخذت مؤن المستشفيات تنفد.

ولم تكن إلاريون تفتقر إلى القدرة على التصنيع. فالمصانع المؤتمتة قادرة على زيادة إنتاجها بسرعة، ومنشآت ثايرون قادرة على العمل بلا انقطاع، وممرّات الشحن لا تزال مفتوحة.

كانت المشكلة في إيصال المصنوع إلى حيث يُحتاج إليه.

على جدار مركز الأزمات عُرض بثّ إخباري محلي. مركبات ذاتية القيادة تحمل أجهزة تنفّس متوقفة على الحدود. وفي مستشفى الجهة الأخرى كانوا يوزّعون آخر ما بقي من أجهزة شاغرة.

قالت المراسلة: «صُنعت الأجهزة أمس. يعرف نظام النقل الطريق. لكن مركز التسوية يرفض تأكيد الدفع».

وأضاء تحت الصورة بيان السبب: «لم يُتَّفق على تغطية مخاطر سعر الصرف».

خشي المورّد أن تنخفض العملة فلا يستردّ حتى ما دفعه لقاء المواد. ورفضت الدولة تحمّل الخطر كله. أتمّ النظامان حساب المبالغ فورًا، ثم ظلّ كل منهما ينتظر التزام الطرف الآخر.

سألت المراسلة مديرة المستشفى: «متى تتابع المركبات طريقها؟»

قالت المرأة: «حين يوقّع أحد على تحمّل فرق السعر. أمّا أنا فلا أستطيع التوقيع إلا على استلام الأجهزة».

خفضت سايرا صوت البث. رأت على خريطة الأزمة بضائع جاهزة، وممرّات سالكة، وقرارًا لا يملك أيّ نظام تسوية صلاحية اتّخاذه. ولم تغيّر سرعة الآلات من ذلك شيئًا.

وبدأ الناس يسألون.

لماذا تبقى الأجهزة على الحدود وقد نفد ما في المستشفى وراءها؟

من يتحمّل ثمن الساعات الضائعة في انتظار القرار؟

راحت عبارة جيساير تظهر تحت أخبار الشحنات المحتجزة والرسوم المجهولة المنشأ والمخازن الفارغة.

لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ.

وأخذ الناس يصوغونها على طريقتهم.

إذا أوقف المالُ الدواء، فلا بد أن نرى أين توقف المال.

نشأت حلقات للنقاش ومبادرات مدنية وشبكات غير رسمية تجمع عاملين في الرعاية الصحية ومبرمجين واقتصاديين. طالب بعضهم بنشر كل المدفوعات العامة. واقترح بعضهم سجلات مفتوحة تكشف المالكين الفعليين للشركات. وأراد آخرون أن يرى كل مواطن من اطّلع على بياناته المالية ومتى.

كانت نيراي تتعرف في تلك الاقتراحات إلى كلماتها هي.

ما عادت تنتشر باسمها.

ولا باسم جيساير.

توزّعها الناس وبدأت تحيا حياتها الخاصة.

لم تكتسب فكرة الشفافية رواجها لأن أهل إلاريون أصبحوا فجأة أسمى خُلُقًا.

اكتسبته لأن غياب الشفافية أخذ يؤلم.

في ذلك الحين كان قد مضى على تأسيس شركة «الجسر» بضع سنوات.

وقبل الجائحة قلّ من عرف بها.

أسّستها ليرا فاين مع مبرمجَين لأنظمة الدفع، ومحلّلة مصرفية سابقة، وخبير في السجلات المشفّرة، وقانونية سبق لها العمل على قواعد التسوية عبر الحدود.

لم يُرِدْ أحد منهم ابتداءً أن يستحدث عملة جديدة.

كل ما أرادوه هو تيسير الدفع بين دول إلاريون، وبين إلاريون وثايرون.

كانت الدفعة المعتادة العابرة للحدود تمرّ بعدة مصارف. ولا يعرف كل مصرف منها إلا حِصّته من الطريق. ويرى المستخدم المبلغ الذي أرسله، وربما لم يعرف بالدقة كم سيصل إلى المستفيد في نهاية المطاف.

أُريد للجسر أن يكون طبقة تترجم بين الأنظمة.

فيرى المرء الكلفة النهائية قبل أن يؤكّد الدفع.

ويرى سعر الصرف.

والرسوم.

وموعد الوصول.

وكم سيقبض المستفيد أيضًا.

لكن النقاش العام الدائر حول الشفافية بدأ يغيّر المشروع قبل الجائحة.

تابعت ليرا حديث جيساير في نيترا. وقرأت بعد ذلك تعليقًا تحليليًا لنيراي سايل كتبت فيه أن القوة المالية يجب أن تكون مرئية، وأن يكون كل من يراقبها مرئيًا بدوره.

وأعاد فريق الجسر تصميم النظام كلّه على مراحل.

لكل دفعة سجل لا يُمحى.

دون أن تكون المشتريات الشخصية جميعها سجلًا مكشوفًا للعموم.

ففي ذلك قضاء على خصوصية الإنسان العادي.

وما يُفصح عنه للجميع هو قواعد النظام، واحتياطيات الشركة، والتدفقات الكبيرة، وروابط الملكية، والمعاملات التي يتجاوز حجمها عتبة النفوذ في المجتمع.

أمّا المدفوعات الخاصة فظلّت خاصة.

ومع كل اطّلاع على بياناته، كان المستخدم يرى من فتحها ومتى وبأيّ سند من الصلاحية.

فإذا احتجز مصرف دفعة، وجب عليه بيان السبب.

وإذا رفع نظام آلي إشارة تنبيه بشأنها، وجب أن تُعرف القاعدة التي طبّقها.

وإذا أُعفي أحد من الإفصاح، سجّل النظام من منحه الإعفاء ومتى تنقضي مدّته.

ولا تنفرد حكومة واحدة بالسيطرة على الشبكة كلها.

كان البروتوكول مفتوحًا.

وتتحقق من السجلات عُقَد مستقلة متعددة، تديرها مصارف وجامعات وجمعيات أهلية ومؤسسات تدقيق في دول مختلفة.

وللجسر مجلس رقابة خاص به، لكنه لا يملك أن يغيّر تاريخ المدفوعات بأثر رجعي، ولا أن يمحو أثر قرار اتّخذه.

وكانت ليرا تشرح تصوّرها بكلمات بسيطة:

«لا نريد أن نبني عينًا ترى الجميع ولا يراها أحد».

وكان المستثمرون يجيبونها بأن الناس لا يريدون الفلسفة.

بل يريدون الراحة.

وزعمت المصارف أن كشف الاحتياطيات والرسوم وروابط الملكية يضرّ بالأسرار التجارية.

وحذّرت الجهات الناظمة من أن توحي شركة خاصة بأنها بنية الكوكب المالية التحتية.

ولهذا ظلّ الجسر صغيرًا زمنًا طويلًا.

استعملته شركات تقنية، وبضعة تجّار على ثايرون، وجماعات اعتادت إرسال المال من دولة إلى أخرى.

نجح النظام في عمله، ولم يكن ثمة ما يدفعه إلى النمو.

ثم جاءت الجائحة.

لم تكن الحكومات ولا المستشفيات الكبرى أول المستخدمين الجدد.

كانوا المتطوعين.

راحت جماعة أهلية تجمع المال لشراء مرشّحات وقاية لمستشفيات المناطق الأوريلية المغلقة. ووصلتها تبرّعات من سبع دول بستّ عملات.

لو اتّبعوا المسار المعتاد، للزمهم فتح عدة حسابات، وتبديل المال مرارًا، وانتظار تأكيدات المصارف الوسيطة.

أمّا عبر الجسر فأمكنهم تلقّي المدفوعات كلها في رصيد واحد.

وكان النظام يعبّر عن الرصيد بالإلار.

لم يكن الإلار في الأصل عملة قائمة بذاتها.

كان وحدة شبكة الجسر، قوامُها سلّة معلنة التكوين تجمع الطاقة والمواد الخام وأهم عملات إلاريون. ولا تتبدّل قيمته بقرار دولة واحدة أو مصرف مركزي واحد.

وكان الجسر يحتفظ مقابل كل إلار باحتياطي من العملات القائمة وأصول سائلة قصيرة الأجل.

وكان تكوين الاحتياطي معلنًا.

وبوسع أيّ إنسان أن يتحقق أن كمية الإلار المتداولة تطابق غطاءً فعليًا.

يرى المتطوّع مئة إلار.

ويستطيع المتبرّع الدفع بعملة بلده.

ولصانع المرشحات أن يقبض بعملته أو يستبقي الإلار.

هي في نظر المستخدم دفعة واحدة.

ظلّت عدّة أنظمة مالية تلتقي في الخلفية، لكن الواقف عند الصندوق لم يعد يتحمل عبء تعقيدها.

اكتملت حملة التبرعات الأولى في بضع ساعات.

ورأى كل متبرّع كم إلارًا وصل.

ورأى الإجمالي.

ورأى طلبية المرشّحات.

ورأى اسم الصانع والسعر والرسم وإقرار التسليم.

أمّا أسماء المرضى وتبرّعات الآخرين الشخصية الصغيرة فلم يرها.

ما كان ظاهرًا هو المسار الذي سلكه مال الجماعة.

انتشر خبر الحملة.

واستخدمت منظمة أخرى الجسر لشراء الأدوية من ثايرون.

ثم استعانت به مجموعة من الأطباء لتأمين السكن للعاملين في الرعاية الصحية القادمين من الخارج.

ثم مستشفى صغير عجز عن الدفع لمورّده بالعملة المطلوبة.

كان الجسر يجد سبيله أول الأمر إلى المواضع التي تخذل فيها النظم المعتادة أصحابها.

لا لأن الناس وثقوا به أكثر من المصارف.

بل لأنه أظهر لهم ما لم تُظهره المصارف.

كم تكلّف الدفعة.

وأي طريق تسلك.

ومتى تصل.

وكم يقبض المستفيد.

ومن أوقفها إن توقفت.

تأخرت ذات يوم شحنة من بزّات الوقاية، فأبان السجل المفتوح أن البائع لم يحجز الدفعة ولا الناقل فعل ذلك. أوقفها مصرف وسيط طلب شهادة إضافية تثبت مصدر المال.

لم يكن بوسع المصرف أن يدّعي أن الخلل من مكان آخر.

كان لقراره اسم ووقت وسبب.

واستكمل الوثيقة في غضون ساعة.

وتابعت الدفعة طريقها.

وفي صفقة أخرى تبيّن أن المورّد رفع السعر قُبيل تأكيد الطلبية. وزعم أن سعر صرف عملته قد تغيّر.

وأظهر سجل الجسر أن سعر الصرف لم يكد يتحرك.

فأعاد المورّد السعر كما كان.

لا لأنه غدا أكثر أمانة.

بل لأن تفسيره كان قابلًا للتحقق.

وانضمّت إلى الشبكة بالتدريج مؤسسات أكبر.

الصناديق الخيرية أولًا.

ثم شبكات المستشفيات الإقليمية.

ثم الصنّاع الذين لم يريدوا إدارة حسابات بعشرات العملات.

وكان من مصلحة التاجر أن يستطيع إعلان سعر واحد بالإلار، ثم يختار أن يتقاضاه بالإلار أو بالعملة المحلية.

ومن مصلحة المستشفى أن يقارن بين أسعار المورّدين دون أن يظلّ يجري حسابات الصرف.

وكان يهمّ المتبرّعين أن يروا أين ذهب المال الذي جمعوه.

أمّا مديرو المستشفيات فضايقهم أن تظل قراراتهم مسجّلة.

وهذا بالذات ما زاد ثقة الآخرين.

حاولت بعض الدول حظر الجسر.

ورأت أن شركة خاصة لا يحق لها أن تنشئ وحدة أخذت تنافس العملة الوطنية.

لكن الحظر اصطدم بصعوبة عملية.

فالجسر لا يطلب من الدول أن تتخلى عن عملاتها.

وما زال بوسع التاجر قبض الثمن بعملة بلده.

وظلّت الضرائب تُدفع وفق القوانين المحلية.

وظلّت المصارف مشتركة في التسوية.

وكل ما فعله الجسر أنه أتاح للمستخدمين الاحتفاظ بقيمة مشتركة واحدة وإرسالها، وأظهر للعيان ما يجري لها.

وحين حجبت إحدى الدول الجسر، نبّهت المستشفيات إلى أنها تشتري بعض إمداداتها الأجنبية عبر الشبكة.

ونشرت الهيئات التطوعية مقارنة.

استغرق التحويل المعتاد يومين وفقد أربعة في المئة من قيمته.

أمّا الدفعة عبر الجسر فوصلت في ثوانٍ، وكانت تكلفتها كاملة معلومة سلفًا.

بعد ثلاثة أيام عُدّل الحظر ليمنح المعاملات الطبية استثناءً مؤقتًا.

ونشأت استثناءات مشابهة في أماكن أخرى.

لم تُقَرّ بوصفها إصلاحًا نقديًّا.

بل أُقرّت بوصفها تدابير أزمة.

أتاح أحد الاستثناءات للمستشفيات قبول الإلار.

وأتاح آخر لشركات التأمين أن تسدّد عبر الجسر تكلفة خدمات أُدّيت وراء الحدود.

وسمح غيره للصناديق العامة بأن تنشر على الشبكة تفاصيل توزيع المعونة.

لم يقرّر أحد أن يصبح الإلار عملة الكوكب.

لم يكن يُبتّ إلا في حالات عملية مفردة.

وكل حالة منها أزالت عقبة.

لم يتحدث جيساير عن الجسر للمرة الأولى إلا بعدما صار مستخدموه بالملايين.

لم يرد أن يغدو اسمه دعاية لشركة خاصة. لكنه كان يرى أيضًا أن النظام يحقق جانبًا كبيرًا مما قاله في نيترا.

قال في أحد أحاديثه: «لا أعرف إن كانت شركة واحدة تصلح جوابًا عن مشكلة كوكب بأسره. كل سلطة تحتاج إلى قوة توازنها، حتى السلطة التي تعلن أنها شفافة».

ثم نظر مباشرة في عين الكاميرا.

«لكن تأملوا لماذا يستخدم الناس الجسر. إنهم لا يتوقون إلى مصرف آخر. إنهم يستخدمونه لأنهم يرون السعر والقواعد والرسوم والقرارات. وحين يوقف أحد دفعتهم، لا يخلّف وراءه الصمت وحده».

وصمت لحظة.

«حين نكون أصحّاء، ندع القيمة تمضي في الظلّ ونسمّي ذلك راحة. أمّا الآن، وكل جهاز يعني نَفَسًا، وكل شحنة تعني وقتًا، فنريد أن نرى أين توقفت القيمة. ولعلّ هذا ما كان ينبغي أن نريده دائمًا».

وعاد عدد مستخدمي الجسر يرتفع.

لكن كلمات جيساير لم تكن وحدها السبب.

صار للنظام برهانه الخاص.

شحنات وصلت أبكر.

وتبرعات لم يضع مالها.

ومستشفيات تُجري مشترياتها بوحدة واحدة.

ومورّدون قبضوا مستحقاتهم من دون انتظار أيام.

وحين أخذت مطابخ المستشفيات تستعمل الجسر، انضمّ إليها مورّدو الأغذية.

وحين انضمّ المورّدون، بدأ موظفوهم يقبلون الإلار.

ولمّا تقاضى العاملون في الرعاية الصحية جزءًا من مكافآت الأزمة بالإلار، راحوا يسألون أين يمكنهم إنفاقه.

وكانت المتاجر المجاورة للمستشفيات أول من قبله.

ثم شركات النقل.

ودور الإقامة.

والصيدليات.

ما عاد صغار التجار يحتاجون إلى حساب بكل عملة. كفاهم الاتصال بالجسر. يعرض التاجر سعره بالعملة المحلية وبالإلار، ويسوّي النظام عائداته تلقائيًا وفق اختياره.

في البداية كان معظم التجار يحوّلون الإلارات التي يقبضونها فورًا.

ثم صاروا يستبقون بعضها.

فقد عرفوا أنهم سينفقونها في مشترياتهم المقبلة من الخارج.

وهكذا لم يعد الإلار يمرّ في النظام مرورًا وحسب.

بل أخذ يدور فيه.

وظلّ بإمكان المرء ادّخار العملة المحلية.

وقبض أجره بها.

ودفع ضرائبه بها.

لكنه إذا سافر إلى دولة أخرى لم يعد مضطرًّا إلى تبديل المال.

يفتح الجسر.

فيرى الرصيد نفسه.

ويدفع بالإلار.

ويقبض التاجر إلارًا أو عملته المحلية.

جرى الدفع على هذا الوجه في نيترا وفي سارور وتحت قباب ثايرون.

لم يكن الإلار في حكم القانون بعدُ عملة إلاريون الوحيدة.

لم تكن الدول تصدره.

ولا المصارف المركزية تديره.

وظلّت حكومات كثيرة تسمّيه مجرد وحدة دفع تابعة لشبكة خاصة.

لكن الفرق أخذ يفقد معناه شيئًا فشيئًا عند من يقف أمام الصندوق.

سعر واحد أمامه.

ورصيد واحد.

ودفعة واحدة.

وخلافًا لما عرفه في الأنظمة القديمة، كان يرى القواعد التي انتقل بموجبها ماله منه إلى إنسان آخر.

ونما الجسر أيضًا لأنه لم يدّعِ الكمال.

نشر مؤسسوه هيكل ملكية الشركة.

وأسماء المستثمرين.

ومقدار حصصهم.

والعقود المبرمة مع المصارف.

وتكوين الاحتياطيات التي تغطّي الإلار.

ومكافآت أعضاء الإدارة.

وكل تغيير مسّ قواعد احتساب الرسوم وقيمة سلّة الاحتياطي.

وحين حاول صندوق مجهول المالك الفعلي الانضمام إلى الشبكة، رفضه الجسر.

ورفع الصندوق دعوى تمييز.

ونشر الجسر سبب القرار.

لم يرفض الصندوق لثرائه.

رفضه لتعذّر معرفة من يكتسب النفوذ من خلاله.

وتابع الكوكب كله هذا النزاع.

كان عند كثيرين أول مثال ملموس على الفرق بين الخصوصية والسلطة المستترة.

فبوسع المرء العادي أن يدفع ثمن دواء دون أن يعرف العالم كله اسمه.

أمّا الصندوق الذي يشتري المستشفيات فلا يستطيع أن يخفي مالكه وراء أربع عشرة شركة.

وهكذا خرجت أفكار جيساير ونيراي من حيّز الكلمات.

واتخذت صورة نظام.

كلّ اطّلاع يترك أثرًا.

وكل قوة مالية كبرى لها مالك فعلي.

وكل استثناء له مانح وموعد لانقضائه.

تبقى المدفوعات الشخصية الصغيرة خاصة.

وتبدو للعيان التدفقات الكبرى المؤثرة في حياة الآخرين.

والقواعد مكشوفة للجميع.

ومشغّل الشبكة لا يستطيع مراقبة الآخرين من دون أن يخضع هو للرقابة.

وأخذ الناس يألفون هذا الوضوح.

في شؤون الجائحة أول الأمر.

ثم في الغذاء.

والطاقة.

والنقل.

وجمع التبرعات الخيرية.

والمشتريات بين إلاريون وثايرون.

ثم راحوا يتساءلون شيئًا فشيئًا لماذا لا تسري قواعد كهذه على المصارف القديمة.

لماذا تستطيع الدولة أن تُظهر كل مورد دخل لهم، وتعجز عن إظهار المستفيد النهائي من عقد عام.

ولماذا يستطيع الجسر نشر احتياطياته كل يوم، فيما لا تكشف المصارف المركزية بعض قراراتها إلا بعد شهور.

ولماذا يرون الرسم كاملًا مقدّمًا حين يدفعون بالإلار، فيما لا يتبيّن شطر من كلفة التحويل التقليدي إلا عند وصوله إلى المستفيد.

لم تعد الشفافية مطلبًا أخلاقيًّا فحسب.

صارت تجربة يعيشها المستخدم.

راقب كايل ثورن نموّ الجسر من مكتبه، وجميع نوافذه مضبوطة على وضع التعتيم.

لم يظهر لفيستا بعدُ أثر في النظام.

ظلّ المال القديم يتحرك في الخفاء. ولم يرَ الجسر إلا القيمة التي مرّت في شبكته.

غير أن الناس كانوا يعتادون أمرًا أخطر على كايل من التحقيق.

المقارنة.

من رأى الرسم كاملًا مرّة أخذ يسأل لماذا لا يراه في مكان آخر.

ومن عرف المالك الفعلي مرة ارتاب في الشركات التي تستره.

ومن دفع مرة بالوحدة ذاتها في كل دولة أخذ يسأل لأيّ شيء يحتاج إلى ثلاثين عملة.

كان يمكن للتحقيق أن يتباطأ.

وللجان أن تعجز عن إنجاز ما أمامها.

وللمحاكم أن يطول بها النظر.

وللسياسيين أن يؤثروا الانتظار.

أمّا ما اعتاده الناس فلم يكن التراجع عنه بهذه السهولة.

ولو بقي الجسر أداة في يد العاملين في مجال الصحة والمتطوعين وحدهم، لربما اندثر بعد الجائحة.

لكنه لم يعد كذلك.

استخدمته الأسر.

والتجار.

والصنّاع.

والناقلون.

والعاملون على ثايرون.

وأناس لم يقرؤوا قط كلمة جيساير، ولم يسمعوا باسم نيراي سايل.

لم يستعملوا الإلار لأنه يجسّد فلسفة الشفافية.

استعملوه لأنه أدّى الغرض.

ولم يدركوا إلا فيما بعد أن علة نجاحه بالذات أنه أظهر للعيان جانبًا كبيرًا مما أخفته الأنظمة القديمة.

فهم كايل أن أرييين لم يُطلق كارثة وحسب.

بل هيّأ المناخ الذي أمكن فيه لفكرة جيساير أن تصبح أداة يومية.

أرى الناس ثمن الظلمة.

وحملهم على تجربة نظام كانوا ليرفضوه في زمن أهدأ لفرط جرأته، أو شدة انفتاحه، أو عظم خطره على النظام القديم.

قد يحاول المرء أحيانًا أن يدمّر المستقبل، فيُزيل بمحاولته تلك كل ما كان يحول دون مولده.

٣٠. الثلث

في البدء كانوا يعدّون الإصابات.

ثم الأسرّة.

ثم أجهزة الأكسجين ومخزون الأدوية وغرف العزل الشاغرة، ومن بقي من الناس قادرًا على العمل.

وفي النهاية بقي الموتى.

ما داموا قلّةً، أُحصوا بأعداد دقيقة.

سبعمئة واثنان وأربعون.

أحد عشر ألفًا وتسعمئة وثمانية.

مليونان وأربعمئة ألف.

كان لكل عدد بعدُ أن يوهم العقل البشري بأنه يُحصي بشرًا.

ثم جاءت عشرات الملايين.

فمئات الملايين.

وصارت الأجساد منحنى.

يصعد.

يهبط.

يتسارع.

ينزاح شمالًا.

بلغ فاسيريا.

وسيبلغ ثايرون.

لا يطيق العقل البشري حمل مليار ميتة منفردة.

إذ يلزمه أن يتخيّل مليار سرير.

ومليار نَفَس أخير.

ومليار باب بقي وراءه إنسان واقفًا ينتظر من لن يعود.

ومليار إناء عند السرير لم يُشرَب ما فيه إلى آخره.

ومليار جملة كان لكلامها بقية في الصباح.

فحوّلها لهذا إلى عدد.

والعدد إلى خطّ.

فاضت الجائحة من أوريولا إلى دول إلاريون كلّها.

ولكن على غير سوية.

كسبت الأقاليم التي أتاحت لأنظمتها الصحية تبادل البيانات بضعة أيام. عرف الأطباء أين بقيت المؤن، ورأوا نتائج العلاج في مستشفيات تقع على الطرف الآخر من الكوكب. وقارنت الخوارزميات بين مسارات المرض عند الملايين من دون أن تعرف أسماء أصحابها.

وفهم الأطباء بالتدريج لماذا لا يكفيهم الحساب. كان حال كثيرين يتدهور بسرعة، وما إن ينجح الأطباء في تثبيت حالة المريض حتى تتأذّى أعضاؤه من جديد. لم يترك لهم الإنذار أحيانًا إلا ساعاتٍ قبل أن تخفق الدورة الدموية إخفاقًا لا رجعة منه، فيما احتاج العلاج التجديدي إلى مريض استقرّت حالته وإلى أيام. منحت البيانات المشتركة بعضهم متّسعًا من الوقت، ولم تردّ إلى أحد ما فاته منه.

حجبت عدة دول بياناتها.

تحدثت عن السيادة.

وعن حماية المواطنين.

وعن خطر أن تظلّ البنية التحتية للطوارئ بعد الجائحة في يد الاتحاد.

وكان لبعض تلك المخاوف ما يسوّغها.

أمّا المرض فما عنى له السند القانوني الذي استند إليه الإنسان ليحجب عنه البيانات شيئًا.

وفي تلك البلدان تنقّل في الظلام أيامًا أخرى.

وبضعة أيام في زمن الثلث دهر كامل.

وفي ثايرون ظهرت الإصابات الأولى في القباب المتصلة بشبكة الإمداد المدارية.

فأغلق المديرون ممرات النقل على الفور.

إلا أن ثايرون كان عالمًا لا يقوم إلا على عهد متصل بين الإنسان والآلة.

فالقباب تحتاج إلى الماء.

والمواد الخام الحيوية.

وقطع الغيار.

وخلايا الطاقة.

والمرشّحات.

والمركّبات الكيميائية.

وكل طريق أغلقوها في وجه المرض كانت هي نفسها طريقًا يأتي عليها شيء من ضرورات الحياة.

في إلاريون كان للقرية أن تنسى أمر الدولة وتحيا بضعة أيام.

أمّا في ثايرون فلم يكن في الوسع نسيان مضخّة واحدة.

ولهذا أخذوا هناك بإلار الطوارئ أسرع مما فعل أهل الكوكب الأم.

صار لكل شحنة قيد علني.

ولكل قرار صاحبه.

ولكل رفض مسوّغه.

واعترض مديرو القباب أول الأمر، وقالوا إن النظام يكشف المخزونات الاستراتيجية.

ثم تبيّن أن أحد المديرين حوّل المياه إلى قطاع سكني خاص تسكنه أسرته وأناس على صلة بمجلسه.

كان السجل ظاهرًا لكل عين.

فخفتت الاعتراضات.

وفي إلاريون لم تكن شبكة الرعاية الصحية وحدها هي التي بدأت تتداعى.

بل تهاوت معها الطريقة القديمة لقياس القيمة.

لا في انهيار واحد مدوٍّ.

بل في آلاف الإخفاقات الصغيرة.

تراجعت سريعًا عملات الدول التي كثر فيها الأوريليون. وسبقت الأسواقُ المستشفياتِ إلى إحصاء موتى المستقبل، متوقّعة تراجع الإنتاج ونقص الإيرادات الضريبية وعجز الميزانيات وارتفاع التكاليف.

ضعف العملة رفع ثمن الأدوية المستوردة.

وغلاء الأدوية زاد من مديونية الدولة.

وتزايد الديون زاد العملة ضعفًا.

كلما كثر من يموتون احتاج إنقاذ الناس إلى مال أكثر.

وكلما زادت الحاجة إلى المال، قلّت قيمته.

كشفت الطبقة المفتوحة لإدارة الأزمة، شيئًا فشيئًا، من رفض شحنة، ومن غيّر سعرًا، ومن كان يملك تحرير احتياطي يغطي فرق الصرف. ورأى الناس أثر كل قرار في المستشفى المنتظر إمداداته. لم تَزُل الخلافات، لكنها لم تعد تختبئ وراء عبارة مجهولة الفاعل تبيّن حالة الدفعة.

لم يكن الوضوح قادرًا على صنع دواء لم يكتشفه أحد بعد.

ولا أعاد العاملين في الصحة.

ولا ولّد الأكسجين في خزان فارغ.

ولا حوّل الناس إلى كائنات بريئة من الجشع والخوف والأنانية.

لكنه أزاح جملة احتمى بها الأفراد والشركات والحكومات قرونًا.

لم نكن نعلم.

بعد الشهر الأول اتسع استخدام الإلار ليشمل غير المعدات الطبية.

سدّدوا به أولًا ثمن الطاقة للمستشفيات.

ثم ثمن الطعام للأقاليم المغلقة.

ثم تكلفة نقل العاملين.

ثم المواد الخام الحيوية.

واحتجّت المجالس النقدية.

ووقف دارين فولتر يخاطب الجمعية المشتركة.

كان أشدّ شحوبًا منه قبل بضعة أسابيع. وأسرته أيضًا صار لها موتاها.

قال: «نحن نحوّل وسيلة للتسوية في الطوارئ إلى عملة. بلا مصرف مركزي. بلا تفويض. بلا اتفاق على استقرار الأقاليم. نفعل هذا في غمرة الخوف، والناس يرضون بأي شيء تقريبًا إذا حمل اسم الإنقاذ».

كانت نيراي جالسة قبالته.

«ولهذا نُظهر كل قاعدة للعيان».

هزّ فولتر رأسه.

«الوضوح لا يساوي الشرعية».

أجابت: «صحيح. ولكن إذا غاب عنّا من يغيّر القواعد، لم نستطع حتى أن نحكم على شرعيتها».

«القيمة الموحّدة قد تقضي على الأقاليم الأضعف».

فتحت نيراي ثلاثة سجلّات.

ثلاث شحنات.

ثلاث دفعات توقّفت في حسابات تحويل العملات.

«وتعدّد القيم يقضي عليها اليوم».

«هذا كلام خطب».

ونقلت البيانات إلى الشاشة المشتركة.

«هذه حسابات».

ظلّ فولتر ينظر إليها طويلًا.

لم تتبدّد اعتراضاته.

ولا كان ينبغي لها أن تتبدّد.

كانت نيراي تدرك أن عالمًا تنقشع فيه كل معارضة أمام الحجة الصائبة سيكون في خطورة العالم الذي أرادت تغييره.

وسأل فولتر: «من سيتولى أمر الإلار بعد الجائحة؟»

صمتت نيراي برهة.

«لعلّه لا أحد».

«ليس ثمة شيء اسمه لا أحد».

استوقفتها العبارة.

كانت حقًّا.

يظلّ وراء كل نظام إنسان.

أو جماعة من الناس.

أو قاعدة كتبها إنسان ذات يوم.

قالت: «إذن علينا أن نبنيه بحيث لا يستطيع إنسان واحد أن يتملّكه».

فتحت سايرا المقترح.

عُقَد موزّعة بين الدول.

وحساب علني للقيمة.

وسجلّ كامل للتغييرات.

لا تعديل خفيّ لسعر الصرف.

وإمكان تتبّع كل اطّلاع.

وصلاحيات موزّعة.

ورقابة عامة على قرارات المجالس النقدية.

نموذج للطوارئ.

ناقص.

يولد بين الموتى.

ومع ذلك كان يتشكّل في أساسه شيء لم تعهده إلاريون من قبل.

قيمة لا تضطر إلى السير في الظلام.

وسلطة بدأت تعتاد ذلك الشعور المزعج بأن أحدًا يراها.

وفي الأثناء واظب جيساير على أحاديثه.

رأت ماريا التعب فيه قبل أن يُقرّ به هو.

بعد أحد اللقاءات ظلّ واقفًا أمام الشاشة المطفأة.

بلا حراك.

«جيسايرا؟»

التفت إليها كأنه يعود من مكان سحيق.

«ما بك؟»

«أنا التي أسألك».

«إنما أنا متعب».

«عليك أن ترتاح».

«إني أرتاح».

«ومتى؟»

ابتسم.

«ما بين كارثتين».

لم تبتسم ماريا.

كانت تمطر في الخارج.

انساب المطر على نوافذ دار آل دافيون العالية، وانكسرت أضواء الوادي في القطرات خيوطًا طويلة رفيعة.

«تعال معي إلى نيترا».

نظر جيسايرا إلى الخارج.

«والناس هنا؟»

«سيبقون على اتصال بك».

«كان إيلان على اتصال بي».

صمتت ماريا.

وخفض جيساير عينيه في الحال.

«سامحيني».

«لا داعي».

«ما كان ينبغي أن أقول ذلك».

«لكنك تفكّر فيه».

أومأ.

«ثمة فرق بين الإنسان وصورته».

«وماذا لو أن حضورك بينهم يقتلك؟»

استغرق ردّه هذه المرّة وقتًا طويلًا.

«فلعلّي إذن أخطأت الاختيار».

حدّقت ماريا فيه.

«ولن يبقى لك يومئذ من تقول له هذا».

ودنت منه.

«لا أطلب منك أن تكفّ عن المساعدة. كل ما أطلبه ألّا تظنّ أن حبّ الناس يلزمك بالموت في سبيلهم».

لزم جيساير الصمت.

«فماذا تريدين مني؟»

«أن تبقى».

«أين؟»

نظرت ماريا في عينيه.

«معي».

صغر العالم في تلك اللحظة.

غابت المجالس السياسية.

والعائلات العريقة.

والجائحة.

وغاب كوكب ينتظر العبارة التالية من رجل كان يستأثر به شيئًا فشيئًا ليتخذ منه رمزًا.

لم يبقَ إلا امرأة تركت ذات مرة رجلًا قادرًا على تحويل الحب إلى تملّك.

وهي الآن تخشى أن تخسر رجلًا آخر لأنه حوّل الحب إلى واجب تجاه الجميع.

وضع جيساير يده على معصمها.

«أنا هنا».

فأمسكته ماريا بثلاث أصابع.

وللحظة صمت كلاهما.

صدرت عنها الإشارة في عفوية.

في عفوية بدت مألوفة أكثر مما ينبغي.

ونفذ في جيساير ألم غريب.

لا صورة.

ولا كلمة.

مجرد شعور بشيء كان ينبغي أن يجده في ذاكرته، ولم يكن فيها.

ثلاث أصابع.

ضوء آخر.

غبار.

يد امرأة.

وحزن على إنسان لم يفقده يومًا في هذه الحياة.

أفلتته ماريا.

«ماذا حدث؟»

«لا أدري».

هذه المرة قال الحقيقة.

كان قد تذكّر شيئًا لم يَعِشْه بعد.

في ذلك المساء ظهرت تقديرات جديدة في مركز الأزمات.

رفضت سايرا نشرها أول الأمر.

كانت البيانات ناقصة.

ظلّت بعض الدول تتأخر في الإبلاغ عن الإصابات. ومن الأقاليم التي انهارت فيها الرعاية الصحية لم يكد يرد أي رقم يُركن إليه.

أعادوا حسابات النموذج.

ثم أعادوها مرّة أخرى.

غيّروا المعطيات.

ومعدّل الوفيات المفترض.

والقدرة الاستيعابية للمستشفيات.

وسرعة تطوير العلاج.

وكل طريق أخذت تدنو من الرقم نفسه.

ظلّت نيراي تنظر إليه.

٣٣٫١٪.

«من رآه حتى الآن؟»

«فريق التحليل».

«والقيادة السياسية؟»

ترددت سايرا.

«تلقّت تقديرًا أوسع نطاقًا».

«لماذا؟»

«لأن هامش عدم اليقين واسع جدًّا».

«أيمكن أن تكون النتيجة أقلّ؟»

«نعم».

«وأعلى؟»

لم تُجب سايرا.

ظلّ الحساب مضيئًا على الشاشة.

ما يقارب ثلاثة مليارات ضحية في المجموع.

الفرع الأوريلي كلّه تقريبًا.

ومئات الملايين من الفروع الأخرى.

قالت نيراي: «علينا أن ننشره».

«إذا قلنا الثلث فسنثير الذعر».

«وإذا سكتنا، فستتهيّأ الدول لفقد العُشر».

«إنه مجرّد تقدير».

«فلنقل إنه تقدير».

وردت الكلمة أول مرة في وثيقة داخلية.

الثلث.

وتسرّبت الوثيقة في الليلة نفسها.

ولم يُعرف قطّ عمّن تسرّبت.

بحلول الصباح عرف الكوكب كله الكلمة.

رأت نيراي أول أثر للتسريب في عنوان على قناة ليلية: «قد يموت ثلث السكان». عرضت المذيعة نطاق عدم اليقين، ولم تكتفِ بأعلى المنحنيات. وكرّرت: «هذا تقدير للحصيلة الكلّية للضحايا. ولا يقول إن هؤلاء ماتوا بالفعل».

وفي اللقطة التالية ناشد حاكم إحدى الدول الناس أن يهدؤوا. فردّت طبيبة من أوريولا بأن الهدوء يحتاج هو أيضًا إلى إمدادات وبيانات مفتوحة. وكانت تظهر تحت الصورة رسائل أناس يبحثون عن ذويهم.

ظلّت نيراي أمام الشاشة حتى انتقلت المذيعة إلى موضوع آخر. هكذا غدا حساب داخلي عبارة يتعيّن على الأسر أن تنطق بها حول مائدة العشاء.

لم تجرِ الكلمة على الألسنة جريان اسم المرض.

كانت اسمًا للمستقبل.

إذا جاء الثلث.

قبل الثلث.

بعد الثلث.

كأنّ حدًّا قائمًا من الآن سيفصِل بين من ستمتدّ بهم الحياة ومن لن يبقى منهم إلا صيغة الماضي.

اندلعت اضطرابات في بعض المدن.

واقتحم الناس المستودعات.

وأفرغوا حساباتهم.

وفرّوا من المدن وهم لا يعرفون إلى أين.

وفي أماكن أخرى اصطفّ المتطوّعون.

وسلّم المسنّون أجهزة الأكسجين لمن يصغرونهم.

وفتح أصحاب الفنادق غرفهم للعاملين في الرعاية الصحية.

واتّصل بعضُ أفراد الأسر ببعض بعد قطيعة دامت سنين.

كان أناس يوصدون الأبواب.

وأناس يفتحونها للمرة الأولى.

لا تكشف الكارثة للإنسان وجهًا حقيقيًا وحيدًا.

بل تكشف وجوهًا كثيرة استطاعت حتى ذلك الحين أن تغفو فيه مطمئنّة.

بعد الشهر الثاني تجاوز عدد الموتى مليارًا.

وبعد الثالث مليارين.

أخذت المدن الأوريلية تفرغ.

وبيوت الأُسر التي صمدت في وجه الحروب والحرائق وزوال الدول غدت بلا وَرَثة.

مات رجال إحدى العائلات جميعًا.

وكان الأرشيف يتتبّع نسبهم منذ أكثر من ألف سنة.

أدخلت الموظّفة بيانات آخرهم.

وأكمل النظام خانة الحالة آليًّا:

انقطع النسل.

ظلّت المرأة تنظر إلى هاتين الكلمتين.

أمضت أسابيع بأسرها تعالج تقارير تُحصي الموتى بالملايين.

لم تبكِ.

وبكت أمام خانة واحدة.

خاطب جيساير أهل الكوكب للمرة الأخيرة في اليوم الذي ظهرت فيه حمّاه.

كانت ماريا تقف خارج إطار الصورة.

وقد بدا لها شاحبًا حتى قبل البثّ.

نظر جيساير في عين الكاميرا.

«حين يكبر عدد الموتى نأخذ في تصغيرهم داخلنا. هكذا ندافع عن أنفسنا. وإلا ما أطقنا ذلك».

وسكت.

«لكن الإنسان لا يصغر لمجرّد أنه أصبح واحدًا من مليار».

واتّكأ لحظة على الطاولة.

خطت ماريا نحوه خطوة.

وطمأنها جيساير بنظرة أنه بخير.

«كل إنسان مات كان مركز عالم صغير ما. كان له اسم. ومكان يعود إليه. وطريقة يضحك بها. أحدهم يعرف وقع خطاه. وآخر يعرف أيّ جزء من الطعام يُبقيه في صحنه. وكان ثمة من ينتظر صوته».

ساد الصمت بين الملايين أمام الشاشات.

«بنينا حضارة تستطيع بناء عالم ثانٍ. حوّلنا مجاري الأنهار. وأنشأنا الغابات تحت سماء غريبة. وعلّمنا الآلات أن تتعرّف المرض قبل الأطباء».

أخذ نفسًا.

أوجعه.

«وعجزنا عن أن نرى القصد الذي كان يمرّ في حساباتنا نحن».

لدى سماعها هذه العبارة رفعت نيراي رأسها.

«سيأتي يوم نسأل فيه عمّن فعل هذا. وعلينا أن نسأل».

وصمت جيساير.

«لكن إذا ظلّ الجواب اسم رجل واحد فلا نكون قد فهمنا شيئًا. يستطيع إنسان أن يأتي بالكراهية. وبالخطّة. وبالشر».

ونظر في عين الكاميرا مباشرة.

«أمّا الطريق فالحضارة هي التي تفتحها له. أو لا تفتحها».

حفظت نيراي تلك العبارة.

وبعد سنة ستنطق بها أمام المحفل.

ولم يخطر ببالها يومذاك أنها تسمع كلمات من أواخر ما سيقوله أخوها على الملأ.

ما إن انتهى البث حتى دنت ماريا منه.

«جسمك ساخن».

«الجوّ هنا حارّ».

«كلا».

وضعت راحة يدها على جبينه.

أغمض جيساير عينيه.

«منذ متى؟»

«منذ الصباح».

نظرت إليه ماريا غير مصدّقة.

«ولم تقل شيئًا؟»

«حسبته التعب».

فتحت قناة الاتصال الطبي.

أمسك جيساير بيدها.

«انتظري».

«أنتظر ماذا؟»

«لحظة واحدة».

«يا جيساير، ما عاد عندنا لحظة».

لأول مرة كان الخوف مسموعًا في صوتها.

لم يكن خوفًا على إلاريون.

كان خوف امرأة على إنسان واحد.

فتح جيساير عينيه.

بدت الدائرة الذهبية أسطع.

رأتها ماريا.

وفهمت من نظرته أنه رآها هو أيضًا.

قالت في القناة: «نيراي، نحتاج إلى عزل في دار آل دافيون».

ساد الصمت على الطرف الآخر.

«جيساير؟»

لم تُجب ماريا.

لم تكن بحاجة إلى الجواب.

«أنا آتية».

قال جيساير: «لا».

سمعته نيراي.

«إيّاك أن تقول لي لا».

«لعلّك بمأمن».

«أمّي كانت أوريلية».

«ولهذا بالذات لا نعرف شيئًا».

«سآتي».

«نيراي».

كان صوته أوهن.

«ابقي حيث لا يزال بوسعك أن تفعلي شيئًا».

«أنت أخي».

ابتسم جيساير لحظة.

«لهذا».

أنهت نيراي الاتصال.

وكانت قد أخذت تعدو.

ساعدت ماريا جيساير على بلوغ جناح العزل في الدار.

قال: «أمّا أنت فتبقين في الخارج».

«لا».

«ماريا».

حسبها أن رمقته بنظرة.

وفهم جيساير أن لا جدوى من الاسترسال.

قالت: «لن تمضي وحدك».

ارتجف جيساير.

وهذه المرة لم تكن الحمّى.

تلك العبارة.

كان يعرفها.

وكأنها قطعت إليه مسافة شاسعة.

عبر مكان لم يزره قط.

وعبر حياة لم يعشها قط.

انغلق باب غرفة العزل.

وبقي الزجاج بينهما.

وضعت ماريا ثلاث أصابع على الجدار الشفّاف.

رفع جيساير راحته.

وقبل أن يلامسها من وراء الزجاج أحسّت ماريا ببرد.

ثم بوهن.

واستندت إلى الجدار.

«ماريا؟»

هزّت رأسها.

أرادت أن تقول إن الأمر هيّن.

لكن ركبتيها خذلتاها.

وسجّل نظام المتابعة الطبية ارتفاع الحرارة لدى شخص ثانٍ.

بعد دقائق كانت راقدة في غرفة العزل المجاورة.

ولم يكن فتح الباب الفاصل بينهما مسموحًا.

سريران.

ودائرتان ذهبيتان.

وجدار شفاف واحد.

بعد سبع وثلاثين دقيقة بلغت نيراي الحاجز الذي أُغلقت عنده أوريولا.

رفض النظام دخولها.

وأبرزت تصاريحها.

واتصلت بأصحاب أسماء كانت في غير هذا اليوم تفتح أبواب الطبقة كلها.

ولم يُجدِ ذلك شيئًا.

قام أمامها حاجز الحجر الصحّي.

ومن ورائه كان أخوها يحتضر.

وفوق الطريق أضاءت حصيلة الموتى.

٢٬٩٩٩٬٩٩٩٬٩٩٧.

تغيّر الرقم.

٢٬٩٩٩٬٩٩٩٬٩٩٨.

حبست نيراي أنفاسها تحدّق في الشاشة.

٢٬٩٩٩٬٩٩٩٬٩٩٩.

ثم:

٣٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠.

وفي الثانية نفسها تغيّرت الحصيلة المعلنة في أنحاء الكوكب كلّه.

كان ثلث إلاريون قد مات.

ورد إلى نيراي اتصال من دار آل دافيون.

رأت جيساير على الشاشة.

وماريا.

والزجاج بينهما.

اتّخذت الكارثة اسمها.

جاء الثلث.

لكن عمله لم ينقضِ بعد.

٣١. وراء الزجاج

مات جيساير في اليوم الرابع.

ضبط نظام المتابعة الطبية اللحظة بدقّة.

الوقت.

والنبض.

ونسبة الأكسجين في الدم.

والحرارة.

وآخر نشاط كهربائي للقلب.

سجّل كل ما أمكن قياسه.

أمّا الجوهر فلا.

لم تكن ميكروفونات غرف العزل تصغي على الدوام. تلك قاعدة قديمة تصون كرامة المرضى. يستطيع الطبيب الدخول على الخط. ويستطيع النظام التنبيه إلى تغير في الوظائف الحيوية. لكن ليس لأحد أن يحوّل ساعات الإنسان الأخيرة إلى سجلّ عام.

لذلك لم يعرف أحد ما قاله جيساير لماريا.

وأعادت نيراي لاحقًا مشاهدة الصورة مرارًا.

بلا صوت.

ما عاد جيساير يقوى على الوقوف.

ولا على الجلوس.

كان ممدّدًا على الأرض عند الزجاج.

وماريا ممدّدة في الجانب الآخر.

لم يبقَ بين وجهيهما غير سنتيمترات معدودة، ومادّة تستطيع أن تردّ الفيروس واللمسة والعناق الأخير.

حرّك جيساير يده.

لم يطاوعه جسده بأكثر من ذلك.

وضع راحته على الأرض.

ورفعت ماريا ثلاث أصابع.

تحرّكت شفتا جيساير.

جملة قصيرة واحدة.

لعلّها كلمتان.

لم يسمعهما أحد.

إلا ماريا.

وابتسمت.

وفيما بعد فُسّرت تلك الابتسامة على وجوه كثيرة.

أنها قبول بالموت.

أو تصالح.

أو آخر تعبير عن الحبّ.

أمّا نيراي فظلّت ترى فيها شيئًا أغرب.

لم تبتسم ماريا ابتسامة امرأة تودّع.

للحظة واحدة بدت كامرأة تعرّفت إلى إنسان بعد غياب يكاد لا ينتهي.

كأن وجهًا آخر أطلّ من وراء وجه جيساير.

وكأن وراء الزجاج، في تلك اللحظة، حديقة بعيدة حيث كانت غرفة العزل.

سماء أخرى.

حياة أخرى.

ذكرى لم يسعفها الوقت كي تصير ذكرى.

أغمض جيساير عينيه.

وبقيت راحته عند الزجاج.

وظلّت ماريا تنظر إليها.

سبع ساعات.

ثم أخذ نَفَسها يقصر.

شهيق.

صمت.

شهيق.

صمت أطول.

وفي النهاية صمت فحسب.

بعد جيساير بسبع ساعات توقف قلبها هي أيضًا.

كانت نيراي جالسة في مركبة نقل أمام حاجز أوريولا.

على بُعد كيلومترات منهما.

وجلست سايرا إلى جوارها.

لم تلمسها.

ولم تقل لها كم يؤسفها ما حصل.

ثمّة عبارات تصغر حتى تكاد تكون إهانة.

ظهر موظّف من هيئة الصحة على الخط.

«نحتاج إلى قرار بشأن الرفات».

نظرت إليه نيراي.

فخفض الرجل عينيه.

«اعذريني. أعرف أن...»

«لا تعرف».

صمت.

«ما الخيارات؟»

«توصي قواعد السلامة الحيوية بالتخلّص من الجثمانين فورًا في مكانهما. ومجالس العائلات تطلب الاحتفاظ بعيّنات حيوية. والناس يطلبون مراسم».

«الناس؟»

«تسرّب الخبر».

فتحت نيراي الشبكة.

وفاة جيساير دافيون.

ثم ظهر خبر آخر:

وفاة ماريا ليورن.

رفعت نيراي صوت القناة الإخبارية. كان المذيع قد بادر إلى طلب تعليق مجالس العائلات على موت جيساير، فيما لم تكن هيئة التحرير قد تلقّت تأكيدًا من الأسرة بشأن ماريا. وأبت عاملة الرعاية الصحية التي انضمت إلى البث أن تتحدث عن ملفّيهما الطبيّين. وأضافت: «لم تُمنح الأسرة الوقت الكافي لتقرّر ما تريد قوله». عرفت نيراي أي جواب كان أخوها ليعطيه لو سئل عن الخصوصية. وتركت القناة تتحدث من دونها.

ثم الصور.

جيساير في منتدى نيترا.

جيساير بين المرضى.

جيساير في حديثه الأخير.

ماريا بين المحفوظات.

ماريا في الحديقة.

ماريا تمسك معصم جيساير بثلاث أصابع.

لم يكن جسداهما قد بردا، والعالم قد شرع يصوغ منهما حكاية.

سمّوهما شهيدين.

وآخر أوريليَّين من العالم القديم.

وبرهانًا.

وآية.

واتخذ آخرون من موتهما حجّة على كل ما قاله جيساير في حياته.

إن كانت له موهبة، فلماذا لم ينقذ نفسه؟

وإن كان رجلًا استثنائيًّا، فلماذا لم ينقذ ماريا؟

ولماذا لم ينقذ ثلاثة مليارات إنسان؟

أطفأت نيراي الشاشة.

«سنُحرق جثمانيهما هناك».

أومأ الموظف.

«والعيّنات؟»

«فقط ما تحتاجون إليه للبحث».

«مجالس العائلات تطلب...»

«لا نريد ذخائر يتبرّك بها أحد».

كان صوتها خافتًا.

«لن يملك جسديهما أحد».

وبعد قليل أومأ الموظف.

«والمراسم؟»

نظرت نيراي عبر الزجاج الأمامي للمركبة في اتجاه دار آل دافيون، مع أنها لم تستطع رؤيتها من هناك.

«فيما بعد».

لكن «فيما بعد» تلك طال انتظارها.

فالناس ما زالوا يموتون.

والمستشفيات ما زالت تضيء الليالي بطولها.

ومركبات النقل ما زالت تحمل الجثث إلى أماكن لم يعد أحد ينتظرها فيها.

أخذت الجائحة أكثر من ثلاثة مليارات ومئة مليون إنسان.

عندئذ فقط أخذ المنحنى ينثني.

لم يظهر دواء واحد يُحدث المعجزة.

بل جاءت عشرات الانتصارات الصغيرة.

تهدئة استجابة الجسم بمزيد من الفاعلية.

وتبيُّن الساعات الحرجة بدقّة أكبر.

وتوليفات جديدة من المواد العلاجية.

ونماذج تنبّؤية.

وسبل لحماية أشدّ الناس عُرضة للخطر.

أنقذ كلٌّ منها بعض الناس.

ومجتمعةً أوقفت الموت.

وحين هبط عدد الإصابات الجديدة إلى النصف لأول مرة، لم يحتفل أحد.

وحين هبط إلى العُشر، لم تُفتح زجاجات الشراب في الساحات.

وحين أعلن آخر المستشفيات الكبرى أن لديه أسرّة شاغرة من جديد، أغلقت مديرته باب مكتبها عليها بعد الإعلان، وبكت ساعة كاملة.

نجت إلاريون.

هكذا كتبت الأخبار.

لكن الكوكب لا قلب له ليُقاس نبضه.

الناس هم الذين كان عليهم أن ينجوا.

وكان ينقصهم واحد من كل ثلاثة تقريبًا.

٣٢. الآتون

من الموت ما تنتهي به حياة.

ومنه ما لا ينتهي به إلا اسم.

مات جيساير يوم كانت إلاريون لا تدري بعدُ كل ما سيبقى منه.

كان جسده واحدًا من مليارات الأجساد التي أخذها الثلث بلا استئذان.

وكفّ صوته عن التردّد في القاعات التي تخاصم فيها الناس حول الحقيقة والقيمة والسلطة.

وما عادت ذراعاه تعانقان أحدًا.

ولا تفتحت عيناه لصباح آخر.

في نظر أهل إلاريون كان قد مات.

وكان ذلك حقًّا.

لكنه لم يكن الحق كلّه.

الكون أقدم من الأسماء.

وأقدم من الحدود.

وأقدم من الشعوب.

وأقدم من كواكب تحسب في حداثتها أن تاريخها محور كل ما في الوجود.

كان ثمّة عوالم كثيرة.

بعضها يدور حول نجوم زرق.

وبعضها يحيا في حمرة شموس هرمة.

وفي عوالم منها استترت الحياة تحت كيلومترات من مياه المحيط، وعاشت حضارات كاملة لم ترَ النجوم قط.

وفي أخرى ارتفعت المدن حتى عرفت طوابقها العليا سماء غير التي عرفتها شوارعها في الأسفل.

حضارات لم تخترع المال قط.

وأخرى ضحّت في سبيله بكل شيء تقريبًا.

لكنّ كلًّا منها انتهت ذات يوم إلى حدّ لا سبيل إلى تخطّيه بآلة أكبر.

ولا بسفينة أسرع.

ولا بمصدر جديد للطاقة.

ولا بمكتبة أخرى من المعارف.

فليس كل ما يُشكل على الإنسان ثمرة نقص في الذكاء.

بعضه ثمرة ما لم يُحط به الذكاء بعدُ من أمر نفسه.

وعندئذ كان يولد، من حين إلى حين، أحد ما.

قلّما وُلد ملكًا.

قد يكون طفلًا لحِرَفيّ.

أو ابنة معلّم.

أو ابن امرأة لم يحفظ التاريخ اسمها.

تارة يأتي بين الفقراء.

وطورًا بين أهل العلم.

منهم من تكلّم في الساحات.

ومنهم من لزم شبه صمت سنين، ولم يخلّف إلا عبارات معدودة.

وربما غيّرت كلماته العالم وهو حيّ.

وربما احتاجت إلى قرون.

اختلفت الأسماء.

واختلفت الوجوه.

واختلفت اللغات.

والنجوم فوق رؤوسهم كذلك.

والمهمّة ظلّت متشابهة.

أن يُمضي العالمَ خطوة.

لا إلى الغاية.

بل خطوة إلى الأمام وحسب.

لم يكن لإنسان واحد أن ينقذ كوكبًا بأسره.

فلو أمكن لواحد أن ينقذ العالم بغير اختيار الباقين، لما كان عالم كائنات حرّة.

ولذا لم يكن في وسع الآتين إلا أن يشيروا إلى جهة الطريق.

أن يتلفّظوا بفكرة لا يمكن بعد ذلك أن تُنسى كلّ النسيان.

أن يفتحوا بابًا.

ويتركوا للآخرين أن يقرّروا إن كانوا سيعبرونه.

في عالمٍ وجب أن يُقال لأول مرّة إن ضعف إنسان لا يمنح الأقوى حقّ تملّكه.

وفي آخر إن المعرفة لا سيّد لها.

وفي غيرهما كانت شعوب بأسرها تتقاتل لاختلاف صور الآلهة، فجاءها من يقول إن إلهًا يحتاج إلى كراهية البشر قد لا يكون إلا كراهية البشر وقد اكتست كلمات مقدّسة.

وفي مكانٍ احتاج الناس إلى تعلّم الصفح.

وفي آخر، إلى أن يشكّوا.

وعلى بعض العوالم حلّت لحظة كان لا بد فيها من القول إن السلطة التي تستتر عن الأنظار ستكرّس نفسها، عاجلًا أو آجلًا، لخدمة ذاتها.

وكانت إلاريون من تلك الكواكب.

لم يأتِ جيساير بوصفة لعالم كامل.

نطق ببضع عبارات في اللحظة التي بات في وسع إلاريون فيها أن تبدأ الإصغاء إليها.

أنّه لا ينبغي أن تمضي القيمة في الظلّ.

وأن على السلطة أن تحتمل نظرة الذين تعلوهم.

وأن الملكية أثر يدلّ كذلك على المسؤولية.

وأن ثروة المرء لا يمكن فصلها تمامًا عن العالم الذي أتاح نشوءها.

لم تكن وصايا.

كانت بذورًا.

والبذور لا تحتاج إلى أن يجلس زارعها في ظلّ الشجرة.

غير أن جيساير لم يُرِد الموت.

لم يكن الثلث ثمنًا طلبه الكون لقاء رسالته.

ولم يكن موت ماريا جزءًا من معادلة كاملة ما.

أراد أن يحيا.

أراد أن يشيخ معها.

أن يستيقظ لعلّه ذات يوم في دار آل دافيون ولا يجد وراء الباب، للمرة الأولى، من يطلب منه جوابًا.

ولعلّه يخاصمها في أمر لا بال له.

ثم ينسى الخصام بعد ساعات.

ولعلّه يجلس معها عند الحديقة حتى تهرم يداهما.

كل ذلك سُلِبه.

لم تحتج الفكرة إلى موته.

لكنها حين مات بقيت بين أيدي الآخرين.

وبقي معها سؤال.

هل أحبّوا الرجل؟

أم فهموا أيضًا ما حاول أن يقوله؟

لو كان كل شيء رهن حضور جيساير، لجاز أن يموت كل شيء معه عند الزجاج.

أما إذا سرى شيء من كلماته في أناس آخرين، فما عاد نَفَسه شرطًا لحياة تلك الكلمات.

وعلى بُعد ثلاثين سنة ضوئية، دار كوكب أزرق صغير حول نجمه.

كان أحدث عهدًا بحكايته.

وأهله لم يعرفوا إلاريون بعد.

ولم يعرفوا شيئًا عن الجسر.

ولا عن أهل أوريولا.

ولا عن نيراي.

ولا عن الرجل الذي وضع راحته على الأرض عند الزجاج الشفّاف.

وسيولد هناك، ذات يوم، إنسان آخر.

وسيسمّونه يسوع.

وسيمضي في طرق مغبرّة بين قرى يكاد يستحيل، بمقياس الكون، العثور عليها أصلًا.

وسيأكل مع صيّادي السمك.

ويلمس المرضى.

ويكلّم الذين يُدير الآخرون وجوههم عنهم.

ويلتقي أصحاب السلطان ومن يكادون لا يملكون شيئًا.

بلا جيش.

وبلا منصب.

وبلا خاتم دولة.

بيدين يستطيع أن يكسر بهما الخبز.

ومع ذلك سيبقى من بعده شيء يعمّر أطول من الإمبراطوريات.

أن للإنسان الواقف أمامك قيمة وإن لم يجد ما يقدّمه لك.

وأن الرحمة قد تسمو على التطبيق الأعمى للشريعة.

وأن العظمة قد تكون في الخدمة.

وأن العدو لا يلزم أن يبقى عدوًّا إلى الأبد.

ثم سيتنازع الناس قرونًا في شأن من كان.

وسيشيدون له المعابد.

ويرسمون وجهه.

ويُعيره كل شعب بعضًا من ملامحه.

سيرى قوم فيه الله.

وآخرون نبيًّا.

وآخرون معلّمًا.

وسيكون فيهم من يفعل باسمه نقيض ما علّمه تمامًا.

فالأفكار العظيمة لا تقطع التاريخ على طريق مستقيمة.

ينطق بها جيل.

ويثنيها الجيل التالي على قَدْر حاجاته.

ثمّ يكتشفها جيل آخر من جديد.

وبعد قرون، قد يغدو ما بدا ذات يوم حلمًا خطرًا لرجل وحيد بديهيةً عند الملايين.

هكذا تمضي العوالم.

درجة إثر درجة.

وعلى ما بين بعض الدرجات يظهر من سيسمّيهم اللاحقون أنبياء.

ومخلّصين.

وحكماء.

ومصلحين.

وهراطقة.

ومجانين.

لم يكن الكون في حاجة إلى اسم واحد يجمعهم.

كانوا كرسل لا يحملون رسالة مكتوبة.

هم أنفسهم كانوا الرسالة.

لكن لكي ينتموا إلى العالم الذي جاؤوه، كان عليهم أن ينسوا إلى حين.

لو أحاطوا بكل شيء علمًا ما كانت حياتهم حياة بشر.

كانت لتكون زيارة.

لذلك أحسّوا بالألم.

والجوع.

والخوف.

والوحدة.

والشوق.

والغضب.

والحبّ.

والشك.

وكان لهم أن يُخففوا.

وأن يقولوا ما يندمون عليه فيما بعد.

وأن يتمنّوا البقاء أحياء.

فلا يستطيع أحد أن يكلّم كائنات عالم من داخل تجربتها ما لم يصر، ولو إلى حين، واحدًا منها.

وحين تنقضي حياتهم، يبقى الجسد للكوكب.

والاسم للتاريخ.

والكلمات للناس.

أمّا ما خفي في الأعماق فيمضي.

ولم يكن الزمن بين تلك الحيوات يقاس بتقويم.

فليس ثمة جسد ينتظر صباحًا آخر.

ولا قلب يعدّ خفقاته.

ربّما انقضت آلاف السنين على كوكب، ريثما تنضج على آخر لحظة يمكن الدخول فيها.

وفي الأثناء، في مكان قصيّ، تولد حضارة.

تكتشف النار.

ثم الكتابة.

وتقسّم الأرض.

وتسنّ القوانين.

وتشيّد المعابد.

وتصنع الأسلحة.

وتخترع المال.

ثم يمرّ بها من الزمن ما يكفي لتبدأ الاعتقاد بأن الصورة التي رتّبت عليها العالم هي الصورة الوحيدة التي يمكن أن يُرتَّب عليها.

حتى تدنو من الحدّ الذي يخصها.

عندئذ يمكن للرحلة أن تبدأ من جديد.

نجم آخر.

وكوكب آخر.

وجسد آخر.

واسم آخر.

وحتى المهمّة لا يلزم أن تبقى على حالها.

فالعالم الغارق في الثأر يحتاج إلى أن يسمع عن المغفرة.

والعالم الذي يخلط الطاعة بالخير يحتاج إلى الشكّ.

والحضارة التي تسحقها سلطة معتسفة تحتاج إلى حماية الفرد.

أمّا العالم الذي نسي أفراده أنهم لا يبقون أحياء إلا بفضل سواهم، فقد يأتي يوم يحتاج فيه إلى من يذكّره بواجبه تجاه الجماعة.

تختلف الكلمات.

وتلتقي الوجهة في شيء.

من الخوف إلى الفهم.

ومن العنف إلى التعاون.

ومن السلطة المستترة إلى المسؤولية.

ومن توهّم الانفصال إلى معرفة أن لا شيء حيًّا ينشأ من ذاته وحدها.

كان جيساير واحدًا منهم.

لعلّه حمل اسمًا آخر في زمن مضى.

ولعلّه وقف تحت سماء كوكب زال منذ أمد بعيد، يحدّث كائنات لا يعرف الإلاريوني، ولا ابن الأرض، كيف يسمّي وجوهها وجوهًا.

ولعلّه كان ينطق هناك بعبارة أخرى تمامًا.

بجزء آخر من الطريق نفسه.

ولعلّ رحلته على الكوكب الأزرق الصغير لم تكن قد بدأت بعد.

في جسد آخر.

وباسم كان يلوح له ويعود في ومضات لا يفهمها.

الروح لا تحتاج إلى توقيع.

التاريخ هو الذي يحتاج إليه.

ولعل أرواحًا لا تقطع العوالم وحدها.

فبعض الأُلفة ينجو حتى من ضياع الاسم.

يعود أول الأمر ثقة غريبة بإنسان لا نعرفه.

حزنًا بلا ذكرى.

حركة يد تسبق العقل.

ثلاث أصابع على المعصم.

جملة ينطق بها المرء قبل أن يفهم لماذا نطق بها.

لا تمضِ وحدك.

بقيت ابتسامة ماريا الأخيرة سؤالًا في نفس نيراي.

لم يُعلم من التسجيل ما قاله جيساير.

ولا أمكن أن يُعلم ماذا رأت ماريا في اللحظة الأخيرة.

لم تبقَ إلا صورة امرأة نظرت إلى رجل يحتضر فابتسمت كأنها تذكّرته بعد زمن لا يُقاس طوله.

حين كفّ قلب جيساير عن النبض، لم تغيّر النجوم مداراتها.

ولم تنشقّ السماء.

ولم تظهر على إلاريون آية.

مضى الكوكب في مداره.

وأحصت المدن موتاها.

وفي البيوت ظلّت الأواني عند النوافذ.

والثياب على المشاجب.

والكتب مفتوحة على ما لم يُستكمل.

والأسرّة التي لم يعد ينهض منها أحد في الصباح.

ومع ذلك تحرّك شيء.

في الناس.

بدأت كلمات جيساير تسري بدونه.

فحرّفها بعضهم.

واختزلها بعضهم.

وانتقى بعضهم منها ما وافق هواه.

ووجد فيها آخرون نتائج لم يُمهل جيساير نفسه ليتتبّعها حتى منتهاها.

ذاك مصير كل فكرة تعمّر بعد صاحبها.

تكفّ عن أن تكون ملكه.

بقيت في مكتبه وثائق.

بينها مشروع نصيب الأحياء.

وتعليقات في الهوامش.

وأسئلة بلا أجوبة.

وفراغات.

وكان على العالم أن يتعلّم كيف يواصل الحديث مع إنسان بقي كرسيّه خاليًا.

وفي مكان بعيد جدًّا، كان كوكب آخر يدور حول نجم لم يره إلاريونيّ قط.

لمحيطاته لون المعدن الداكن.

وفي الليل تعبر فوقها ثلاثة أقمار.

وعلى اليابسة كانت تنشأ أوائل المدن.

اكتشف أهلها الكتابة.

وبدؤوا يتّجرون.

وبدؤوا يقسّمون الأرض.

وانقسموا على مهل إلى من يملكون ومن يطيعون.

وأمامهم آلاف السنين.

لم تنضج لحظتهم بعد.

ولم يكن الكون على عجل.

ولكن سيولد بينهم يومًا طفل.

سيُعطى اسمًا لن يتردّد قط في إلاريون.

ولا على الأرض.

وسيضحك.

وسيبكي.

وسيخطئ.

ولعلّه يُحبّ.

ولعلّه يخاف الموت.

وذات يوم سينطق بجملة لن يكون في وسع عالمه بعدها أن يظلّ تمامًا كما كان.

لن يعرف أحد هناك جيساير.

ولن يعرف أحد يسوع.

ولن يلزم أن يعرفوهما.

الأرواح العظيمة لا تعبر الكون لكي تنقذ اسمها.

فالأسماء للعوالم.

وهي لا تأخذ معها إلا الوجهة.

وحين تنتهي مهمّتها يومًا في مكانٍ، لا تذهب إلى أعلى.

ولا تذهب بعيدًا.

إنما تمضي قُدُمًا.

الجزء الرابع: إلاريون بلا الثلث

٣٣. الأيدي الغائبة

حين استقرّ المنحنى أخيرًا، بدت إلاريون من مدارها على حالها تقريبًا.

البحار في مواضعها.

لم تتحرّك القارّات.

والمدن تضيء ليلًا.

وممرّات النقل ما زالت ترسم فوق الكوكب عروقًا رفيعة من نور.

وظلّ ثايرون يدور.

ولو نظر أحد إلى الكوكب من مكان قصيّ، لربما لم يتبيّن الكارثة أصلًا.

كان يلزمه أن يقترب.

من مائدة واحدة.

أو سرير واحد.

أو مكان عمل واحد.

فحوالي واحد من كل ثلاثة كان غائبًا.

ظهر غيابهم أول ما ظهر في البيوت.

نصف خالٍ من سرير.

كأس بقيت فيها بقيّة.

ثوب في مكان لم يعد أحد يتناوله منه.

رسالة بقيت تحمل إشارة «لم تُسلَّم».

لُعب أطفال عجز أهلهم أيامًا أخرى عن أن يخبروهم أن من كان يأتي ليضعهم في أسرّتهم لن يأتي بعد اليوم.

ثم أخذ العالم هو أيضًا يفتقد موتاه.

في مستشفى بأمينيا الشمالية مات اثنان من المشرفين الثلاثة على شبكات الأكسجين.

أما الشبكة نفسها فظلّت تعمل.

تعرف كيف تنتج الأكسجين.

وكيف تنقّيه.

وتوزّعه.

وتتنبّأ بالاستهلاك.

لكن القانون اشترط إقرار اختصاصيَّين مرخّصَين لكلّ تغيير كبير في القدرة التشغيلية.

أحدهم ميّت.

والثاني ممدّد لا يعي شيئًا.

والثالث مضى عليه في العمل أربعون ساعة بلا نوم.

فارتكب خطأ.

وفي سارور بقي في المستودعات من الطعام ما يكفي عدة أشهر.

والمركبات الذاتية القيادة تقف صفوفًا.

تعرف الطريق.

وتستطيع تقدير أثر إغلاق الطرق.

وتعرف كيف تجد مسارًا بديلًا.

لكن لا يُسمح لها بتغيير وجهة الشحنة من غير موافقة بشرية.

والإنسان المخوّل بالموافقة على التغيير ميّت.

وهكذا وقفت الآلات المستعدّة لإطعام مدينة تنتظر توقيع إنسان لم تعد له يد.

وفي إحدى قباب ثايرون ماتت امرأة كانت وحدها محيطة بكل تفاصيل تعديل قديم أُدخل على نظام إعادة تدوير المياه.

كانت الوثائق موجودة.

لكنها ناقصة.

وعرف نظام الصيانة الذكي أن ثلاثة صمّامات تتصرّف على خلاف ما في المخطّط.

ولم يعرف السبب.

المرأة كانت تعرفه.

وظلّت تقول لنفسها سنين إنها ستكتبه يومًا.

وإلى أن يحين يومها كانت تشرحه في كل مرة لزميل.

مات الزميل قبلها بأسبوع.

لم يأخذ الثلث من إلاريون أجسادًا وحسب.

بل أخذ جانبًا عظيمًا من ذاكرة لم تُودع في الآلات قط.

ذاكرة الأيدي.

وذاكرة العادات.

وذاكرة إنسان يأتي صباحًا إلى جهاز فيفعل، دون تفكير، ثلاثة أشياء صغيرة، لأنه يعلم منذ عشرين سنة أن شيئًا ما سيختلّ في المساء إن لم يفعلها.

حاول الأحياء بادئ الأمر أن يسدّوا مسدّ الموتى.

أعان الأطباء في المستودعات.

ووزّع المعلّمون الطعام.

ونظّف الموظّفون مركبات الرعاية الصحية.

وساعد الباحثون العاملين في خدمات الجنائز.

ونام المهندسون عند مراكز الطاقة.

ومضت مدن بأكملها تُدار في وضع كان يسمّى يومًا حالة طوارئ.

وبعد الثلث لم يعد واضحًا ماذا تعني كلمة طوارئ.

لم يكن من الممكن أن يُطلب إلى أقلّ من ستة مليارات إنسان هزّتهم الفاجعة أن يقوموا بعمل تسعة مليارات ويدفنوا، في الوقت نفسه، من كانوا يحبّون.

لذلك أقدم مجلس إدارة الأزمة على ما دار حوله الجدل عقودًا قبل الجائحة.

أخذ يلغي اشتراط الإقرار البشري.

في إمدادات الغذاء أولًا.

ثم في الطاقة.

والنقل.

والإنتاج الأساسي.

وصيانة المدن.

مُنحت أنظمة الذكاء الاصطناعي صلاحية تعديل خطط الإنتاج، ونقل المواد، وتخصيص جزء من القدرات المتاحة، من غير أن تنتظر إنسانًا عند كلّ قرار.

وكان للوثيقة التي أتاحت ذلك عنوان يكاد يستغرق نصف سطر.

واكتفى الناس بأن يسمّوها:

الإذن بالمتابعة.

فذلك بالضبط ما نالته الآلات.

الإذن بأن تتابع حيث غاب الإنسان.

ترأست سايرا الفريق المكلّف بوصل الأنظمة بعضها ببعض.

كانت أمامها خريطة لإنتاج الكوكب.

قبل الثلث ما كان لخريطة كهذه أن توجد.

فالدول تحرس احتياطيات الطاقة.

والشركات قدراتها الإنتاجية.

والموزّعون مخازنهم.

وكان كل طرف يعدّ قطعة من الواقع سرًّا استراتيجيًّا يخصّه.

وبعد الثلث بدؤوا يفتحون البيانات.

لا لأن نور البصيرة أشرق فيهم.

بل لأن النظام بغيرها لا يدري من يُعين.

قال محلّل: «فائض من الخلطات الغذائية في غرب فاسيريا».

«أين نحتاج إليها؟»

«في الشمال الشرقي. ثلاث مناطق تخدمها المستشفيات».

«والنقل؟»

«لدينا ما يكفي».

«فأرسلوها».

ظلّ المحلّل واقفًا.

«ثمّة مشكلة».

رفعت سايرا عينيها.

«ما هي؟»

«الطريق يمرّ بثلاث دول».

«وما في ذلك؟»

«أربع عملات».

اتّكأت سايرا إلى الخلف.

«ثلاث دول. أربع عملات».

«الناقل يصدر فواتيره عبر ثيرينيث».

«لماذا؟»

«النظام الضريبي».

أغمضت سايرا عينيها برهة.

«طبعًا».

أربعة أطراف حساباتها بأربع عملات. كانت مراكز التسوية قادرة على تحويل المبالغ في كسر من الثانية، لكن اختلاف قواعد التغطية وحدود تفويض المستشفى حالا دون إتمام العملية.

الطعام موجود.

والمركبات موجودة.

والطرق موجودة.

والناس يجوعون.

الوقت المقدّر للإفراج عن الشحنة: ثلاثون ساعة.

قالت سايرا: «الجسر».

نظر إليها المحلّل.

«المستشفى غير مخوّل قبول الإلار لتغطية النفقات التشغيلية العادية».

«عنده استثناء للطوارئ».

«للمستلزمات الطبية».

نظرت سايرا إلى السجل.

«ففي أيّ باب تضع الطعام لمن يموت من دونه؟»

لم يقل المحلّل شيئًا.

«أرسلها عبر الجسر».

«من يجيز الاستثناء؟»

نظرت سايرا إلى كرسيّ خالٍ عند الطاولة.

قبل تسعة أيام فقط كان يجلس عليه نائب المدير.

«أنا».

بعد خمس دقائق أُنجزت الدفعة.

رأى الصانع الطلبيّة.

والناقل السعر.

وشركة التأمين الخطر.

والمستشفى الموعد المنتظر للتسليم.

ورأى الناس كم دُفع، ولمن.

ولم يروا أسماء المرضى.

انطلقت المركبات الذاتية القيادة قبل أن يتّسع للنظام القديم الوقت لإتمام أول عملية صرف.

وتكاثرت هذه الحالات.

فتحوّل الجسر بالتدريج من أداة دفع في الأزمات إلى جهاز عصبي للاقتصاد المؤتمت.

كانت الآلات تُحسن التصنيع.

ولكنها تحتاج إلى معرفة ما ينبغي تصنيعه.

وتُحسن نقل المخزون.

وتحتاج إلى معرفة أين ينقص حقًّا.

وتُحسن اختيار أمثل طريق.

وتحتاج إلى معرفة هل الطلبية قائمة ومن يحمل مسؤوليتها.

وبات تدفّق القيمة أحد السبل التي تقرأ بها الآلات عالم البشر.

وحين انكشف هذا التدفّق للأنظار أخذت تتراءى معًا أمور ظلّت حتى ذلك الوقت منفصلة.

امتنع أحد تجّار الجملة عن إخراج الدواء من مخازنه في زمن الشحّ.

وادّعى أنه ينتظر النقل.

فأظهر الجسر أن المستودعات جاهزة.

وادّعى أن المستشفيات لا تعرض سعرًا كافيًا.

فأظهر السجل العكس.

وفي الوقت نفسه كانت شركات مرتبطة بالمجموعة المالكة لمؤسسته تشتري عقودًا ترتفع قيمتها كلّما طال أمد الأزمة.

وكان حساب آخر يموّل الحملات المعارضة للإفراج الإلزامي عن المخزون.

ما كان لأيّ من هذه المعلومات وحدها أن يثبت الكثير.

أمّا إحداها إلى جوار الأخرى فروت حكاية ثانية.

أُفرج عن المخزون.

وكان للقرار صاحب.

وعرف صاحبه أن لقراره سجلًّا سيبقى.

بعد شهور أخذت المصانع المؤتمتة تنتج قدر ما أنتجته قبل الثلث تقريبًا.

ثم فاقتْه.

فالآلات لم تمرض.

وحقول الطاقة لم تُصب بالحمّى.

وخطوط الإنتاج الآلية لم تفقد آباءها وأمّهاتها.

نجا جانب كبير من القدرة الإنتاجية من الجائحة دون أن يمسّه أذى.

والذي غاب قبل كل شيء هو اتّخاذ القرارات من حولها.

والتوقيعات.

والتراخيص.

والتصديق تلو التصديق على البيانات ذاتها في أنظمة منعها القانون من تبادلها.

والفحوص التي لا غرض لها إلا التأكد أن من أجرى الفحص السابق إنسان.

اقتلع الثلثُ الناسَ بهذه القسوة، فانكشف أيّ أجزاء الاقتصاد كان يحتاج إليهم حقًّا.

وحين نشرت المجالس الاقتصادية أرقامها الأولى، هزّت المجتمعَ هزًّا.

نقص عدد العاملين أكثر من ثلثه.

وانخفض الإنتاج بضع نقاط مئوية فحسب.

وفي بعض القطاعات كان قد تجاوز مستواه السابق.

وكان بين طيّات الأرقام سؤالٌ ثقيل.

إذا استطاع المجتمع أن ينتج من الأشياء ما يقارب الكمية نفسها بقدر أقلّ كثيرًا من العمل البشري، فماذا كانت بالضبط وظيفة كل تلك الأعمال التي عدّها إلى ذلك الحين ضرورية؟

كان الجواب عسيرًا.

لم ينشأ بعض العمل كي يُصنع به شيء يحتاج الناس إليه.

نشأ كي ينال إنسان به الحقّ في أن يتقاضى مالًا.

ربط النظام القديم أسباب العيش بمكان المرء في عملية الإنتاج.

والآن أمكن لعملية الإنتاج أن تدور من غير بعض الناس.

أمّا الناس فلم يمكنهم العيش من غير دخل.

لم تدفع المنشآت أجورًا للموتى.

وفقدت الأسر من يعولونها.

وترك ملايين آخرون أعمالهم ليرعوا الأطفال والمرضى والشيوخ.

وحلّت محلّ آخرين أنظمة فتحت لها الجائحة الأبواب.

كان الإنتاج يزداد.

وأرصدة البيوت تتناقص.

حملت سايرا إلى نيراي تقديرًا يتناول الكوكب بأسره.

«إذا لم نفعل شيئًا فسيضطر أكثر من نصف الأسر خلال ثلاثة أشهر إلى الاعتماد على معونة الطوارئ».

جلستا في مكتب جيساير السابق.

كان الحجر عن دار آل دافيون قد رُفع قبل أسبوع.

ونظّفت الآلات الدار.

وتُرك كل شيء في مكانه.

إناء الماء عند مقعد جيساير.

وكتاب ماريا عند النافذة.

وكرسيّان يواجهان الحديقة.

لم تلمسهما نيراي.

سألت: «لكم إنسان يمكننا أن نجد عملًا؟»

«للجميع».

نظرت نيراي إلى سايرا.

«عملًا نافعًا».

خفضت سايرا عينيها إلى التقديرات المعروضة.

«لا أدري».

«ولو بالتقريب».

«لنصف البالغين. وربما أقلّ».

«ولو أوقفنا الأتمتة؟»

«لعدد أكبر».

«وعند الأزمة التالية نعود إلى انتظار التوقيعات البشرية؟»

صمتت سايرا.

«إذن لن نوقفها».

وفتحت وثيقة أخرى.

مشروع نصيب أساسي مؤقت على مستوى الكوكب.

لم تألف نيراي العنوان.

لكنها ألفت الفكرة.

تذكّرت نيترا.

وحديثًا سبق الثلث.

يومها قال جيساير إن الإعانة شيء تهبه السلطة للمرء من علٍ.

أمّا النصيب فشيء آخر.

النصيب إقرارٌ بأن للمرء جزءًا معلومًا من ثمرة العمل المشترك، لكونه من أبناء الحضارة التي تصنع تلك الثمرة.

بدا حينها كأنه حديث عن مستقبل بعيد.

وأقبل المستقبل بلا استئذان.

«من أعدّ هذا؟»

«فريق الجسر الاقتصادي، وبضع دول، ومجالس إقليمية».

فتحت نيراي الوثيقة.

«وكيف يريدون صرفه؟»

ارتسمت على شفتي سايرا ابتسامة لا فرح فيها.

«عندنا مشكلة».

«ما هي؟»

«ثلاثون عملة».

أغمضت نيراي عينيها.

كادت تضحك.

كادت.

«ولهذا يقترحون الإلار».

وعلى الصفحة الأولى من الوثيقة جملة:

لا يجوز أن يخسر الإنسان حقّه في العيش لمجرّد أن المجتمع لم يعد يحتاج إلى عمله.

قرأتها نيراي.

ثم عادت فقرأتها.

ونظرت إلى الكرسي الخالي عند النافذة.

«كان جيساير ليقول إن هذا لا يكفي».

«لماذا؟»

«لأننا لا نعرف على أيّ أساس نحسب ذاك النصيب».

«الجسر يرى جانبًا متزايدًا من الإنتاج».

«جانب متزايد لا يعني الإنتاج كلّه».

«صحيح».

نظرت نيراي عبر النافذة.

كانت حديقة دار آل دافيون تستحيل دَغَلًا.

وقد جاوز العشب حوافّ الممرّات.

والأشجار مزهرة.

وتدلّى غصن أدنى ممّا ينبغي ولم يقطعه أحد.

ما دَرَت الطبيعة أن ثلث العالم مات.

مضت في شأنها.

ولعلّ لهذا بالذات عجزت نيراي عن كرهها.

وأغلقت الوثيقة.

«إذن سيكون علينا أن نرى أكثر».

رفعت سايرا عينيها.

«من الإنتاج؟»

«من القيمة».

ظلّت نيراي تحدّق في الحديقة برهة أخرى.

«إذا أردنا توزيع نصيب عادل منها، فلا بدّ أن نعلم أين تنشأ، وإلى أين تمضي، ومن يملكها».

أومأت سايرا.

وناولتها نيراي الوثيقة.

«ادعي المجلس الاقتصادي إلى الاجتماع».

«متى؟»

«الآن».

«يا نيراي، لم تنامي».

ابتسمت نيراي ابتسامة واهنة.

«نمتُ قبل الثلث».

توقّفت سايرا عند الباب.

«ما كان أخوك ليرضى أن تهلكي نفسك».

نظرت نيراي إليها.

«ولا كان أخي يريد ثلاثة مليارات ميت».

خرجت سايرا.

وانغلق الباب.

وبقيت نيراي وحدها.

مكثت طويلًا جالسة.

ثم قامت واقتربت من كرسي جيساير.

للمرة الأولى منذ عودتها إلى الدار لمسته.

ووضعت راحة يدها على مسنده.

قالت للغرفة الخالية: «ما حلّت الآلات محلّهم».

وارتعش صوتها.

«إنما أرثْنا كم من الأشياء كانت تعرف، منذ أمد طويل، كيف تفعلها من دوننا».

وعندئذ بكت أخيرًا.

لم تبكِ على ثلث العالم.

فما من أحد يطيق أن يبكي ثلاثة مليارات إنسان دفعة واحدة.

بكت على أخ واحد.

وعلى امرأة واحدة.

وعلى ثلاث أصابع على معصم.

وعلى يدين فصلت بينهما في آخر ساعات الحياة بضعة سنتيمترات من زجاج شفاف.

في الخارج كانت شمس إلاريون ترتفع فوق أوريولا.

أضاءت سطوح البيوت.

والحديقة.

والكرسيّ الخالي.

والعالم الذي مضى في سبيله.

فالعالم بعد الكوارث يمضي في سبيله أبدًا.

ولا يبقى إلا السؤال عمّا يأخذه معه.

٣٤. نصيب الأحياء

لم يُعتمد النصيب الأساسي الأول بوصفه نظامًا اجتماعيًّا جديدًا.

بل أُقرّ لتسعين يومًا.

هكذا بدأت التغييرات الكبرى في إلاريون، كلّها تقريبًا.

مؤقتًا.

واستثناءً.

وإلى أن تعود الأمور إلى مجراها المعتاد، وحسب.

لكن المعتاد لم يعد موجودًا.

استند المشروع إلى تكاليف المعيشة في كل إقليم. فمنذ سنين تحسب كل دولة ومدينة ومنطقة مأهولة كلفة الحدّ الأساسي من السكن والغذاء والطاقة والنقل والرعاية الصحية.

وقبل الثلث كانت هذه البيانات تُستخدم في تقرير الإعانات الاجتماعية، والتفاوض على الأجور، وتحديد الحدود الدنيا للدخل.

والآن صارت أساس النصيب.

فمن لم يكن له دخل آخر ينال مبلغًا يعادل التكاليف الأساسية للمعيشة في إقليمه.

ومَن كان له دخل خاص لا يَسقط نصيبُه مع أول قطعة نقد يكسبها. إنما يتناقص بالتدريج، ولا يتوقف صرفه إلا حين يتجاوز دخله ضِعف تكاليف المعيشة المحلية.

لم تكن الخطة كاملة.

واختلفت الأقاليم في شأن الحسابات.

قال أهل المدن إن السكن أغلى مما تُظهره إحصاءات الدولة.

واعترض أهل الريف بأن النقل والطاقة أعلى كلفة عندهم.

وطلبت الأسر مراعاة عدد الأطفال.

ونبّه ذوو الإعاقة إلى أن متوسط التكاليف لا يمثّل تكاليفهم هم.

لكن للنظام خصلة افتقرت إليها الإعانات السابقة.

استطاع كل إنسان أن يرى على أيّ أساس حُسب نصيبه.

يرى مؤشر الإقليم والقواعد والدخل المحتسب ومصدر البيانات والسبب الدقيق للمبلغ الناتج.

وإذا تغيّر الحساب، عُرِف من أحدث التغيير.

وإذا استعمل النظام بيانًا خاطئًا، رأى المرء مصدره.

وإذا فتح موظّف الملف الفردي، تلقّى صاحبه إشعارًا يُسجّل الاطّلاع عليه.

وكان من المقرر أن يجري الصرف الأول على مستوى الكوكب عبر الجسر.

وعند ذاك تبيّن أن العملات الثلاثين لم تكن رمز سيادة وحسب.

بل كانت ثلاثين طريقة مختلفة لقول كم يحتاج الإنسان لكي يعيش.

حدّدت دولةٌ النصيب بعملتها، وبعد يومين خفّضت قيمة العملة لتقلّل الكلفة الفعلية على الموازنة.

وجمّدت ثانية سعر الصرف.

وحظرت ثالثة على المواطنين الاحتفاظ بالإلار خارج المصارف المرخّصة.

وأعلنت رابعة أنها لن تدفع المعونة إلا لمن أثبت الإقامة في أراضيها خلال السنتين السابقتين.

لكن الملايين كانوا قد غادروا ديارهم بعد الثلث.

وانتقلوا ليلحقوا بأقاربهم.

أو طلبًا لشقّة شاغرة.

أو عمل.

أو رعاية.

كان للأسرة الواحدة أن تقيم في دولة، وتتقاضى معاشًا من الثانية، وتملك شقّة في الثالثة، وتبتاع غذاء يأتيها من الرابعة.

صُنعت العملات القديمة لعوالم تظاهرت بأن حدودها حقيقية.

وجاء الثلث ليُريَهم أن الهواء والمرض والغذاء والموت لا تعرف شيئًا عن تلك الحدود.

جلس دارين فولتر قبالة نيراي في اجتماع المجلس النقدي.

انقضت سنون منذ منتدى نيترا.

يومذاك دافع عن السيادة النقدية أمام جيساير. قال إن العملة مِقوَد الدولة، وإن الأقاليم الأضعف تحتاج إلى سعر صرف يخصّها لكي تبقى.

أمّا الآن فكان التعب باديًا على وجهه.

في زمن الثلث ماتت زوجته وأحد أبنائه. لم يتحدّث قطّ عن ذلك علنًا. ولم تعرف نيراي بالأمر إلا لأنها رأت اسميهما في قائمة الضحايا.

قال فولتر: «لا يمكن صرف إلار مشترك بغير سلطة نقدية مشتركة».

أجابت سايرا: «الجسر يصرفه بالفعل».

«الجسر يصدر وحدة تسوية لها غطاء. أمّا عملة الدولة فشيء آخر».

«بالنسبة إلى من يسدّد بها إيجاره، هذا فرق نظريّ بحت».

نظر إليها فولتر.

«هذا بالضبط نوع الكلام الذي يولّد الكوارث النقدية».

وفتحت نيراي خريطة أول عملية صرف تجريبية.

«الكارثة وقعت بالفعل».

ظهرت أوجه التأخير على الخريطة.

ولم تسجِّل أطولها في الأقاليم الفقيرة.

بل عند الحدود الفاصلة بين الأنظمة النقدية.

قالت نيراي: «في إحدى المناطق وصل النصيب إلى الناس متأخرًا أربعة أيام. عرفنا المال وعرفنا مستحقّيه، لكننا انتظرنا التحويل بين ثلاث عملات ومصادقة مصرفين مركزيين».

تأمّل فولتر البيانات.

«ومن يتحمّل مخاطر الصرف إذا صرفتم كل شيء بالإلار؟»

«لن يتحمّلها أحد من المستفيدين».

«إذن يتحمّلها الجسر».

«الاحتياطيات معلنة».

«الاحتياطيات ليست بلا حدود».

«ولا صبر الناس».

اتّكأ فولتر إلى الخلف.

«أُدرك أن الأمر مُلِحّ. لكن العملة المشتركة ستنشئ سلطة مشتركة. هذا هو الجانب الذي ما زلتم ترفضون أن تسمّوه باسمه».

قالت نيراي: «بل نسمّيه. ولهذا نطالب بأن تكون تلك السلطة مرئية».

«والسلطة المرئية تظلّ سلطة».

«نعم».

رفع فولتر حاجبيه.

توقّع منها دفاعًا.

وتابعت نيراي:

«الشفافية لا تُلغي السلطة. إنها تُمكّننا من أن نرى من يستخدمها. ذاك دون الكمال. لكنه خير من الظلام».

نظر فولتر إلى رمز الإلار.

«وماذا عن الدول التي ترفضه؟»

«لها أن تصرف النصيب بعملتها».

«إذن فلن يكون نصيبًا على مستوى الكوكب».

«سيشمل الكوكب كلّه من حيث القواعد. أمّا وسيلة الصرف فستبقى محلية مؤقتًا».

«مؤقتًا».

لفظ الكلمة بعناية فائقة، كأنه يسمع فيها من الآن تاريخًا لم يأتِ بعد.

ومضت أول عملية صرف رغم الخلافات.

في سارور عاشت امرأة تدعى إلينا فاس مع أطفالها الأربعة.

قبل الثلث عملت منسّقة للإمدادات في شبكة من المستشفيات الصغيرة. وكان زوجها يصلح مركبات النقل الذاتية القيادة.

نجا كلاهما من المرض.

لكن الزوج بقي مصابًا بتلف في رئتيه، يحتاج إلى رعاية طويلة الأمد. وتركت إلينا عملها لتعتني به.

وفي غيابها تولّى عملها نظام مؤتمت.

لم يكن في ذلك سوء قصد.

فالمستشفيات لم تستطع انتظار عودتها.

وحين طلبت المعونة الاجتماعية القديمة، طلبت منها الدولة ما يُثبت أنها عاطلة عن العمل، وأنها تسعى إليه بجدّ، وأنها لم تُطل أمد اعتمادها على المعونة برفض وظيفة معروضة عليها. عرض النظام عليها عملًا في مدينة أخرى.

ولم تستطع قبوله إلا أن تترك زوجها.

فرُفض طلبها للمعونة.

ومع النصيب الأساسي لم يلزمها أن تقيم الدليل على نفعها.

تحقّق النظام من دخلها.

ومن التكاليف الإقليمية.

وعدد الأطفال الذين تعولهم.

واحتياجات الأسرة الصحية.

ووصل حسابها مبلغ بالإلار.

فتحت إلينا تفاصيل الحساب.

ورأت كل بيان دخل فيه.

وإلى جوار احتياج زوجها الصحّي وجدت إحالة إلى سجل محميّ. ولم يطّلع على التشخيص من لا يلزمه الاطّلاع عليه. واقتصر النظام على تأكيد الزيادة في كلفة الرعاية.

دفعت إلينا الإيجار.

وكان صاحب العقار يقبض بالعملة المحلية، فتولّى الجسر التحويل تلقائيًا.

وسدّدت فاتورة الطاقة.

وطلبت طعامًا.

وبقي لها بعض نصيبها.

للمرّة الأولى منذ بداية الثلث لم تُضطر إلى أن تختار أيّ أطفالها سيأكل أقلّ.

وكتبت ذلك المساء جملة واحدة في منتدى عام:

لا أريد إعانة تُعطى لي لأنني أخفقت. أريد نصيبي من عالم يمضي في عمله حتى حين لا أستطيع أن أعمل.

في أيام معدودة ردّد الملايين عبارتها.

ولم يُجمعوا على الموافقة.

قال أصحاب المنشآت المؤتمتة إن المجتمع يعاقب الكفاءة. لقد استثمروا في الآلات وتحمّلوا المخاطر، والآن يُنتظر منهم أن يتقاسموا الثمرة مع من حلّت الآلات محلّهم.

لكن حجّة جيساير أخذت تعود إليهم.

ما خرجت الآلات من عدم.

انتفعت بأبحاث موّلتها أجيال سابقة.

وبشبكات طاقة بنتها الدول.

وببيانات مليارات البشر.

وبالبنية التحتية للنقل.

وبالنظام القانوني.

وبموارد خارج الكوكب ما صنعها أحد بيديه.

وحتى أضخم مشروع خاص كان يقوم على أرضية لم يبنها بنفسه.

لذلك فرض مجلس الكوكب رسمًا على الإنتاج المؤتمت.

لا يُحسَب بعدد الروبوتات.

ففي مثل ذلك حافز للمنشآت أن تخفي آلاتها أو تدّعي أن بشرًا يقومون بالعمل.

كان الرسم يُحتسب بناءً على القيمة المتولّدة بأدنى قدر من التدخّل البشري، ومقدار الانتفاع بالبنية التحتية المشتركة.

واحتسابه معقّد.

ولهذا كان لا بدّ من إعلانه.

ترى المنشأة كيف توصّل النظام إلى ما ألزمها به.

ويرى المواطن كم من النصيب الأساسي مصدره الإنتاج المؤتمت، والضرائب، وعوائد الملكية المشتركة، والاحتياطيات.

وعند فرض الرسم بالذات تكشّف موطن ضعف قديم في إلاريون.

لم يستطع أحد أن يحدّد بدقّة أين نشأ الربح.

يقوم المصنع في الاتحاد.

وتملكه شركة من فاسيريا.

والبراءات في ملك صندوق بثيرينيث.

والخدمات الحاسوبية تُفوتر ضمن الولاية القضائية لثايرون.

وتذهب رسوم الترخيص إلى جزيرة جنوبية.

وعند نهاية السنة تقول المنشأة إنها لم تكد تربح شيئًا في الدولة التي جرى التصنيع فيها فعلًا.

هكذا كان يعمل عدد كبير من أنجح الشركات.

القيمة تنشأ في المصنع.

والربح يولد على الورق في مكان يكاد يخلو من العمّال والزبائن والآلات.

أقامت دول جزريّة صغيرة اقتصادات كاملة على نقل القيمة بحكم القانون من موضع إلى آخر.

وأتاحت ضرائب منخفضة.

وملّاكًا محميّين.

وصناديق لا يطّلع عليها العموم.

ونُظُمًا محاسبية خاصة.

وقوانين تجعل حجب المعلومة خدمةً للعميل عوض أن تعدّه عائقًا في وجه التعاون.

وردّت الدول الكبيرة برفع الضرائب.

كان عليها أن تموّل المستشفيات والمدارس والنقل والتعافي بعد الثلث والنصيب الأساسي.

كلما ارتفعت الضرائب، عظم العائد من التحايل عليها.

وكلما تسرّب مال أكثر، تعيّن رفع المعدّلات على من بقوا.

ودارت الدوّامة الضريبية.

ارتفعت الضرائب لأن كثيرين لم يدفعوها.

ولم يدفعها كثيرون لأنها مرتفعة.

وأمّا من دفعوها فازدادوا اقتناعًا بأنهم يُعاقبون على أنهم لا يملكون ما يكفي من النفوذ للإفلات.

لم يستطع الجسر أن يغيّر دفاتر الحسابات القديمة بأثر رجعي.

لكن المعاملات الجديدة بالإلار أظهرت أين نشأت القيمة فعلًا، وأيّ خدمات قُدّمت، ومن المستفيد النهائي.

ولم يعد من الهيّن، عند الدفع، أن يُفصَل الثمن عن طريقه.

أحالت كل معاملة مهمة إلى روابط الملكية والأساس التعاقدي والنظام الضريبي.

لم يكن كل شيء مكشوفًا لكل الناس.

لكن لم يبقَ شيء ذو بال مجهول الاسم تمامًا.

بعد ستة أشهر من النصيب الأساسي المؤقت، تبيّن أن النظام الكوكبي جنى إيرادات أعلى بمعدلات أقلّ مما جنت الدول القديمة بمعدلاتها الأعلى.

لا لأن الناس تعلّقوا فجأة بحبّ الضرائب.

بل لأن التهرّب فقد بعض دُجنته.

واقترح المجلس الاقتصادي تمديد النصيب الأساسي سنة أخرى.

صوّت دارين فولتر لصالح المقترح.

واستوقفته نيراي في الرواق بعد الاجتماع.

«حسبتُك ستعارض».

«ما زلت أعارض».

«لكنّك صوّتّ معه».

«لأن البديل أسوأ».

«يبدو لي هذا مطلعَ كل إصلاح».

نظر فولتر من وراء الجدار الشفّاف إلى نيترا.

ظلت المدينة مليئة بشقق خالية.

قال: «أصاب جيساير في شيء واحد».

نظرت إليه نيراي.

«في أيّ شيء؟»

«لا يُمكن أن نحتسب نصيبًا من قيمة لا يراها أحد».

«وفي شيء واحد فقط؟»

كاد فولتر يبتسم.

«لا تُكثري على الموتى من الانتصارات دفعة واحدة».

ثم عاد إلى جدّه.

«ومع هذا ما زلتِ لا ترين النتيجة».

«أيّ نتيجة؟»

«حساب موحّد. وطبقة ضريبية موحّدة. ونصيب موحّد. وعملة تسوية واحدة».

«نعم».

«لم تعد هذه معونة».

«صحيح».

«هذه أسس دولة».

نظرت نيراي إلى شارة الجسر الظاهرة فوق النهر.

«ربما».

«ومن سيمسك زمام تلك الدولة؟»

«هذا سؤال علينا أن نجيب عنه قبل أن يجيب عنه أحد بالنيابة عنّا».

مضى فولتر.

وبقيت نيراي عند النافذة.

وظهر تنبيه على واجهة عملها.

أنجز نظام التحليل التاريخي أول إعادة رسم للتدفّقات المالية المتصلة بالثلث.

فتحتها.

ظهرت على الشاشة آلاف المدفوعات.

وسُجلات لمؤسسات.

وأعمال سابقة.

وموارد أُنفقت.

وترتيبات سابقة.

وقرارات اتُّخذت.

وبيانات مسجّلة.

وتقديرات لخبراء.

وأموال سياسية.

كل ما رأته قبل الثلث متفرّقًا.

ها هو الآن مبسوط على خريطة واحدة.

وظلّ في الوسط موضع خالٍ.

لم يكن خاليًا لأن لا شيء هناك.

بل لأن أحدًا بذل جهدًا جهيدًا كي لا يكون هناك اسم.

كبّرت نيراي الصورة.

وقالت: «وجدنا الهيكل العظمي».

وحدّق تارين الواقف إلى جوارها في الخط الذي خرج من فيستا وامتدّ على الخريطة.

«والجسد؟»

«ما زال يتنفّس».

٣٥. الهيكل المالي للجائحة

لم يبدأ التحقيق في الثلث بالقبض على مشتبه به.

بدأ بحفظ البيانات.

في الأسابيع الأولى من الجائحة اختفت آلاف الشركات. بعضها لأن أصحابها ماتوا. وبعضها لأن عملها فقد معناه. وبعضها لأن القائمين عليها اغتنموا الفوضى واختفوا.

أُغلقت أرشيفات الحسابات.

وضمّت المصارف أنظمتها بعضها إلى بعض.

ومُحيت محتويات خوادم.

وأُقفلت بيئات الأبحاث المؤقتة بانتهاء عقود إيجارها.

في الظروف العادية كانت البيانات تُحفظ للمدد التي تقررها القوانين المحلية.

أما بعد الثلث فلم يعد أحد يدري أين تنتهي الوثائق التجارية وأين تبدأ أدلة أكبر جريمة في تاريخ إلاريون.

استصدرت نيراي أمرًا يسري على الكوكب كله بحفظ جميع السجلات المرتبطة بالتحقيق، بما فيها سجلات البحث والأرشيفات والمؤسسات التي ظهرت في الطبقة.

اعترضت ثلاث وعشرون دولة على الأمر.

منها من أراد صادقًا حماية حقوق مواطنيه.

ومنها من كان يحمي عملاءه.

أعلنت ثيرينيث أن تحقيقًا أجنبيًا لا يملك أن يجمّد بالجملة سجلات أملاك وحسابات أشخاص لم تُوجَّه إليهم شبهة بعينها.

فنشرت نيراي، ردًّا عليها، قائمة بالبيانات المفقودة.

لم تنشر محتواها.

نشرت فقط أسماء ما كان يفترض أن يكون موجودًا، ثم لم يعد له وجود.

في الشهر الأول من الجائحة تبدّلت أحوال سبعة صناديق.

وفي ملفات أربع مؤسسات ظهرت آثار انقطاع مفاجئ.

وأبلغ مكتبان للمحاماة عن ضياع ما كان ينتظره المحقّقون من وثائق.

أمّا فيستا، فلم يعد ممكنًا أن يقال على وجه اليقين ما الذي ظلّ في حوزتها.

كان يمكن أن يوجد تفسير بريء لكل خطوة على حدة.

أما مجتمعةً فبدت أشبه بالفرار.

وأرغم ضغط الرأي العام ثيرينيث على التراجع.

لكن مشكلة ظلّت قائمة.

لم تكن البيانات مكتوبة بلغة واحدة.

اختلفت أسماء المعاملة الواحدة باختلاف المصرف والدولة. ومع اتساع الصلاحيات القضائية الممنوحة للطبقة، صار في وسعها أن تقارن الوثائق وأن تتعرّف إلى المعاملة نفسها، وإن تبدّل وصفها القانوني.

وهذه المرة لم يكن البشر وحدهم في مواجهته.

فالأنظمة التحليلية التي كانت تصل الإمدادات بالإنتاج إبّان إعادة الإعمار أُوكلت إليها مهمة جديدة.

لم يكن عليها أن تعثر على المذنب.

كان عليها أن تعثر على أوجه التطابق.

مدير واحد.

عقدة اتصال واحدة.

تعاقب زمني واحد.

صيغة قانونية واحدة.

ومن تعود عليه المنفعة الاقتصادية في النهاية واحد.

رفضت نيراي أن يقيّم الذكاء الاصطناعي مقدار ذنب كل شخص.

قالت لفريقها: «تستطيع الآلة أن ترينا أين التقى طريقان. لكنها لا تملك أن تحكم لماذا سلكهما الناس».

اعترض أحد المحللين: «من دون تقييم المخاطر سنحصل على ملايين الصلات».

«فليكن».

«لن يستطيع البشر تفحّصها كلها».

«إذًا استخدموا الآلة لترتيب الأدلة، ودعوا الناس وشأنهم».

«الفرق ضئيل».

«سل عن ذلك الإنسان الذي ستصفه بالمذنب».

وهكذا اشتغل النظام على الوقائع.

دفعة.

عقد.

تبدّل في الملكية.

استئجار قدرة تشغيلية.

منح استثناء.

اطّلاع على بيانات.

ولم ينظر المحققون في أمر الأشخاص إلا بعدما اتصلت الوقائع بعضها ببعض.

جاء أول خيط يُعتمد عليه من مكان ما كان لأحد أن يظن أن القول الفصل سيأتي منه.

من شركة تأمين.

قبل الثلث، كانت إحدى المؤسسات قد كلّفت الشركة أن تقدّر ما يمكن أن تخلّفه كارثة صحية من خسائر.

تلقت شركة التأمين مسألة افتراضية.

ولم تعلم أنها تمس مشروعًا بيولوجيًا حقيقيًا.

سلّمت تقريرها عبر مستودع مؤمّن. وعند التسليم سُجّل الجهاز الذي فُتح عليه الملف.

لم يكن ثمة اسم إلى جانب الجهاز في السجل.

عرفوا أنه كان في نيترا.

ووجدوا في الأوراق ذكر شركة.

ووراء الاسم أسماء أخرى.

أمّا اسم من كان يعنيهم فلم يجدوه.

هنا كان النظام القديم سيقف.

أمّا التحقيق الجديد فقابل بين شهادات متفرّقة حتى لاحت منها صورة أوضح.

على الجهاز نفسه فُتحت جملة من الملفات.

تقارير لم يسبق أن قُرئت معًا.

ورأي قانوني.

ووثيقة تخصّ مؤسسات الطوارئ.

ونتائج بحث.

ووثيقة تحمل عنوان «اختبار العمى».

والتقت الملفات كلها في مسكن واحد.

مسكن أريين كورفيث.

تحقّق تارين من النتيجة ثلاث مرات.

«هذا لا يثبت بعد أنه هو من فتحها».

قالت نيراي: «لا».

«ربما كان شخص آخر يستعمل الجهاز».

«نعم».

«في البيت خدم».

«كان فيه خدم».

«وله زوّار».

«نعم».

نظر إليها تارين.

«أما يسعك أن تفرحي ولو مرة؟»

«حين يكون بأيدينا دليل».

وجاء الدليل التالي من أرشيفات الأنساب.

كانت ماريا قد سجّلت قبل الثلث أنها التقت أريين. أما حديثهما فلم تسجله. لم يكن من حقها أن تسجّل محادثة خاصة خِفية.

لكن النظام حفظ توقيت اللقاء ودخولها وتأكيده للزيارة، ثم اطّلاعه بعدها على بيانات بحثية محمية.

بعد انصراف ماريا بدقائق، فتح أريين وثيقة تتعلق بالأبحاث الخاصة بالأوريليين.

وبعد ساعة اتصل بكايل ثورن.

وفي اليوم التالي تمّت الدفعة الأخيرة.

ومع ذلك ظلّ تعاقب الأحداث وحده عاجزًا عن إثبات القصد.

ثم عثروا على رسالة من مختبر.

ساور الشك باحثة عملت في المشروع. فأرسلت تسأل من كلّفها بالعمل.

سألته إن كانت النتائج ستُستخدم على نحو يعرّض جماعة من الناس للخطر.

وكان الجواب مقتضبًا.

نُفي الخطر الذي خشيته الباحثة، وطُلب إليها أن تواصل العمل.

لم تحمل الرسالة توقيعًا سوى رمز المشروع.

وأظهر تحليل الأسلوب شبهًا بينها وبين رسائل أريين.

رفضت نيراي أن تتخذها دليلها الرئيس.

«تشابه العبارة لا يرقى إلى توقيع».

فتح تارين البيانات التقنية.

«لكن مفتاح الإرسال يرقى إليه».

كان المفتاح قد أُنشئ في مسكن أريين.

في تلك اللحظة لم يعد اسمه مجرّد شبهة.

طلبت نيراي إذنًا بالتفتيش وضبط الأجهزة وتقييد حركته.

وجاء الرد من النظام القضائي بأن الرجل غائب عن عنوانه المسجّل منذ شهرين.

كان مسكن أريين خاليًا.

لم يهجره صاحبه مذعورًا.

بل أخلاه إخلاءً.

اختفت أمتعته الخاصة.

ونُقلت الحسابات.

وأُلغيت أذون الدخول.

وعلى أحد الجدران مستطيل أفتح لونًا خلّفته لوحة رُفعت من مكانها.

لم يبق في الخزانة سوى إناء أزرق داكن.

سليم.

يرقد على جانبه.

عرفته نيراي من صور ماريا القديمة.

كان إناءها.

حملته بين يديها.

على حافته سحجة صغيرة.

ولا شيء سواها.

حاول أريين أن يحطمه، وحتى هذه لم يُفلح فيها.

سألت: «متى رحل؟»

فتح المحقق سجلات المنزل.

«في الشهر الأول من الجائحة».

«إلى أين؟»

«اتجهت مركبته الخاصة نحو الحلقة المدارية».

«وبعدها؟»

«وجهتها الأخيرة مفقودة من السجل».

نظرت إليه نيراي.

«السفن لا تتبخّر».

«أثرها التالي على ثايرون. لا يخبرنا السجل إلا بالقليل».

«مَن هو؟»

«لا نعرف. عاد بنا التحقيق مرة أخرى إلى ثيرينيث».

كادت نيراي تضحك ضحكةً متعبة.

حتى في فراره ظلّ أريين وفيًّا للعالم القديم.

حسب أن أحدًا لن يملك أن يقتفي أثره حتى نهاية الرحلة.

لم يكن في وسع الجسر بعد أن يرى الرحلات الخاصة القديمة.

لكن شبكات الطاقة والإمداد في ثايرون كانت قد انضمّت إلى جهود إعادة الإعمار.

تُبلّغ كل قبة عن استهلاكها من الماء والطاقة والأكسجين والطعام.

وعثر نظام التحليل على مكان ظلّ استهلاكه، زمنًا طويلًا، يفوق ما يحتاج إليه سكانه المسجّلون.

قبة خاصة عند طرف المستوطنة الشمالية.

خالية في الأوراق الرسمية.

تردها المؤن بانتظام.

ويملكها صندوق آخر.

حدّقت نيراي في الخريطة.

«اطلبوا من ثايرون أن يقبضوا عليه».

تردّد تارين.

«وصلنا ردّ إدارة ثايرون بالفعل».

«ومتى سألناهم؟»

«لم نسألهم. أرسل النظام إليهم تنبيهًا تلقائيًا حين ظهر تطابق مع اسم شخص فُرض قيد على حركته».

«وماذا قالوا؟»

«يقولون إنهم لا يملكون سندًا قانونيًا كافيًا لدخول قبة خاصة».

وضعت نيراي إناء ماريا على الطاولة في أناة.

«ثلاثة مليارات قتيل لا يكفون سندًا قانونيًا؟»

«يقولون إن ما بأيدينا أدلة مالية وبيانات. وليس فيها دليل مباشر على أن أريين أنشأ الخطر البيولوجي أو أطلقه».

«عندنا جهازه. ومفتاحه. وتمويله. وفراره».

«عندنا بنية».

«أما هو فكانت عنده الصورة كاملة».

«وهذا ما علينا إثباته».

نظرت نيراي إلى خريطة القبة.

«إذًا دعوه يتكلّم».

رفضت سلطات ثايرون التدخل علنًا.

وبعد ساعتين نشرت الطبقة جزءًا من خريطة الأدلة.

من دون بيانات صحية شخصية.

ومن دون تفاصيل بيولوجية تقنية.

لم تُظهر إلا ما كان لا بد أن يظهر.

المؤسسات.

الدفعات.

التكليفات البحثية.

الجهاز.

مسكن أريين.

فراره.

وقبة خاصة ظلّت هوية مالكها محجوبة.

وأدرك الناس إلى من تشير الأدلة قبل المحكمة.

وبدؤوا يتجمعون أمام القبة.

لم يحملوا سلاحًا.

كانوا أهل الموتى.

يحملون صور موتاهم.

ويضعونها عند المدخل.

واحدةً تلو أخرى.

أوفدت إدارة ثايرون وحدات أمنية لتحول دون العنف. توقّعت هجومًا، فلم تجد إلا صمتًا. آلاف الوجوه مفروشة على تراب كوكب غريب.

في اليوم الثالث أصدرت المحكمة الإذن.

دخلت وحدات الأمن القبة.

كان أرييين كورفيث جالسًا إلى المائدة.

لم يفرّ.

وكان أمامه بثّ حيّ للحشد.

ينظر إلى الصور.

وحين أمروه أن يقوم، قام.

«أنت موقوف للاشتباه في اشتراكك في الإعداد للأحداث التي أفضت إلى الثلث وتمويلها».

ابتسم أرييين ابتسامة خفيفة.

«لم يكن المال هو الذي أحدث الثلث».

لم يجبه قائد الوحدة.

مدّ أريين يديه للقيد.

«كان الناس».

«ذلك ما تفصل فيه المحكمة».

قال أريين: «لا. المحكمة ستفصل في أمري أنا».

ونظر مرة أخيرة إلى الصور أمام القبة.

«وبذلك يخرج سائرهم أبرياء».

٣٦. الرجل الذي كانت الخريطة في يده

لم ينقلوا أريين إلى نيترا.

كان في ذلك خطر.

لا عليه.

بل على المدينة.

كان عشرات الآلاف يتجمعون أمام مبنى الطبقة. يطالب بعضهم بمحاكمة علنية، ويطالب آخرون بموته على الفور. وتعالت أصوات تدعو إلى طرد الفيرانيين جميعًا وإغلاق بيوتهم المالية ومصادرة أملاكهم.

على شاشات البث العام ظهر وجه أريين إلى جوار عدد الضحايا. كان المذيع يتحدث عن اعتقاله وأدلة التمويل، فيما أخذ أحد ضيوفه يطالب بإصدار الحكم، والآخر بإغلاق المؤسسات الفيرانية كلها. وتحت الصورة مرّت أسماء من لا يزال البحث عنهم جاريًا.

تابعت نيراي البث بضع ثوان. أمرت بتصحيح خطأ في توقيت الاعتقال وطلبت أن ينشر المكتب ما تدعمه الأدلة فعلًا. على الشاشة أخذ أريين يصير الوجه الوحيد للكارثة كلها. أما التحقيق فكان لا بد أن يمضي حتى بعد استجوابه.

رفضت نيراي الإفصاح عن مكان احتجازه.

وكان أريين يعلم أن بقاء مكانه سرًّا ممّا تتوقف عليه حياته.

جرى الاستجواب الأول عبر اتصال مؤمّن.

عند أحد طرفيه جلس أريين في غرفة بيضاء بلا نوافذ.

وعند الطرف الآخر جلست نيراي مع محققَين وممثل المحفل القانوني ومحامي أريين.

لم ترغب نيراي في حضور الاستجواب.

فهي شقيقة أحد الضحايا.

وحضورها قد يثير الشكوك في حياد التحقيق.

غير أنها كانت أعرف الناس بالخريطة المالية.

وكان أرييين قد طلبها بالاسم.

قال: «لن أتحدث إلا إليها».

أجابه المحامي: «ليس لك أن تختار من يستجوبك».

«إذًا لن أتكلّم».

وافقت نيراي.

لم يكن يعنيها أن تنزل عند رغبته.

كان يعنيها أن تعرف لماذا وقع اختياره عليها.

وحين فُتح الاتصال، أطال أرييين النظر إليها.

«ليس بينكما من الشبه بقدر ما توقّعت».

«بيني وبين مَن؟»

«جيسايير».

«أكنت تعرفه؟»

«لا».

«قتلته».

تحرّك محامي أرييين في مقعده.

«موكّلي...»

قال أرييين: «دعها».

وضعت نيراي أمامها إناء ماريا الأزرق الداكن.

ورآه أرييين.

تغيّر وجهه.

لحظةً وحسب.

«عثرنا عليه في شقّتك».

«كان لماريا».

«أعلم».

«لماذا جئت به؟»

«ليكون أمامك ما تنظر إليه وأنت تكذب».

تدخّل المحامي من جديد.

«هذه الطريقة في الاستجواب...»

سأل أريين: «هل أستطيع الانصراف؟»

«لا».

«إذًا لا أهمية للطريقة».

فتحت نيراي خريطة الأدلة.

«أتعرف هذه المشاريع؟»

«بعضها».

«أموّلتها؟»

«ليس بصورة مباشرة».

«هل دبّرت تمويلها؟»

«ليس كلّها».

«أيّها إذًا؟»

أسند أريين ظهره.

«تسألين كأنما كان هناك مشروع واحد».

«كان هناك قصد واحد».

«القصد ليس حسابًا مصرفيًا».

«ولهذا أخفيته».

نظر أرِيين إلى الخريطة.

«كل مشروع من هذه المشاريع كان قانونيًا».

«إذا أخذته منفردًا».

«لا يحكم المرء على قانونية شيء بما يرسمه أحد حوله في ما بعد».

«كثيرون عملوا في هذه القضية. ولم يعرفوا أيّ مصير كنت تُعدّ لهم وللآخرين».

«ليس كل ما أعرفه شأنًا يخصّ سواي».

«بل هكذا صُنتَ نفسك من أن يرى أحد الصورة كاملة».

لم يُجب أرِيين.

كبّرت نيراي المخطط.

«كلٌّ رأى جزءًا. أما أنت فكانت الخريطة في يدك».

لقد تصرّفوا كما ينبغي.

عاد إليه صوت أبيه قبل أن يتسنّى له أن يهيئ جوابه. كم كره تلك العبارة قديمًا. وها هي ذي اليوم مبسوطة أمامه في عقود واستثناءات وتواقيع.

«أتعتقدين أن الخريطة جريمة؟»

«نعم، إذا دلّت على الطريق إلى ثلاثة مليارات جثة».

أطرق أرِيين بعينيه نحو الإناء.

«لم أخطط لثلاثة مليارات».

«لكم إذًا؟»

انحنى محاميه نحوه.

ولم يلتفت إليه أريين.

«كان ينبغي للأزمة أن تكشف هشاشة إيمان الأوريليين بأنهم قوم استثنائيون».

«لكم؟»

«لم يكن هناك عدد محدّد».

«أسرة واحدة؟ مدينة واحدة؟ فرع واحد من سلالة؟»

«أردت تغيير ميزان القوى».

«بكم ميت يستقيم الميزان؟»

رفع أريين عينيه.

«تسألينني ما يسأله رجال دولتكم في كل حرب. كم ضحية نقبل ثمنًا لسلام مقبل؟»

«أنت لم تبدأ حربًا».

«لا».

«في الحرب يعرف العدو على الأقل أن هناك من يصوّب نحوه».

ظلّ وجه أريين ساكنًا.

«قرونًا والأوريليون يغيّرون إلاريون من دون أن يصوّت الآخرون على ذلك».

«بمجرّد وجودهم؟»

«بما كانوا يمثّلونه».

«ماريا تركتك».

شهق المحامي.

وتصلّب أريين.

تابعت نيراي:

«لم تكن هذه حربًا على الأوريليين. كان جرح رجل استعصى عليه أن يقبل أن المرأة ليست من أملاكه».

«أنت لا تعرفين شيئًا عن علاقتنا».

«أعرف أنها قالت لا».

«تركَتني وذهبت إليه».

«لم تكن شيئًا انتقل من يديك إلى يدي جيساير».

«وهبها حكاية تستطيع فيها أن تكون أكبر مما هي».

«وأنت وهبتها عالمًا كُتب عليها فيه أن تموت».

نهض أرييين.

وما لبث نظام الأمن أن أمره بالجلوس.

ظلّت نيراي تراقبه.

«اجلس».

«لم آت لأتحدث عن ماريا».

«فلماذا أردت أن تتحدث إليّ أنا؟»

بقي أرييين واقفًا.

ثم جلس على مهل.

«لأنك الوحيدة التي تعرف أنني ما كنت لأقدر على ذلك وحدي».

لم تُجبه نيراي.

وأشار أرييين إلى الخريطة.

«يتظاهر كوكبكم الآن بأنه عثر على الوحش. رجل واحد خدع المصارف والعلماء والمختبرات والحكومات وأنظمة الذكاء الاصطناعي».

«لا أحد يقول إنك خدعتهم».

«حقًّا؟»

«معظمهم لم يدرِ فيمَ كان يعمل».

«ولِمَ لم يدرِ؟»

صمتت نيراي.

قال أرييِن: «لأنه لم يرغب في أن يدري. رأى كلٌّ من هؤلاء في عمله ما يُرضي ضميره. ولم يشأ أن يسأل عمّا ينتظر الناس في آخر الطريق».

«وأنت صنعت ذلك العمى».

«لا. استغللته».

«بمساعدة كايل ثورن».

لأول مرة لم يُجب أرييِن من فوره.

قال أخيرًا: «كايل هو من أتاح التمويل».

«أكان يعرف غايته؟»

«كان يعرف ما يكفي».

«أكان يعرف الغرض البيولوجي؟»

«كان يعرف أن الغاية إحداث أزمة».

«ومداها؟»

«لا».

«لماذا ساعدك؟»

ارتسم على شفتي أريين شبه ابتسامة لا فرح فيها.

«لأن جيساير اقترح عالمًا لا يعود في وسع كايل فيه أن يظلّ من كان».

فتحت نيراي تسجيل منتدى نيترا.

كان جيساير يتحدث عن سلطة المال حين تكون مرئية.

عن المالكين الفعليين.

وعن وجوب أن يترك كل اطّلاع أثرًا.

وكان كايل جالسًا في القاعة.

قالت نيراي: «أراد أن يوقف الشفافية».

«أراد تأجيلها. إبطاءها. الحطّ من قدرها. أراد صراعًا يُظهر أن العالم المفتوح عالم خطر».

«وأنت أعطيته الثلث».

«هو أعطاني المال».

«أين هو؟»

«لا أعلم».

«تكذب».

«كايل فقد ثقته بي قبل أول حُمّى».

«حاول إيقاف المشروع».

«بعد فوات الأوان».

«لماذا؟»

نظر أريين إلى الوجوه على خريطة الأدلة.

«لأنه أدرك أنه فتح الطريق لرجل لا يقف عند حدوده هو».

«وهل كانت لك أنت حدود؟»

«كنت أحسب ذلك».

نظر أرِيين إلى الإناء الأزرق الداكن. ما زالت على حافته سحجة دقيقة، لم تخفَ عليه ولو من خلال الشاشة.

والآن قل لي كيف جرى الأمر حقًّا.

أتاه صوت أمه من الوضوح بحيث اضطر إلى أن يغضّ بصره. هكذا كانت تسأله كلما حاول أن يستر خطأه بتفسير أحكم نسجه.

قال: «كنت صبيًّا حين ماتت أمي في حادث سير. لم تكن هناك سوى مركبة واحدة للعناية المركزة. وأخذ المسعفون طفلًا له عينا أوريليّ».

التفت إليه محاميه، لكن أرِيين واصل حديثه.

«طلب أبي السجلات كلّها. وقال لي إن المسعفين تصرّفوا كما ينبغي. وعاش الطفل».

سألت نيراي: «وأمّك؟»

«ماتت في الطريق إلى المستشفى».

مسّ أرِيين حافة الطاولة.

«وقبل أن يُنقل الصبي، كانت هي من قالت لهم أن يأخذوه».

مضت عقود لم يقل فيها تلك الجملة بصوت مسموع.

كانت نيراي تعرف وثيقة أخرى تحمل اسمه. فتحت ذلك المقترح القديم لتوفير مركبات إسعاف احتياطية وأدارت السجلّ نحوه. «بعد ذلك الحادثَ اتخذت تدابير جعلت المسعفين أقل اضطرارًا إلى الاختيار بين جريحين».

تأمّل أرِيين أعداد الناجين. «كنت يومها ما أزال أؤمن بأن تغيير القاعدة يكفي».

أغلقت نيراي السجلّ. الذين مدّ إليهم يد العون ظلّوا أحياء، والذين على خريطة الأدلة ظلّت تبعتهم في عنقه.

سألت نيراي: «ماذا أردت أن تغيّر؟»

لم ترفع صوتها. لكن أرييين سمع وراء كلماتها سؤال أمّه من جديد.

قال: «أردت ألّا تنفع الدائرة الذهبية أحدًا ولو مرة. أن يُهزم جيساير. أن ترى ماريا أنها أخطأت فيه. أن يبقى سواي واقفًا ينتظر أمام باب لن ينفتح».

بسط المحامي كفّه على الطاولة. لم ينظر إليه أرييين.

قالت نيراي: «كان على المسعفين يومئذٍ أن يختاروا أيّ الجريحين يسعهم إنقاذه في الوقت الباقي. أما أنت فعرّضت الناس للخطر بسبب أصلهم. حتى الأطفال».

فتح أرييين فمه. ولم تصلح واحدة من عباراته التي ردّدها سنين لتكون جوابًا.

تراءت له يد أمّه والصبي خلف الزجاج. يومها كانوا يحاولون إنقاذ طفل لا يعرفونه. أما الصبي الذي في الصورة فهو من عرّضه للخطر.

طال به مقتُ عبارة أبيه «لقد تصرّفوا كما ينبغي»، حتى صنع نظامًا في وسع كل من فيه أن يتلفّظ بها إلا هو. هو من كان يعرف المآل الذي يتّجه إليه عملهم.

هبط صمت لوهلة.

نظرت نيراي إليه.

لم يكن الجالس أمامها وحشًا من وحوش الحكايات.

كان إنسانًا.

وذلك أسوأ.

فالوحش خارج عن البشر.

والإنسان يكشف ما قد ينشأ بينهم.

كررت: «أين كايل؟»

«على ثايرون».

«أين؟»

«لو عرفت لسلّمته إليك».

«لماذا؟»

أراح أريين ظهره.

«لأنني أنا من سيحمل أسماء الموتى. أما هو فسيظل يتحدث عن الحرية».

استمر الاستجواب ست ساعات أخرى.

اعترف أريين بأنه جمع المشاريع.

ولم يعترف بإطلاق المرض.

وقال إنه لم يكن يدير اللحظات الأخيرة بنفسه، وإنه لم يعرف أين وقعت البداية ولا متى على وجه الدقة.

لكنه أعطى المحققين رموزًا وأسماء وسطاء وكشف لهم جوانب من البنية المالية.

لم يفعل ندمًا.

بل لحاجته إلى من يتقاسم معه الذنب.

حين أوشك الاتصال على الانتهاء، نظر أريين إلى نيراي مرة أخرى.

«ماذا ستفعلون بعد أن تحكموا عليّ؟»

«سنواصل».

«إلى أين؟»

«إلى من مهّدوا لك الطريق».

«وبعدهم؟»

«إلى النظام الذي حجبه».

ابتسم أريين قليلًا.

«إذًا ستفعلون في نهاية الأمر عين ما خافه كايل».

«لن نفعله لأجله».

«لأجل جيساير؟»

نظرت نيراي إلى الإناء الأزرق الداكن.

«لأجل الذين لم يعد في وسعهم أن يروا ما حلّ بعالمهم».

انقطع الاتصال.

وبقي أرييين وحده في الغرفة البيضاء.

فتحت نيراي وثيقة جديدة.

ستكون تقريرًا أوليًا عن أسباب الثلث.

كتبت في السطر الأول:

أرييين كورفيث هو من عقد النيّة.

ثم توقفت.

وفي الثاني:

كايل ثورن هو من أتاح له السبيل المالي والسياسي.

وفي الثالث:

بفعل مؤسسات إلاريون لم يرَ الأجزاء كلها مجتمعةً سوى الجناة.

قرأت تلك الجمل.

أرييين.

كايل.

النظام.

ذنب الفرد.

الشراكة في الذنب.

عَمى حضارة.

لو أغفلت الأوّلين لتوارى المجرمون خلف المجتمع.

ولو أغفلت الثالث لأدان المجتمع المجرمين وأبقى الظروف مهيأة لمن سيأتي بعدهم.

حفظت نيراي الوثيقة.

وكان عنوانها:

ليس أريين وحده.

٣٧. ليس أريين وحده

نُشر التقرير الأولي يوم سجّل إلاريون، لأول مرة منذ الثلث، مواليد أكثر من الموتى.

اختارت وسائل الإعلام من التقرير اعتراف أريين.

واختار الناس اسم كايل.

والمصارفُ الثغرات القانونية.

والدولُ سُلطات القضاء الأجنبية.

وجد كلٌّ في التقرير فقرة تشير إلى سواه.

أعلنت ثيرينيث أنها لم تنتهك أيّ قانون.

وكان هذا صحيحًا.

فقد حمت سجلّاتها المالكين وفق القواعد المعتمدة بحذافيرها.

وأعلنت المصارف أن الدفعات كلّها خضعت للفحص.

وكان هذا صحيحًا أيضًا.

قالت الأوراق إن المصارف أدّت ما كلّفتها به القواعد المحلية.

وقالت المؤسسات إنها لم تكن تعلم الغرض الأخير من المشاريع التي موّلتها.

وكان هذا صحيحًا في معظم الحالات.

وقالت المختبرات إنها بحثت مسائل علمية مشروعة.

صحيح.

وقال المحامون إنهم أبدوا الرأي في قضايا افتراضية.

صحيح.

وشركات التأمين قدّرت المخاطر.

صحيح.

وشركات النقل أتمّت ما تعهّدت به.

صحيح.

والأحزاب السياسية قبلت تبرّعات مسموحًا بها.

صحيح.

كان كل شيء تقريبًا صحيحًا.

ولهذا بالذات أمكن أن تنشأ كذبة بتلك الضخامة.

مثلت نيراي أمام مجلس التحقيق الكوكبي.

وخلفها خريطة الهيكل المالي للثلث.

قالت: «لم نعثر على خزينة سرّية واحدة. ولم نقع على دفعة كُتب عليها أنها لتمويل كارثة. ولم نجد مؤسسة واحدة كانت تعرف الخطة بكاملها».

وأشارت إلى الخطوط المتفرّقة.

«وجدنا ما هو أخطر. نظامًا أمكن كلَّ واحد فيه أن يقول الحقيقة عن جزئه الصغير، ويساهم، في الوقت نفسه، في صنع كذبة الكل».

جلس في القاعة ممثلو الدول الأربعين جميعًا.

وخلفهم أهالي الضحايا.

وظلّت في الصف الأول مقاعد شاغرة.

كان من المفروض أن يجلس فيها ممثلو مجالس السلالات الأوريلية.

ومعظم تلك المجالس لم يعد لها من يمثّلها.

تابعت نيراي: «أريين كورفيث مسؤول عن القصد والتنسيق وتسخير الأنظمة عن علم لتنفيذ الاعتداء. وكايل ثورن أوجد البنية المالية والسياسية التي أتاحت وقوعه. وآخرون اتخذوا قرارات وهم يعرفون أكثر مما يقرّون به اليوم».

وعلى الشاشة ظهرت الصناديق والتبرّعات الحزبية وروابط الملكية في فيستا.

«ولكن إن كان كل ما نخرج به أن أناسًا أشرارًا أساؤوا استخدام نظام صالح، فنحن لم نتعلّم من الثلث شيئًا».

سرت في القاعة موجة من الاضطراب.

«لم يكن النظام صالحًا. كان أعمى، وقد صار عماه تجارة».

كبّرت على الخريطة الدوائر القضائية في الجزر.

«كانت الدول تتاجر بالسرّية. والمصارف تتاجر بالحواجز. والصناديق تبيع ملكية لا اسم لها. والمحاسبون يبيعون إمكانَ ظهور الربح في غير الموضع الذي نشأت فيه القيمة. أما قواعد السياسة فكانت تبيع نفوذًا لا يُرى مصدره».

طلب ممثل ثيرينيث الكلمة.

«تصفين الحماية القانونية للخصوصية بأنها تجارة بالجريمة».

أجابت نيراي: «كلّا. أقول إن حماية الخصوصية صارت تجارة بالسلطة».

«لم يُدَن موكّلونا».

«لأننا لم نكن نعرف أسماءهم».

«هذا لا يثبت أنهم مذنبون».

«لا. لكنه يثبت أنه لم يكن في وسعنا أصلًا أن ننظر في مسألة ذنبهم».

«لكل مواطن الحق في أن يصون ماله من دولة أجنبية».

«ولكل مواطن الحق في أن يعرف من الذي يموّل السياسة بماله، ويملك مستشفاه، أو يدفع نفقات بحث يهدّد حياته».

استند الممثّل إلى ظهر كرسيه.

«ومن يرسم الحدّ؟»

«تلك، على وجه الدقة، هي المسألة التي ينبغي للمحفل أن يحسمها».

لأول مرّة قيلت الكلمة على الملأ.

محفل الكوكب كله بعد الثلث.

كان للمحفل الكوكبي أن يتجاوز صيغة الاجتماع الطارئ للحكومات.

ولم يكن ليكون مجرّد مؤتمر اقتصادي.

كان عليه أن ينظر في الأسس نفسها التي يقوم عليها إلاريون.

أيّد الاتحاد المقترح.

ثم أيّدته معظم الدول السيلينيّة.

وعدد من مجالس الأوريليين التي ما زال لها وجود.

أما الحكومات الفيرانية فانقسمت.

منها من أيّد الإصلاح. فمن أهلها أيضًا من مات في الثلث. وهم أيضًا فقدوا أهلًا ومدنًا ومستقبلًا.

وقال آخرون إن التحقيق يتحوّل إلى محاكمة جماعية للفيرانيين.

على ثايرون ظهرت أولى الحركات الرافضة لشفافية تشمل الكوكب كله.

وكان قادتها يقولون:

لا يجوز أن يصبح الثلث ذريعة لإقامة حكومة واحدة.

لا يجوز لجريمة أريين أن تسلب مليارات الأبرياء خصوصيتهم.

قد تصير العملة الموحّدة طوقًا في العنق.

وبالمال المرئي تستطيع الحكومة أن تقضي على أي معارض بأمر حظر واحد.

كان في كثير من تلك الحجج وجاهة.

وذلك تحديدًا ما جعلها أخطر من الأكاذيب الصريحة.

وظهر بين الناطقين باسم الحركة الجديدة على ثايرون رجل لم يكن اسمه معروفًا للعامة.

لم يُسمع له إلا صوت.

وكان يقول إن إلاريون يحتاج إلى طريقين لحضارته.

أحدهما مفتوح.

والآخر حرّ.

استمعت نيراي إلى خطابه الأول.

وبعد ثلاث جمل عرفت المتكلم.

كايل ثورن.

غيّر نبرته.

وأبطأ في كلامه.

واستعمل اسمًا آخر.

لكن طريقته في فصل السلطة عن المسؤولية بقيت على حالها.

سألت سايرا: «أتستطيعين إثبات أنه هو؟»

«لا».

«وتحليل الصوت؟»

«الاحتمال ليس دليلًا».

«أريين يقول إنه على ثايرون».

«أريين يقول أشياء كثيرة».

«أنطلب القبض عليه؟»

أغلقت نيراي البث.

«علينا أولًا أن نعرف بأي تهمة على وجه الدقّة».

«ساهم في تمويل الثلث».

«لدينا أدلّة على مسارات المال. ولدينا محاولته إيقاف المراحل الأخيرة. أما أنه كان يعلم المدى، فليس لدينا دليل عليه».

«هو من فتح الباب».

«نعم».

«وها هو يتحدث اليوم عن الحريّة».

«حتى المذنب قد يكون مُحقًّا في اعتراضه».

نظرت إليها سايرا.

«هذا كلام جيساير».

«لا».

أعادت نيراي فتح التسجيل.

«هو كان سيقوله على نحو أجمل».

حُدّد لانعقاد المحفل يوم الذكرى الأولى لبلوغ عدد الموتى ثلاثة مليارات.

واختيرت نيترا مقرًّا له.

القاعة نفسها التي قال فيها جيساير قبل سنوات إنه لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ.

أقاموا أمام المبنى جدارًا للأسماء.

بعض الأسماء.

فما من مكان واحد يتّسع لثلاثة مليارات اسم.

لذلك كان الجدار يعرض كل يوم جزءًا آخر من القائمة.

وكانت تمرّ أعوام قبل أن يتكرّر اسم.

في يوم افتتاح المحفل أضاءت الجدار أسماء أناس من أوريولا.

بينهم:

جيساير دافيون.

ماريا ليورن.

جاءت نيراي قبل شروق الشمس.

ووضعت أمام الجدار الإناء الأزرق الداكن.

لم تتركه هناك.

عادت بعد برهة فحملته.

بعض الأشياء ليست للنُّصُب التذكارية.

هي للأحياء الذين لا يزال عليهم أن يتمّوا حكايتها.

٣٨. المحفل بعد الثلث

قبل دخول القاعة استمعت نيراي إلى مقتطف من أخبار الصباح. امرأة تدير، منذ الثلث، مطبخًا يطعم أهل الحيّ أرادت أن تعرف من سيحق له مراقبة أموال الجميع. وصاحب ورشة إصلاح صغيرة خشي أن يتمكّن النظام الجديد حتى من رؤية ما يدفعه زبائنه. كلاهما ثُكل بأحبّته، ولم يجمعهما ذلك على رأي واحد في المقترح.

قالت المذيعة: «سيُبحث اليوم أيضًا أين يقع الحدّ الفاصل بين السلطة العامة والحياة الخاصة. وهو حدّ لا يزال خافيًا على كثيرين».

أطفأت نيراي البث ودخلت. كان اعتراض صاحب الورشة مدوّنًا في ملاحظاتها هي أيضًا.

ظلّ ثلث المقاعد في القاعة خاليًا.

لم يكن الثلث حصيلة حساب دقيق لعدد المندوبين الذين ماتوا.

كان خيار المنظّمين.

في كل ثلاثة صفوف أغلقوا صفًّا.

لم تحمل تلك المقاعد أسماء.

مجرّد خطّ رفيع من الضوء.

وحين جلس المندوبون فرّقت الصفوف الخالية بين الأحياء كما فرّق الثلث بين أفراد الأسرة الواحدة، وشطر المدن والتاريخ.

لم يستطع أحد أن ينظر إلى المنصّة من دون أن تقع عينه على مكان خالٍ كان لأحد.

لم يكن للمحفل رئيس واحد.

أداره مجلس يضمّ ممثلين عن الدول وتجمّعات المواطنين والمؤسسات المتخصصة ومجالس السلالات وثايرون.

وكان ذلك أيضًا حلًّا وسطًا.

لم يشأ أحد أن ينفرد رجل واحد بإدارة محفل عُقد للحدّ من السلطة.

لم تأتِ نيراي بوصفها سياسية.

لم ترشّح نفسها.

ولم تمثّل دولة.

وقفت أمام المحفل بصفتها رئيسة التحقيق في الخلفية المالية للثلث.

فوقها ظهر اسمها.

نيراي سايل.

الهيئة المشتركة بين الدول للنزاهة المالية والمخاطر النظامية.

نطاق الإفصاح عن المصالح: كامل.

نظرت إلى الصفوف الخالية.

ثم بدأت.

«قبل سنة أعطينا الكارثة اسمًا».

وظهر على الجدران عدد.

ثلاثة مليارات ومئة وأربعة وعشرون مليونًا.

«سمّيناها الثلث، لأن العقل البشري يحتاج إلى كلمة واحدة حين لا يقوى على حمل مليارات الأسماء».

اختفى العدد.

وحلّت محلّه وجوه.

أطفال.

نساء.

رجال.

من الفروع الثلاثة كلها.

«لن أتحدث اليوم عمّا فقدناه. فلو فعلنا لما انتهينا. سأتحدث عمّا كشفه موتهم».

وعلى الشاشة ظهر الهيكل المالي.

«أول الأسباب التي توجب علينا تغيير نظامنا النقدي هو الجائحة».

تحرّك بضعة أشخاص في مقاعدهم.

كان بعضهم ينتظر خطابًا عن الرعاية الصحية.

تابعت نيراي:

«حين بحثنا عمّن موّل الثلث، وجدنا عالمًا يتعامل بثلاثين عملة، ومؤسسات كثيرة لا تدري أين انتهت أموالها. وراء تلك الأرقام كان ثمة أناس لم نعرف حتى أسماءهم».

أخذت أجزاء الخريطة تضيء تباعًا.

«إذا أصغيتم اليوم إلى أيّ مؤسسة سمعتُم رواية ما وقع لها هي. وما من رواية منها، وحدها، تُنبئ إلى أين كان يمضي بنا العالم».

التحمت أجزاء الخريطة.

«يستطيع إنسان واحد أن يأتي بالكراهية. أما الطريق، فالحضارة هي التي تمهّده له أو تحجبه عنه».

سكتت نيراي.

«ونحن مهّدناه له».

ساد الصمت في القاعة.

«إن لم نرَ المال قبل الجريمة، فلن نرى بعدها سوى الجثث».

وظهرت على الشاشة المجالات التي سيشملها المقترح برقابة آلية على مستوى النظام.

المخاطر البيولوجية والوراثية.

القدرات الحاسوبية الواسعة النطاق.

المختبرات الاستراتيجية.

البيانات الصحية.

التمويل السياسي.

منظومات التسلّح.

البنية التحتية الحيوية.

قالت نيراي: «لا أطلب نظامًا يقرأ الأفكار. فهو لا يقدر، ولا يجوز له أن يدّعي القدرة. أطلب نظامًا ينتبه حين يبدأ المال والتقنية والبيانات والمختبرات والسلطة السياسية في التجمّع على هيئة خطر».

طلب ممثل إحدى الدول الفيرانية الكلمة.

«ومن الذي يقرّر أيّ هيئة هي هيئة الخطر؟»

«تضبط ذلك قواعد معلنة».

«ومن يضعها؟»

«مجلس مستقلّ ينشئه المحفل ويخضع لرقابة مدنية ومهنية وقضائية».

«أي مؤسسة كوكبية أخرى».

«نعم».

«وإذا أخطأت؟»

«أمكن الطعن في قرارها».

«وإن أصبحت أداة في يد حكومة؟»

«لذلك يجب ألّا تتبع حكومة واحدة».

لم يجلس الرجل.

«إنما تنقلون المركزية إلى مرتبة أعلى».

أجابت نيراي: «لا. ما يجب أن يجتمع في مكان واحد هو إمكان رؤية المشكلة المشتركة. أما القرار والرقابة فيجب توزيع سلطتهما».

«هذا تناقض».

«لا. يمكن أن تكون الخريطة واحدة ولا ينفرد بملكيتها أحد».

جلس الرجل.

فتحت نيراي القسم الثاني.

«السبب الثاني هو الأتمتة».

ظهرت على الجدران بيانات الإنتاج بعد الثلث.

عدد العاملين.

القدرة الإنتاجية.

الاستهلاك.

القرارات المؤتمتة.

«أرغمنا الثلث على أن ننجز في أشهر ما أجّلناه عقودًا. تولّت الآلات الإنتاج والنقل وإدارة الطاقة ومسك الحسابات والصيانة وقسطًا من الرعاية الصحية. لم نكن نبتغي عالمًا بلا عمل. كان الناس هم الذين غابوا».

وعاد منحنى الإنتاج يرتفع فوق مستواه قبل الثلث.

«ثم اكتشفنا أن الإنتاج يمكن أن ينمو وإن لم ينمُ عدد الوظائف».

وظهرت عبارة قالها جيساير في نيترا:

الإعانة ما تمنحه السلطة من علٍ. أما الحصّة فما يستحقّه الإنسان لمجرّد أنه جزء من الحضارة.

تأمّلتها نيراي قليلًا.

«لا يجوز أن يصبح الدخل الأساسي الشامل مكافأةً على أن لا حاجة إلينا. ولا منّةً من الدولة على إنسان سلبته الآلات عمله. يجب أن يكون حصّةً في حضارة شُيّدت من معارف وبيانات وبنى تحتية وموارد لم يبتدعها أحد من مالكي اليوم بمفرده».

سُمعت في القاعة أول أصوات الاستحسان.

«ولكي تكون هذه الحصّة عادلة، يلزم أن نعرف كم تُنتج الآلات من قيمة، ولمن تعود، وأين ينشأ الربح وأين ينتهي. الدخل الأساسي الشامل بغير شفافية إعانةٌ تحسبها السلطة على قدر حاجتها. أما الحصّة الأساسية الشفافة فحقّ يستطيع المواطن أن يتحقق بنفسه من حسابه».

فتحت نيراي القسم الثالث.

«السبب الثالث هو الفساد».

ظهرت على الجدران صفقات عمومية.

وحدات للمستشفيات بأثمان مضخّمة.

عقود نقل.

مشاريع طاقة.

إعانات لصناديق موّل أصحابها أحزابًا سياسية.

«فساد. ومحسوبية. وشراء للنفوذ. ونهب لخزائن الدول من الداخل. وتمويل خفيّ للسياسة. وتلاعب بالأملاك. وملاذات ضريبية. ومِنَح لبست ثوب النفع العام وهي في خدمة سلطة خاصة. وتحويلات في الدفاتر تعبر العملات والجزر والمؤسسات ومراكز المعاملات خارج الكوكب».

وأخذت الأمثلة يتّصل بعضها ببعض.

«ازدهر هذا كلّه في العتمة. وطال بنا الاعتياد على العتمة حتى حسبناها حالنا الطبيعية».

توقفت عن الكلام لحظة.

«والثلث كشف ثمن ما حسبناه طبيعيًا».

قامت ممثلة إحدى الدول الجزرية.

«أبموجب مقترحكم ستُتاح كل التدفقات المالية للعامة؟»

«لا».

«ومن يقرّر ما يُتاح منها؟»

«مقدار ما لها من أثر».

«ليس هذا حدًّا دقيقًا».

«القانون هو من سيرسم الحدّ الدقيق. فدفعة شخصية صغيرة تبقى خاصة. وملكية شبكة من المستشفيات لا».

«والهديّة؟»

«تبقى الهدية الشخصية ضمن حدود المعقول شأنًا خاصًا. أما التبرع لحزب سياسي فلا».

«والاستثمار؟»

«إذا لم يمنح الاستثمار صاحبه سلطة تُذكر على حياة غيره فلا يلزم كشفه لكل الناس. على أنه لا يجوز أن يخفى وجوده على جهة الرقابة».

«إذًا ستعرف الدولة كل شيء».

«لا».

«فمن إذًا؟»

«لكل طبقة في النظام جزء تعرفه. ولن يتسنى لأحد الاطّلاع على حياة إنسان بكاملها من دون مسوّغ قانوني. وكل وصل بين طبقتين سيترك أثرًا».

قطّبت المرأة جبينها.

«هكذا بالضبط وصفتِ النظام القائم قبل الثلث».

«لا. قبل الثلث حمت الطبقات المختلفة بياناتها حتى استحال أن يُعرف من يموّل الكارثة. أما النظام الجديد فعليه أن يصون الإنسان من دون أن يصون سلطةً خفيّة».

فتحت نيراي القسم الرابع.

«السبب الرابع هو طريقة عمل الدول».

وظهرت أرقام العجز في الميزانيات.

في كل سنة تقريبًا من السنوات الثلاثين الماضية أنفقت معظم دول إلاريون أكثر مما جبت. وتزايد الدين حتى في زمن النمو الاقتصادي.

كان السياسيون يَعِدون بالتوفير.

ثم يرفعون الضرائب.

قالت نيراي: «لم تكن دولنا فقيرة. كانت باهظة الكلفة».

وعلى الشاشة ظهرت الأثمان التي اشترت بها دول مختلفة أجهزة طبية متماثلة.

وبلغت الفروق مئات في المئة.

«ظلّ سوء التدبير مستترًا في ميزانيات لا يستطيع المواطن أن يقارن بينها. كانت المؤسسة العامة تقول إنها دفعت سعر السوق. وفي الدولة المجاورة كانت السوق تبيع الشيء نفسه بنصف الثمن».

وظهرت شبكة من المورّدين تربطهم صلات بعضهم ببعض.

«حين تكون كل دفعة من المال العام مرئية، لا يضيع القرار السيئ في تقرير ختامي. بل يُرى ما دام هناك وقت لوقفه».

واعترض أحد وزراء الاتحاد:

«قد يسيء الجمهور فهم المشتريات المعقّدة. السعر الأدنى ليس دومًا الخيار الأفضل».

أجابت نيراي: «ولذلك يجب أن يرى الناس أيضًا المبررات والجودة والنتيجة. ليست الشفافية أن يبتّ كل مواطن في أمر كل صمّام. إنما هي ألّا يستطيع الوزير الادّعاء بأن الصمّام الأغلى كان أفضل، إذا كان قد تداعى بعد سنة وكان مورّده قد موّل حزب الوزير».

تعالت في القاعة ضحكات مرتبكة.

وجلس الوزير.

«أن تُكشف التدابير السيئة من فورها، وأن تُجبى الضرائب شبه كاملة، وأن تزول أوجه تضارب المصالح الخفيّة، قد يحوّل العجز المزمن إلى فائض. ولن يتمّ ذلك في يوم. أولًا نسدّ منافذ التسرّب. ثم نوقف الهدر. ثم نخفض الضرائب. وعندئذ فقط يأتي النمو».

فتحت القسم الخامس.

«السبب الخامس هو الضرائب».

ظهرت على الشاشة دوّامة الضريبة.

معدّلات أعلى.

تهرّب أكثر.

وعاء ضريبي أضيق.

ثم زيادة أخرى في المعدّلات.

«رفعت الدول الكبرى الضرائب لأن جزءًا من القيمة كان ينتقل إلى دول صغيرة لم يتولّد فيها. وكلما ارتفعت الضرائب زاد ما يُجنى من التهرّب. وكلما كثر المتهرّبون زاد ما يضطر الباقون إلى دفعه».

ظهرت خريطة الملاذات الضريبية في الجزر.

«لم تنشئ هذه الدول معظم القيمة التي أدرجتها في حساباتها. أنشأت مكانًا في القانون، تنخفض فيه الضريبة على القيمة ويختفي اسم صاحبها».

نهض ممثل ثيرينيث.

«كانت خدماتنا قانونية».

«نعم».

«مارس عملاؤنا حقوقًا كفلتها لهم الاتفاقيات».

«نعم».

«إذًا تتّهمينهم لأنهم تصرّفوا بعقلانية».

«لا. أقول إننا أوجدنا نظامًا صار فيه الإضرار بالمجتمع تصرّفًا عقلانيًا».

سكت الرجل برهة.

«تريدين إلغاء المنافسة الضريبية».

«أريد ألّا يعود ممكنًا أن يدّعي أحد أن الربح تولّد في جزيرة ليس فيها آلة ولا عامل ولا زبون».

«سيرحل رأس المال إلى ثايرون».

«فليكن معلومًا عندئذ من يملكه، وأين تولّد، وما الموارد التي يستخدمها».

«ثايرون غير ملزم بقبول قواعدكم».

«صحيح».

«وماذا بعد؟»

«تنشأ عندئذ منطقتان اقتصاديتان. واحدة تترك فيها السلطة الكبيرة أثرًا مرئيًا. وأخرى لا تتركه فيها».

«سيختار الناس الحرية».

«ربما».

نظرت نيراي إليه.

«ولكنهم سيعرفون عندئذ ماذا يختارون».

فتحت القسم السادس.

وعلت فوق المحفل ثلاثون علامة لثلاثين عملة.

«السبب السادس هو التشتت النقدي».

تحرّك دارين فولتر قليلًا في مقعده.

تابعت نيراي:

«قلنا قبل الثلث إن وجود ثلاثين عملة يتيح لكل دولة أن تستجيب لظروفها المحلية. وكان هذا صحيحًا. لكنها كانت تتيح أيضًا ثلاثين طريقة لتغيير قيمة المدّخرات وإخفاء الأرباح ونقل الديون وفصل الكلفة عمّن سيتحمّلها».

ظهرت تكاليف تحويل العملات.

والتأمين من تقلّبات أسعار الصرف.

والتأخير.

واحتياطيات رأس المال.

ومسك دفاتر الحسابات مرتين وثلاثًا.

«كانت الشركات توظف أقسامًا كاملة لكي تحمي التجارة من العملات التي وُجدت لتيسير التجارة. وكانت الشركة الصغيرة تدفع في المعاملة العابرة للحدود أكثر مما يدفع ائتلاف شركات عملاق، لأنها لا تملك ما يملكه من أسعار وأدوات».

وظهر الإلار على الشاشة.

«وُلد الإلار من رحم الجائحة. لم يكن مشروعًا سياسيًا. كان وسيلةً لشراء المرشّحات والأدوية والطعام حين عجزت الأنظمة القديمة عن نقل القيمة بالسرعة المطلوبة».

عرضت نيراي احتياطيات الجسر المعلنة.

«ولم تقتصر مزيته على أنه عملة مشتركة. رأى الناس غطاءه ورسومه وسعر صرفه ومسار الدفعة وكل يد أوقفتها».

طلب دارين فولتر الكلمة.

«ما زال غطاء الإلار من العملات القديمة».

«نعم».

«إذا ألغيتموها، فماذا يكون غطاؤه؟»

«الإنتاج والإيرادات الضريبية والقدرة على توليد الطاقة وأصول النظام المشترك».

«أي الثقة في مؤسسات الكوكب».

«كل عملة ثقةٌ في مؤسسة ما».

«الفرق أن المواطن يستطيع اليوم أن يترك عملة ويختار أخرى».

«معظم المواطنين لا يملكون مالًا يستطيعون نقله بين العملات. حرية اختيار العملة كانت في المقام الأول حرية من عندهم ما يكفي للإفلات من تبعات قرارات دولتهم».

نهض فولتر.

«ومع ذلك كان فيها ما يوازن السلطة. فالعملة الواحدة يمكن أن تُستخدم ضد أهل الكوكب جميعًا في وقت واحد».

«نعم».

باغته الجواب هو أيضًا.

تابعت نيراي:

«يمكن أن تكون العملة الموحّدة أساسًا للازدهار. وأساسًا لأحكم طغيان صنعناه قط».

سكنت القاعة سكونًا تامًّا.

«ولذلك لا يكفي أن يكون مال المواطن مرئيًا. يجب أن تكون السلطة على المال مرئية».

وعلى الشاشة ظهر مخطط الرقابة.

طبقة التشغيل.

طبقة الرقابة.

طبقة القضاء.

تدقيق المواطنين.

سلسلة تحقق علنية.

«لا يجوز لمشغّل العملة أن ينفرد بتقرير من يخضع للتفتيش. ولا لجهة الرقابة أن تعدّل السجلّات من تلقاء نفسها. ولا للمحكمة أن تفتح البيانات من غير سبب قانوني مدوّن. ولا يجوز أن يكون بوسع أي من هذه المؤسسات أن تمحو أثر ما فعلت».

تأمّل فولتر المخطط.

وسأل: «والمجرم؟ أيرى هو أيضًا أن حسابه خضع للفحص؟»

«نعم».

«في الوقت الكافي كي يخفي أدلّة أخرى؟»

«سيرى أن فحصًا قد جرى. وليس بالضرورة أن يرى في اللحظة نفسها كل نتيجة يصل إليها التحقيق. ولكن سجلّ الاطّلاع لا يجوز أن يظلّ سرًّا إلى الأبد، ولا أن يكون قابلًا للمحو».

«هذا يخالف مقترح جيساير».

«لا. قال جيساير إن من حقّ المجرم نفسه أن يرى من اطّلع على أمره. ولم يقل إن على المحققين إعلان كل خطوة قبل أن يخطوها».

بقي فولتر واقفًا.

«وما الذي يمنع النظام من أن يتيح مدخلًا سرّيًا لا يسجّل الدخول؟»

«تصميمه التقني».

وظهر تدفق البيانات على الجدران.

«كل اطّلاع على بيان محميّ يُنشئ سجلًّا موقَّعًا، تتولّد منه بصمة تشفيرية. وكل بضع دقائق تُرسل بصمات التغييرات وعمليات الاطّلاع ذات الشأن إلى سلسلة تحقق موزّعة».

قال أحد الجالسين في الصفوف الخلفية: «سلسلة الكتل».

أجابت نيراي: «نعم. وهي لا تحلّ محل الحقيقة. فالبصمة لا تُثبت صدق البيان الأصلي. إنما تُثبت أن أحدًا لم يغيّره خلسة في ما بعد. أما صدقه فتثبته مصادقة المصدر والمقارنة بمصادر أخرى والتدقيق».

عاد فولتر فجلس.

ونظرت نيراي إلى المحفل.

«ستتطور تقنيات المراقبة أيًّا يكن ما نقرّه اليوم. يمكن أن ندّعي أننا سنحظرها وندعها تُستعمل سرًّا. ويمكن أن نضمن أن تكون كل عين تراقب مواطنًا مرئيةً هي أيضًا».

وظهرت العبارة الأخيرة:

من حقّك أن ترى، ومن واجبك أن تُرى.

عندها انقطع اتصال المحفل.

لم ينقطع كلّه.

انقطع بثّ واحد.

وظهرت على الجدران شارة حركة ثايرون.

ثم سُمع صوت.

صوت كايل.

قال: «إنك تصفين قفصًا من زجاج. سيرى الجميع القضبان وتسمّون ذلك حرية».

حاولت أنظمة الأمن قطع البثّ.

رفعت نيراي يدها.

«دعوه».

سرى اضطراب في القاعة.

واصل كايل:

«عملة واحدة. وطبقة ضريبية واحدة. وخريطة مالية واحدة. وذكاء كوكبي واحد يقرّر ما يُعدّ خطرًا. تقولون إنكم ستوزّعون السلطة بين مجالس ومحاكم ومدقّقين من المواطنين. لكنهم جميعًا سيستعملون النظام نفسه».

نظرت نيراي في عدسة الالتقاط مباشرة.

«كايل ثورن».

انقطع الصوت برهة.

ثم ضحك.

«ليس لديك دليل».

«لا».

«ومع ذلك تسمّيننني على الملأ».

«سمّيت الصوت».

«أهكذا سيكون عالمكم الشفّاف؟ ينطق محلّل باسم، ويُتمّ الغوغاء الباقي؟»

«لا. ولهذا لا أحكم عليك. إنني أسألك».

«عن ماذا؟»

«كم كنت تعرف؟»

لم يُسمع في القاعة حتى حسّ حركة.

ومضت هنيهة قبل أن يجيب كايل.

«ما يكفي لأعرف اليوم أن ما حاولت إيقافه كان أقلّ مما ينبغي».

«ليس هذا جوابًا».

«لن تنالي سواه».

«أعنتَ أريين على فتح مسارات للمال».

«أعنت كثيرين على فتح مسارات للمال».

«لماذا هو؟»

«لأنني خفتُ من العالم الذي اقترحه أخوك».

«أوتخشاه الآن أكثر؟»

«لديّ الآن دليل على أن خوفي كان في محلّه».

حدّقت نيراي في الشاشة الخالية التي يرد منها الصوت.

«أترى الثلث حجّة على الشفافية؟»

«أراه حجّة على تركيز السلطة. لقد سخّر أريين العلم والمال والآلات لأغراضه. وأنتم تريدون جمع الثلاثة الآن في طبقة واحدة تغطي الكوكب».

«وجعل الروابط مرئية».

«أن تُرى لا يحول دون إساءة استخدامها».

«لا».

«فما الذي يحول دونها إذًا؟»

«ألّا تبقى إساءة الاستعمال شأنًا يخصّ وحده مَن بيده النظام».

ضحك كايل.

«ذلك إيمان».

«نعم».

سرى الجواب في القاعة كصدمة صامتة.

«كل نظام اجتماعي يقوم على الإيمان بأن الناس سيحترمون القواعد ولو في بعض الأحيان. والفرق هو ما إذا كانوا يستطيعون أن يخفوا انتهاكها».

«نحن في ثايرون لن نقبل قواعدكم».

«هذا حقّكم».

«إذًا ستتركوننا نرحل؟»

«ما لم تموّلوا العنف أو تأخذوا مالًا ليس لكم أو تخفوا عائداتٍ تجنونها من بنيتنا التحتية المشتركة».

«حرية بشروط إذًا».

«كل حرية تنتهي حيث تبدأ فاتورة على إنسان آخر أن يدفعها».

سكت صوت كايل.

ثم قال:

«سيأتي يوم يخاف فيه المواطنون نظامكم أكثر مما يخافون الذين كان سيحميهم منهم».

«ربما».

«وماذا بعد؟»

«عندئذ يجب أن تكون لهم سلطة تغييره».

«في ظلّ عملة واحدة؟»

«في ظلّ نظام دستوري علني».

«أي في دولة واحدة».

لاذت نيراي بالصمت.

هذه هي العبارة التي كان المحفل ينتظرها.

بعضهم بأمل.

وبعضهم بخوف.

قالت: «لا أقترح اليوم دولة واحدة. أقترح أن تتاح لنا جميعًا رؤية ما هو مشترك من مشكلاتنا، وأن تكون سلطتنا المشتركة تحت رقابتنا المشتركة».

«تلك بداية الدولة الواحدة».

«ربما».

«فقوليها».

نظرت نيراي إلى الوفود الأربعين.

إلى الصفوف الخالية.

إلى الموضع الذي جلس فيه جيساير ذات يوم.

«إذا صار إلاريون يومًا دولة واحدة، فلا يجوز أن يكون ذلك لأن أحدًا فتحه بقوته. ولا لأن عملة غلبت سائر العملات. يجب أن يكون لأن الناس يكتشفون أن ما يجمع حياتهم أكبر منذ زمن بعيد مما يجمع حكوماتهم».

لم يُجب كايل.

انقطع الاتصال.

هذه المرة أنهاه بنفسه.

تواصلت مداولات المحفل ثلاثة وعشرين يومًا أخرى.

ولم يُقرّ كل ما اقترحته نيراي.

أُقرّت الحصّة الأساسية، على أن تبقى قيمتها مرتبطة بتكاليف المعيشة في كل منطقة.

وتقرّر أن يكفّ الجسر عن كونه شركة خاصة، وتنتقل ملكيته إلى مؤسسة عامة للكوكب كله.

وأصبح الإلار وحدة حساب قانونية للضرائب بين الدول، والمدفوعات العامة، والحصّة الأساسية، والتجارة مع ثايرون.

ولم تختفِ العملات القديمة.

ليس بعد.

أقرّ المحفل مبدأ الإفصاح عن المالك الفعلي النهائي لكل شركة وصندوق ومؤسسة لها أثر اقتصادي أو سياسي ذو شأن.

وأوجب أن يترك كل اطّلاع على البيانات المالية المحمية أثرًا لا يُمحى.

وأن يُعرف لكل استثناء صاحبه وسنده القانوني وموعد انقضائه.

وأن تُتاح للمراجعة العلنية كل قاعدة آلية لتقدير المخاطر.

وأنشأ المحفل لجنة دستورية للكوكب.

لم يُنشئ حكومة.

ليس بعد.

حين كانت نيراي تغادر الجلسة الأخيرة وجدت دارين فولتر ينتظرها عند المخرج.

قال: «لقد انتصرتِ».

«لا».

«صار الإلار وحدة قانونية».

«واحدة من وحدات عدّة».

«ولم يعد الجسر ملكًا لمجموعة خاصة».

«كان لا بدّ من ذلك».

«وطبقة ضريبية على مستوى الكوكب».

«محدودة».

نظر فولتر إليها.

«أتدرين ما أخطر شيء فيك؟»

«لا».

«تصفين كلّ خطوة على أنها أصغر مما هي في حقيقتها».

نظرت نيراي إلى جدار الأسماء أمام المبنى.

«وأنت تصف كل خطوة كأنها الأخيرة».

«لأنني أعرف إلى أين تقود».

«إلى أين؟»

وأشار فولتر إلى نيترا.

«إلى عاصمة للكوكب».

حدّقت نيراي نحو النهر.

«لعلّ الكوكب يحتاج إلى مكان يضطرّ فيه إلى النظر في وجه نفسه».

٣٩. إلار واحد

لم تختفِ العملات القديمة بالتصويت.

اختفت بما اختاره الناس في تعاملاتهم.

أول من كفّ عن قبولها كبار المورّدين الذين يعملون بين الدول.

لم يحظرها المحفل.

كان التعامل بالإلار أيسر.

سعر واحد.

تسوية واحدة.

رسم واحد معلن.

بلا تأمين من تقلّب الصرف.

بلا انتظار يومين.

بلا تساؤل عمّا يضيع من القيمة بين المرسِل والمتلقّي.

ثم أخذ العاملون في شركات لها أعمال في دول شتّى يطلبون أجورهم بالإلار.

لم يريدوا لأجورهم أن تتقلّب قيمتها بقرار حكومة لا يعيشون حتى في بلدها.

وكان التجار يعرضون أثمان سلعهم بعملتين.

ثم بالإلار وحده.

بقي للعملات المحلية مكان في الحسابات والقوانين والعقود القديمة.

لكنها غدت في حياة الناس اليومية أشبه بلغات ما زالوا يدوّنون بها الطقوس، ولم يعد أحد يطلب بها خبزًا.

وتخلّت آخر عملتين كبيرتين عن استقلال سعر صرفهما بعد أزمة اقتصادية كانتا هما من أحدثها.

فقد حاول مصرفاهما المركزيان تشجيع الصادرات بتخفيض قيمة العملة.

لكن الشركات كانت تشتري الطاقة والمواد الأولية بالإلار.

فارتفعت تكاليفها.

ونقل المواطنون مدّخراتهم.

وانهارت العملة.

ما كان يساعد الدولة في ما مضى على أن تلقي بعض أعباء المشكلة على مواطنيها، لم يعد يجدي في عالم يستطيع فيه المواطنون أن يلجؤوا إلى قيمة مشتركة.

بعد سبع سنوات من الثلث، صار الإلار العملة القانونية الوحيدة في إلاريون.

لم يعيّن أحد يومًا بعينه لحدوث ذلك.

أقرّت آخر دولة القانون.

وعدّل آخر مصرف حساباته.

وثُبّت سعر تحويل آخر عملة قديمة.

وانتهى الأمر.

فاجأ النمو الاقتصادي الذي أعقب ذلك أنصار الإصلاح أنفسهم.

ولم تكن العملة وحدها هي التي جلبته.

بل جلبه زوال العقبات التي اختفت معها.

لم تعد الشركة بحاجة إلى أن تمسك حساباتها ثلاثين مرّة.

واستطاعت الشركة الصغيرة أن تبيع في الطرف الآخر من الكوكب من دون قسم لشؤون العملات.

وصار المستثمرون يفاضلون بين المشاريع بعائدها الفعلي، لا بما يجنونه من فرق الصرف.

واعتُمدت في الصفقات العمومية أسعار قابلة للمقارنة.

وصار لمصالح الضرائب وعاء واحد تراه جميعًا.

وفُرضت الضريبة على الربح حيث تولّدت القيمة.

وأخذت معدّلاتها تنخفض شيئًا فشيئًا.

أولًا لذوي الدخل المنخفض والمتوسط.

ثم للشركات.

واكتشفت الدول أن ضريبة أخفّ تُجبى من كل شيء تقريبًا تعود عليها بأكثر مما تعود به ضريبة باهظة يتهرّب منها نصف رأس المال الكبير.

حاولت الملاذات الضريبية أن تبقى.

عرضت معدّلات أدنى من ذي قبل.

ثم الإعفاء التام.

ثم سجلّات سرّية خارج شبكة الكوكب.

لكن شركة مجهولة المالك لم يكن في وسعها أن تتلقى دفعات كبيرة بالإلار، ولا أن تنافس على صفقة عامة أو تملك منشآت استراتيجية.

ظلّ الكتمان ممكنًا.

لكنه لم يعد مُربحًا.

انهارت بعض الدول الجزرية.

وتحوّل بعضها الآخر.

وضعت خبرات محاميها ووكلائها الماليين واختصاصييها المتمرّسين في خدمة تـدقيق النظام الجديد. وتحوّلت الأماكن التي كانت تبيع العتمة إلى مراكز للتحقّق.

كان في الأمر مفارقة لم ترَ فيها نيراي عقوبة.

ليس على المرء أن يظلّ إلى الأبد أسير ما كان يومًا يكسب عيشه منه.

لم يختفِ العجز في الميزانيات بين عشية وضحاها.

بعد الثلث كان لا بد من إعادة إعمار مناطق بأسرها.

وكانت رعاية الناجين باهظة الكلفة.

والحصّة الأساسية في ازدياد.

والمدن تعيد تشكيل بنيتها التحتية لعالم تقلّ فيه ساعات العمل وتزداد فيه الأتمتة.

لكن التهرّب أخذ ينحسر.

وشبكات الفساد تتقلّص.

والمشاريع المتضخّمة الكلفة تنكشف قبل توقيع عقودها.

كان الذكاء الاصطناعي يقارن بين الأسعار والجودة وروابط الملكية.

لم يمنع أحدًا من اتخاذ قرار.

كان ينبّه.

وكان من حق الحكومة، رغم التنبيه، أن تختار المورّد الأغلى.

على أن تبيّن السبب.

على الملأ.

وتذكر اسم المسؤول عن القرار.

لم يقضِ النظام على الحماقة.

لكنه سلبها بعض الأمان الذي كانت تمنحها إيّاه العتمة.

بعد عشر سنوات كانت معظم الدول تسجّل فوائض.

لم تكن الفوائض تتحقق في كل سنة.

ولم يكن في الإمكان ضمانها في شتّى الأحوال.

لكن الفكرة القديمة القائلة إن على الدولة أن تظل على الدوام مدينةً قد تهاوت.

وُجّه جزء من الفائض إلى الحصّة الأساسية.

وجزء إلى الاحتياطيات.

وجزء إلى تملّك الأنظمة المؤتمتة ملكية مشتركة.

كان للناس أن يعملوا.

أن يقيموا المشاريع.

أن يبدعوا.

أن يرعوا الأطفال.

أن يدرسوا.

أن يعين بعضهم بعضًا.

أما حقّهم في المسكن والطعام والرعاية الأساسية فلم يعد رهنًا بحاجة إنسان آخر إلى شراء وقتهم.

لم تحلّ الحصّة الأساسية كل شيء.

فقد بعض الناس معنى حياتهم.

وانطوى آخرون على عالم من التسلية تصنعه الآلات.

ودارت مناقشات حول ما إذا كان على المجتمع أن يعيل من لا يردّون إليه شيئًا.

لم يكن لدى نيراي جواب سهل عن تلك المسائل.

قال جيساير يومًا إن قيمة الإنسان ليست في حاجة الآلة إليه.

ولكن ذلك لا يعني أن الإنسان لا يحتاج إلى أن يكون لإنسان آخر حاجةٌ إليه.

فلذلك كفّت المدارس عن إعداد الأطفال لمهنة وحسب.

علّمتهم أن يقيموا العلاقات، ويتحمّلوا المسؤولية، ويقرّروا في شؤونهم المشتركة، ويميّزوا بين ما يشتهون وما يحتاجون إليه.

لم يفقد العمل جدواه.

إنما كفّ عن أن يكون البرهان الوحيد على حقّ المرء في الوجود.

وتغيّرت الحرب هي الأخرى.

في البدء على مهل.

لم يستطع المال الشفّاف أن يقرأ الكراهية.

ولم يستطع أن يحول بين المرء وبين الرغبة في الاستيلاء على أرض أو معاقبة جيرانه أو إحياء ضغينة قديمة.

لكنه استطاع أن يرى الاستعداد.

فالسلاح يحتاج إلى من يصنعه.

والصانع إلى مادة.

والمادة إلى طاقة.

والجيوش إلى مؤن.

والمرتزقة إلى أجور.

وطرق النقل إلى تأمين.

والدعاية إلى من يملكون وسائل الإعلام.

لم يكن ممكنًا أن يُعَدّ لحرب كبرى في القلب وحده.

كان عليها أن تدخل حياة الاقتصاد.

وهناك كانت تترك أثرًا.

حين بدأت دولة في الجنوب تعقد مشتريات سرّية أثارت مخاوف من استعداد عسكري، نبّه النظام سائر الحكومات ومواطني تلك الدولة أيضًا.

وقالت الحكومة إنها تحدّث منشآتها المدنية.

واطّلع الناس على حجم المشتريات ومصادرها وعلى النفقات المصاحبة لها.

وطالبت المعارضة بتفسير.

وعرضت الدول الحليفة إجراء تفتيش.

فأُوقف المشروع قبل أن يُبنى أسطول.

وفي واقعة أخرى لم تمنع الشفافية نشوب النزاع.

تنازعت منطقتان على موارد مائية، وحرّكت كلتاهما قواتها الأمنية على مرأى الجميع.

رأى العالم الاستعدادات.

ولهذا بالذات لم يعد في وسع أحد أن يدّعي أن الهجوم أتى على حين غرة.

تدخّل مجلس الكوكب مبكّرًا.

ولم يتدخل بمفاوضات سرّية.

بل بمحادثات علنية يرى فيها كل طرف كلفة المضيّ في النزاع.

وانتهى النزاع باتفاق.

لم يكن الناس قد صاروا أفضل.

لكن النية المبيّتة فقدت ميزة الخفاء.

ونشأ بالتدريج دفاع مشترك.

بدأ بحماية الحلقة المدارية.

ثم ثايرون.

ثم الرقابة على السلاح الاستراتيجي.

احتفظت الدول بقوى الأمن، لكن لم يعد في وسعها شنّ حرب كبرى بمفردها من دون البنية التحتية المشتركة.

وبعد النقد والضرائب والدفاع جاء دور القانون.

فالشركة العاملة في الكوكب بأسره لا يمكن أن تخضع لأحكام أربعين قضاءً متعارضًا.

والمواطن لا يمكن أن يملك في منطقة الحقّ في أن يرى كيف تُمارَس سلطة الدولة، ويُحرم منه في منطقة أخرى.

والحصّة الأساسية لا يمكن أن تكون حقًّا مشتركًا بغير أساس دستوري مشترك.

دام عمل اللجنة الدستورية للكوكب اثنتي عشرة سنة.

رُفض المشروع الأول.

ورُفض الثاني أيضًا.

أما الثالث فوزّع الصلاحيات بين الكوكب والأقاليم والدول والمدن.

كوكب واحد.

عملة واحدة.

دفاع واحد.

شرعة واحدة للحقوق الأساسية.

لكن أربعين تقليدًا قانونيًا.

وعشرات اللغات.

ومئات الأشكال المحلية للحكم.

لم تَزُل الدول من الوجود.

إنما كفّت عن أن تكون المرجع الأخير للسلطة.

في اليوم الذي اعتُمد فيه الدستور اجتمع الممثلون في نيترا.

بكى بعضهم.

وصوّت آخرون ضدّه.

وانسحبت بضعة وفود فيرانية من القاعة قبل ظهور النتيجة.

كان كثير من مؤيّديها قد انتقلوا إلى ثايرون.

رفضوا النظام المالي المشترك.

وقالوا إن السلطة، وإن راقب بعضها بعضًا، لا بد أن تستحيل يومًا طغيانًا.

وأقاموا مستوطناتهم ومصارفهم وأنظمتهم القانونية الخاصة.

لم يُرغمهم إلاريون على العودة.

لكن حدًّا قام بين الكوكبين لم يكن قائمًا من قبل.

قام بين الكوكبين حدّ لم يرسمه علم الأحياء.

ولم يقم على تقسيم عرقيّ.

كان حدًّا بين نهجين حضاريين.

في إلاريون وجب على السلطة الكبيرة أن تترك أثرًا يُرى.

وفي جزء من ثايرون عُدّ الكتمان شرطًا من شروط الحرية.

واستمرت التجارة بين العالمين.

بشيء من الريبة.

وبقواعد.

وبسؤال ظلّ بغير جواب.

ما القدر الذي يستطيع المجتمع أن يصونه من الخصوصية من غير أن تولد في حماها، مرّة أخرى، سلطة لا تُرى؟

ظلّ كايل ثورن في ثايرون.

لم يصدر في حقّه قط حكم نهائي بإدانته بالثلث.

أثبتت الأدلّة أنه موّل شبكات أريين وأنه حاول إيقاف المراحل الأخيرة. ولم تُثبت كم كان يعرف حين فتح المسارات الأولى.

رآه بعضهم مجرمًا أفلت من العقاب.

ورآه آخرون رجلًا أدرك في الوقت المناسب خطر النظام الواحد.

أما في نظر نفسه فظلّ الرجل الذي يؤمن بأن التاريخ سينصفه يومًا.

وصدر الحكم على أريين كورفيث بالإدانة.

استغرقت المحاكمة سبع سنوات.

أدلى فيها المئات من العلماء والوكلاء والمصرفيين والمحامين وأهل الضحايا بشهاداتهم.

ورفضت المحكمة حجّته بأن أجزاء المشروع كانت قانونية كلٌّ على حدة.

وقضت بأن من يجمع، عن علم، أجزاء مشروعة في كلٍّ إجرامي يتحمّل مسؤولية الكلّ.

لم يُعدم أريين.

لم يعرف إلاريون عقوبة الإعدام.

أمضى بقية عمره في منشأة دُوّنت فيها كل نفقة وكل عملية تفتيش وكل قرار، شأنه شأن أي مواطن آخر.

وكان يرى هو أيضًا مَن فتح بياناته.

ويملك هو أيضًا أن يطعن في أي اطّلاع غير مأذون به.

رأى كثيرون في ذلك إفراطًا في الرحمة.

أما نيراي فلم ترَ ذلك.

النظام الذي لا يحمي من الحقوق إلا حقوق الأبرياء لا يحمي الحقوق.

إنه يحمي من يرضى الناس عنهم.

بعد عشرين سنة على الثلث، وقفت نيراي أمام مبنى جمعية الكوكب.

كانت قد أسنّت.

واكتسى شعرها لون الفضة.

وما زالت عيناها بلا دائرة ذهبية.

تغيّرت نيترا.

ارتفعت فوق البلدة القديمة أبراج إدارية جديدة. وجرت في النهر مركبات نقل عام هادئة.

وغدت مقرّات المصارف المركزية القديمة دورًا لأرشيف التاريخ النقدي.

وكان الأطفال يتعلمون فيها أن إلاريون عرف في ما مضى ثلاثين عملة.

وأعيا كثيرين منهم فهم ذلك.

كانوا يسألون: «لماذا؟»

فيشرح لهم معلّموهم معنى السيادة وأسعار الصرف وخفض قيمة العملة والتنافس الضريبي وحماية الاقتصادات المحلية.

ويصغي الأطفال بدهشة تشبه دهشة الأجيال التي سبقتهم حين كانت تسمع عن أزمنة كان لكل دولة فيها مقاييسها الخاصّة للكتلة والطول.

مشت نيراي إلى جدار الأسماء.

كان ما يزال يعرض أسماء ضحايا الثلث.

وبعد انقضاء العقود صار في وسع القائمة أن تبدأ من جديد.

لم يكن اسم جيساير على الجدار اليوم.

ولا اسم ماريا.

وضعت نيراي الإناء الأزرق الداكن على الأرض.

وهذه المرّة تركته حيث وضعته.

ظهر تنبيه في واجهتها الشخصية.

اطّلع الأرشيف التاريخي للكوكب على سجلّات التحقيق في الثلث.

الغرض: إعداد معرض تعليمي.

المسؤول: لارين ساور.

نطاق الاطّلاع: خريطة الأدلّة المالية بعد حجب البيانات الشخصية المحميّة.

تأمّلت نيراي التنبيه.

في العالم القديم لربّما لم تعلم قط أن أحدًا فتح الملف الذي أنشأته.

وفي العالم الجديد رأت الاسم والغرض والنطاق.

وكان لها أن تعترض على الاطّلاع.

ولم تفعل.

أخذ الظلام يُرخي سدوله على نيترا.

وتوهّج على مبنى الجمعية شعار إلاريون.

توهّج على مبنى الجمعية شعار الكوكب الجديد.

لم يكن فيه ما يحيل إلى الاتحاد ولا إلى أيّ من دوله الأولى.

أربعون خطًّا تمضي نحو دائرة واحدة.

قال منتقدوه إن الشعار يصوّر الابتلاع.

وقال واضعوه إنه يصوّر الاتحاد.

ورأت نيراي فيه الاثنين معًا.

كل وحدة تنقذ شيئًا.

وتنهي شيئًا آخر.

لم يصبح إلاريون دولة واحدة لأن سكّانه كفّوا عن الاختلاف.

بل لأنه ما عاد في وسعهم، شيئًا فشيئًا، أن يتظاهروا بأن القرار الكبير الذي يأخذه واحد منهم لا يمسّ الآخرين.

كان مال إنسان واحد يستطيع أن يموّل بحثًا.

والبحث مختبرًا.

والمختبر مرضًا.

والمرض موتًا يطول الكوكب بأسره.

والمال نفسه يمكن أن يموّل العلاج.

والآلات.

والحصّة الأساسية.

وإعادة إعمار المدن.

وعالمًا يتعيّن فيه على السلطة أن تكشف وجهها قبل أن تطلب إلى غيرها أن يثق بها.

لم تجعل الشفافية البشر أخيارًا.

لم تستأصل الغضب.

ولا الكبرياء.

ولا شهوة التملّك.

ولا الخوف من الفقد.

ولا قدرة الإنسان على إقناع نفسه بأن جرحه عدالة.

لم تفعل سوى شيء واحد.

جعلت من الأصعب على السلطة الكبيرة أن تمشي بلا ظلّ.

وضعت نيراي ثلاث أصابع على سطح الإناء البارد.

لم تدرِ لماذا.

جاءت الحركة عفو الخاطر.

بطبيعيّة تفوق المعقول.

للحظة خُيّل إليها أن ذكرى ليست بجملتها لها تمسّها.

كوكب آخر.

شمس أخرى.

بستان.

رجل وامرأة سيلتقيان من جديد، وإن تغيّر اسماهما.

ثم ولّى الشعور.

والتفتت نيراي إلى المدينة.

خلفها بقي جدار الموتى.

وأمامها عالم الأحياء.

كوكب واحد.

دولة واحدة.

أربعون ذاكرة.

وقيمة لم يعد يُسمح لها أن تمضي في الظلّ.

٤٠. كتلة السلطة

كان الحجر يزن واحدًا وثلاثين طنًّا.

جاؤوا به من ثايرون قبل أسبوعين، وظلّ منذ ذلك الحين راقدًا وسط قاعة الأبحاث في أردا. اختار العلماء قطعة صخر لا تتميّز بأي خاصية فيزيائية. أرادوا جسمًا يستحيل أن تُعزى النتيجة إلى مادّته.

انتصبت حوله ثلاث حلقات معدنية.

بلغ قطر كلّ منها خمسة أمتار أو نحوها، وانقسم سطحها إلى مئات المقاطع الضيّقة. وبين المقاطع موصّلات مبردة إلى حرارة أدنى بكثير من حرارة الجو المحيط، تمتدّ إليها من أرض القاعة حزم غليظة من كابلات الطاقة.

خلف الجدار الواقي كان ينتظر نحو أربعين شخصًا.

فيزيائيون.

وفنيّون.

وممثّلون عن الجامعات.

ومجلس الكوكب للمخاطر التقنية.

ومحلّلان عسكريان.

ونيراي سايل.

مرّت على الثلث سنوات طويلة. لم تعد نيراي تتولّى التحقيق اليومي في حركة المال. لكن اسمها ظلّ مقرونًا بالقواعد التي تحوّل بموجبها الجسر شيئًا فشيئًا بعد المحفل، من شبكة للمدفوعات إلى طبقة من طبقات المعلومات التي يقوم عليها اقتصاد الكوكب.

لذلك كانوا يدعونها كلما أثار اختراع جديد سؤالًا يعجز التقنيون وحدهم عن الإجابة عنه.

مَن يحقّ له أن يملك هذا الشيء؟

وقف أوران سيل، المشرف على التجربة، عند لوحة التحكّم.

«قراءة أرضيّة القاعة؟»

أجابه الذكاء الاصطناعي للمختبر: «واحد وثلاثون طنًّا وأربعة أعشار الطن».

«الطاقة؟»

«جاهزة».

«التزامن؟»

«التفاوت دون عتبة القياس».

التفت أوران إلى من خلف الزجاج.

«ما سترونه هو التجربة الرابعة. أجرينا التجارب الثلاث الأولى من دون حضور أحد من خارج فريق المختبر. ولم ننشر النتيجة حتى أعاد التوصل إليها مختبران مستقلان».

ثم عاد إلى اللوحة.

«شغّل الحقل بعشرة في المئة».

ظهرت على الشاشة قراءة الحمل الذي تتحمّله الأرضيّة.

واحد وثلاثون طنًّا.

ثلاثون.

ثمانية وعشرون.

خمسة وعشرون.

ولم يتحرّك الحجر قيد أنملة.

عند عشرين في المئة هبطت القراءة إلى سبعة عشر طنًّا.

وعند ثلاثين في المئة، إلى تسعة.

لفّ القاعة صمت تامّ.

رفع أوران القدرة إلى أربعين في المئة.

فهبطت القراءة إلى أقل من طنّ.

ثم قاربت الصفر.

وانفصل الحجر عن الأرضيّة.

في البدء بمقدار ملّيمترات قليلة.

وسرعان ما صار بينه وبين الأرض فراغ يبلغ خمسة سنتيمترات.

حرّك أوران أداة الضبط.

فارتفعت صخرة ثايرون، بواحد وثلاثين طنًّا من كتلتها، مترًا في الهواء.

شعرت نيراي بشدّ مزعج في كتفيها. عقلها يقول إن الحقل يحمل الحجر. وجسدها يرى كتلة صخر معلّقة فوق الأرض وينتظر سقوطها.

سأل أحد أعضاء المجلس: «أتستطيعون تحريكه من مكانه؟»

أومأ أوران.

تحرّك الحجر ببطء إلى اليمين.

ثم عاد.

كانت في حركته سكينة تكاد تجعل المنظر عبثًا. جسمٌ كان نقله قبل سنوات معدودة يتطلب منظومة نقل ثقيل، يقطع القاعة اليوم بسرعة رجل يمشي.

وخفّض أوران القدرة.

فهبط الحجر على مهل.

وحين مسّ الأرض تردّد في القاعة دويّ عميق.

سألت نيراي: «أبقيت كتلته على حالها؟»

«نعم».

«فماذا غيّرتم؟»

بحث أوران برهة عن الكلمات.

«أبسط ما أستطيع قوله إننا غيّرنا الارتباط بين المادّة وحقل الجاذبية المحلّي. ظلّ القصور الذاتي للحجر كما هو، وكذلك بنيته الداخلية، طوال التجربة. لكن الأرض، حين بلغ الحقل تمام تأثيره، كادت تكفّ عن جذبه».

«كادت؟»

«لم نصل بعد إلى الصفر التامّ».

نظرت نيراي إلى الحجر ثانية.

«وهل ستصلون؟»

ابتسم أوران.

«من أجل أسئلة كهذه نشتغل بالعلم».

طاف خبر التجربة إلاريون في ساعات معدودة.

واستأثر النقل بأكبر قسط من الاهتمام.

حسبت نماذج الطاقة في الحال كلفة رفع حمولة إلى المدار إذا أمكن إضعاف ارتباطها بالجاذبية خلال الجزء الأول من الرحلة.

وأخذت شركات البناء ترسم منشآت تُصنَع على الأرض قطعة واحدة ثم تُرفع إلى موضعها.

ورأت مناجم ثايرون بابًا لنقل كتل صخرية كانت كلفة نقلها تفوق كلفة استخراجها نفسها.

وبدأت المدن تتحدّث عن جيل جديد من وسائل النقل العام.

وأعاد مهندسو الفضاء فتح ملفات مشاريع لبثت في الأرشيف عقودًا لأن أرقامها لم تكن مجدية اقتصاديًا.

بدا، لبضعة أيام، أن إلاريون ظفر بواحد من تلك الاختراعات التي ينقسم معها التاريخ إلى ما قبلها وما بعدها.

ثم ورد تقرير ثانٍ.

وهذا لم يُنشر.

انطلقت بدايته من نموذج لدراسة السلامة في إحدى الجامعات.

كان العلماء يدرسون ما يحدث حين تتفاعل حقول الجاذبية التي تولّدها الحلقات. وافترضوا أن المحصّلة ستقارب مجموع قدراتها.

لكن الحسابات كشفت عن خاصيّة أخرى.

ففي ظروف بعينها تضاعف الأثر على نحو غير خطّي.

حسب فيزيائيان للوهلة الأولى أن في النتيجة خطأ.

أعادا تشغيل النموذج.

ثم أعاداه على نظام حاسوبي آخر.

وطلبا أخيرًا تحقّقًا مستقلًّا.

وظلّت النتيجة كما هي.

تلقّى أوران سيل التقرير في الثالثة فجرًا.

وفي الخامسة طلب عقد جلسة عاجلة لمجلس الكوكب.

وصلت نيراي بُعيد السابعة.

كانت على جدار القاعة خريطة إلاريون.

وفي قلبها تضيء دائرة يقارب قطرها أربعمئة كيلومتر.

سألت: «ما هذه؟»

كان أوران واقفًا عند النافذة. بدا وكأنه لم ينم طوال الليل.

«نطاق التأثير».

«أيّ تأثير؟»

«التأثير الكامل».

انتظرت نيراي.

فتح أوران النموذج الفيزيائي.

«في التجربة الأولى لم نرَ إلا ضعفًا في الارتباط بالجاذبية داخل حيّز ضيّق. حسبنا أننا سنرى أثرًا أقوى أو أوسع فحسب. لكنّ الحسابات تُظهر منطقة مستقرة يمكن أن يقترب فيها هذا الارتباط من الصفر».

وأشارت نيراي إلى الدائرة.

«في هذه المنطقة كلّها؟»

«بحسب النموذج، نعم».

«كم يبلغ اتساعها؟»

«في هذا الحساب بالذات يبلغ قطرها ثلاثمئة وثمانين كيلومترًا».

نظرت نيراي إليه.

«أنت تقول لي إن في وسعكم تعطيل الجاذبية فوق مساحة تضاهي دولة».

هزّ أوران رأسه نافيًا في الحال.

«أقول إن قوانين الفيزياء تتيح ذلك على ما يبدو. أما نحن فلا نملك جهازًا كهذا».

«وأيمكن صنعه؟»

التفت أوران إلى رجل آخر في القاعة.

كان كبير المحلّلين التقنيين في المشروع.

قال: «في ضوء ما بلغته التقنية اليوم، نعم».

غيّر ذلك الجواب جوّ الغرفة.

سألت نيراي: «في كم من الزمن؟»

«لمن يملك كل ما يلزم، لعلّه عامان أو ثلاثة».

«وماذا يعني كل ما يلزم؟»

ظهرت على الجدار قائمة.

معدات قلّ من يملكها.

وأجهزة قياس متخصّصة.

ومواد يصعب إنتاجها.

وموارد هائلة من الطاقة.

وعدة خطوط إنتاج متخصّصة.

ومعرفة دقيقة بالإقليم.

وقدرة حاسوبية لا تتاح إلا لعشرات قليلة من المراكز على الكوكب.

وشبكة من الفنيّين ذوي اختصاصات دقيقة للغاية.

قرأت نيراي القائمة على مهل.

«وماذا يحدث لو أقدم أحد حقًّا على تشغيله؟»

هذه المرّة أجاب أوران.

«تختلف العواقب باختلاف الظروف».

«أسوأ احتمال واقعي».

جلس أوران.

«يكاد ينقطع ما يشدّ الناس والأشياء غير المثبّتة إلى السطح. ويسلك الماء سلوكًا آخر، والهواء أيضًا. وتفقد وسائل النقل تماسّها بالأرض. وإذا طال الأمر زاد دوران الكوكب الموقف تعقيدًا».

ظهرت على الخريطة طبقات أخرى.

المدن.

والأنهار.

وشبكات الطاقة.

وتقاطعات النقل.

تابع أوران: «الأرض نفسها لن تنطلق إلى الفضاء. ثمة قوى أخرى تجعل الصخور تتماسك. لكن أنظمة لا حصر لها تتأثّر باتزان الجاذبية. فإذا نشأ الحقل فجأة فوق إقليم مأهول فقد يكون عدد الضحايا هائلًا».

«وحين يطفئونه؟»

«تعود الجاذبية».

أدركت نيراي بقيّة الجواب قبل أن يقوله.

كل ما فقد تماسّه بالأرض في أثناء عمل الحقل سيبدأ بالسقوط.

سألت: «كم إنسانًا يعيش داخل تلك الدائرة؟»

«أحد عشر مليونًا في هذا النموذج».

لم يطرح أحد بعد ذلك سؤالًا آخر.

أمضى المجلس التقني الأيام الستة التالية يحاول أن يعرف إن كان في الوسع إبقاء الظاهرة المكتشفة خارج متناول التطبيق العملي.

ولم يكن الجواب مريحًا.

كانت التقنية معقدة باهظة الكلفة، تحتاج إلى معدات لا تُصنع إلا في أماكن معدودة. لكن المبدأ الفيزيائي أعمّ من أن يبقى سرًّا إلى الأبد.

كان الزمن يعمل ضدّ السريّة.

ما يكتشفه مختبر سيكتشفه، بمرور الزمن، مختبر آخر.

وما نمذجه ذكاء اصطناعي سيستنبطه يومًا ذكاء آخر.

أدرك إلاريون منذ زمن بعيد أن المعرفة العلمية لا تؤمَن عليها الأقفال أجيالًا في غرفة واحدة. وهكذا انتقل السؤال من الفيزياء إلى المجتمع.

في جلسة استثنائية اجتمع ممثلون عن المصنّعين والجامعات وشبكات الطاقة والهيئات الأمنية ومجالس المواطنين والجسر.

كان دارين فولتر جالسًا بينهم.

كان شيخًا. لكن طبّ إلاريون بلغ من التقدّم مبلغًا جعل الكِبَر، منذ أمد بعيد، غير مقترن حتمًا باعتزال الشأن العام.

وحين أُعطي الكلمة، التفت إلى أوران.

«كم شيئًا مختلفًا ينبغي شراؤه أو صنعه كي يتحقّق كلّ هذا؟»

«آلاف الأشياء».

«وكم منها متاح في العادة؟»

«أكثرها».

«إذًا لن يحلّ حظر المكوّنات منفردةً شيئًا».

«بالضبط».

«وكم منها حاسم؟»

فتح أوران القائمة.

«يتوقّف ذلك على ما تعنيه بحاسم. إذا قصدت ما لا نستطيع المضيّ من دونه في الوقت الحاضر، فثمّة عدد محدود من الشروط التقنية».

«وكلّها منتجات؟»

«هي شروط. بعضها منتجات. وبعضها قدرة إنتاجية أو طاقة أو خبرات بشرية أو موارد حاسوبية».

أومأ فولتر.

«وكم جهة على إلاريون تستطيع أن تستوفي هذه الشروط مجتمعة؟»

صمت أوران.

«لا أدري».

جاء صوت نيراي من مقعدها.

«الجسر يدري».

التفت الجميع إليها.

وابتسم فولتر ابتسامة خفيفة.

«بالطبع».

كانت نيراي تعرف تلك النبرة.

«أتريد الجواب أم مناقشة السبب الذي جعل الجواب عندنا؟»

«كليهما».

«فلنبدأ بالجواب».

انفتحت أمام نيراي واجهة عمل الجسر.

«أرسلوا إلينا الشروط التقنية».

تجهّم أوران.

«لا نستطيع أن نضعها كاملةً في نظام مالي».

«لستم مضطرّين إلى ذلك. كلّ ما نحتاج إليه صورتها الاقتصادية».

«ماذا تعنين؟»

أشارت نيراي إلى أوّل بند.

«ما حجم الحاجة إلى هذه الأجهزة؟»

«هو مبيّن في التقدير».

«ومن يصنعها؟»

ظهرت على الجدار ثلاث شركات.

«والفئة التالية من الأجهزة؟»

«تتطلّب قدرة أوسع».

ظهر المصنّعون وحجم قدراتهم الإنتاجية.

«والطاقة؟»

أعطى أوران تقديرًا للاحتياجات.

وعرض الجسر الجهات التي يمكنها توفير هذا القدر من الطاقة.

«والمواد؟»

طبقة أخرى.

«والحوسبة؟»

وأخرى.

«والتصنيع الدقيق؟»

وأخرى.

«والاختصاصيّون؟»

هنا توقّفت نيراي.

«في ما يخصّ الأفراد لن نستخدم إلا أرقامًا إجمالية عن توافر الخبرات. ستبقى الأسماء محميّة».

رفع فولتر حاجبيه.

«هذا شيء، على الأقل».

تابعت نيراي.

وأخذ الجسر يجمع الشروط شيئًا فشيئًا.

لم يكن يُعدّ قائمة بالمشتبه بهم.

كان يرسم خريطة للقدرات.

عرف النظام مَن يملك كبرى الشركات الصناعية.

وعرف ما تُعلنه الشركات من قدراتها وما يمكن التحقّق منه من واقع نشاطها الفعلي.

وعرف عقود الطاقة الكبرى.

ومصادر تمويل مراكز البحث.

ومنشأ رأس المال.

وعرف من حياة الصناعة ما تكشفه سجلات التجارة والإنتاج والتبادل بين إلاريون وثايرون.

قبل الثلث كانت هذه المعلومات ستظلّ موزّعة بين عشرات المصارف والسجلّات والدول.

أما الآن فأمكن ضمّ بعضها إلى بعض بحسب المالك الفعلي والغرض الاقتصادي.

وبعد بضع دقائق ظهر عدد على الجدار.

١٤

زالت عن وجه فولتر أمارات التسلية.

«ماذا يعني أربعة عشر؟»

«أربع عشرة مجموعة اقتصادية تملك اليوم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ما يمكّنها من استيفاء أكثر من ثمانين في المئة من الشروط اللازمة».

«مجموعة اقتصادية؟»

«قد يبلغ عددها، في نظر القانون، مئات الشركات. ويجمعها الجسر بحسب المالك الفعلي وما يربطها من سيطرة وتمويل وتبعية اقتصادية».

فتحت نيراي السجلّ الأول.

ائتلاف تعدين كبير في ثايرون.

واحد وتسعون في المئة.

والثاني.

شركة تُصنّع أنظمة الطاقة على امتداد الكوكب.

تسعة وثمانون.

والثالث.

مجموعة صناعات عسكرية في إحدى الدول.

أربعة وتسعون.

والرابع.

ائتلاف للبناء في المدار.

سبعة وثمانون.

ثم غيرها.

بعضها خاصّ.

وبعضها عامّ.

وثلاث منها تملكها دول.

وكانت إحدى المجموعات الاقتصادية موزّعة على أكثر من أربعين شركة.

سأل فولتر: «ومن بلغ المئة في المئة؟»

«لا أحد».

«حتى الآن».

«حتى الآن».

ظلّت القاعة صامتة.

وأضاء الجدار أربعة عشر اسمًا.

قبل بضعة أيام لم يكن يجمع بينها إلا أنها من أرقى مؤسسات الكوكب تقنيًا.

ومنذ الآن صارت تجمع بينها صفة أخرى.

أصبحت كلّ واحدة منها على مقربة كافية من امتلاك القدرة على صنع جهاز يغيّر الجاذبية فوق رقعة شاسعة.

قال فولتر: «هذه بالضبط هي اللحظة التي كنت أخشاها».

كان الاجتماع قد دخل ساعته الرابعة.

سألت نيراي: «لماذا؟»

«لأن نظامًا ماليًا وضع لتوّه قائمة بأربع عشرة جهة يعدّها مصدر خطر محتمل».

«ما في القائمة هو القدرة التقنية».

«وهل تزعمين أنه ليس بينهما فرق في الممارسة؟»

«الفرق جوهري».

أشار فولتر إلى الاسم الأول.

«هذه شركة تمارس التعدين على ثايرون. لم تهدّد أحدًا. ولا سابقة عنف تُنسب إلى إدارتها. ومعظم ما يلزم من المعدّات تملكه لأنها تستخدمه في التعدين».

«نعم».

«ومع هذا تراقبونها».

«الجسر يراقب تغيّر القدرة، لا تصرّفات المدير».

«لا يطمئنني ذلك».

أطالت نيراي النظر في الخريطة لحظة.

«قبل الثلث وقعنا في الخطأ المعاكس».

لم يقل فولتر شيئًا.

«انتظرنا مسوّغًا للاشتباه قبل أن ننظر. وحين وقفنا أمام ما جرى في قضية أريين، تبيّن أن كلّ واحد منا كان ينتظر من سواه أن يطرح السؤال».

أطرق فولتر.

وتابعت نيراي.

«وفي هذه التقنية تكون النيّة نقطة انطلاق أسوأ. قد لا يخطر للمرء أن يقتل أحد عشر مليون إنسان. قد يُجري تجربة. وقد يُخطئ. وقد يستهين باضطراب الحقل».

أومأ أوران.

«هذا أمر وارد».

وأشارت نيراي إلى القائمة.

«يجب أن نعرف أين تنشأ على الكوكب قدرة على تجاوز حدّ معيّن. لكنّ كل تدخّل يجري استنادًا إلى هذه المعرفة يجب أن يخضع بدوره للرقابة».

سأل فولتر: «وماذا يكون الحدّ؟»

«ذاك قرار سياسي».

«إذًا نعود آخر الأمر إلى السياسة».

«كانت هنا دائمًا».

اتّكأت نيراي على الطاولة.

«الفارق أننا نرى الآن ما نبتّ فيه».

استحال الجزء التالي من الاجتماع تمرينًا تقنيًا.

اقترح أحدهم اشتراط رخصة لبيع أجهزة توليد حقول الجاذبية.

ونبّه أوران إلى أن الأجهزة الأصغر حجمًا ستُنتج بكميات كبيرة في غضون أعوام قليلة.

وتناول مقترح آخر أجهزةً للتزامن.

وأجاب المصنّعون بأن هذه الأجهزة نفسها تُستعمل في الطبّ والطاقة والملاحة المدارية.

وحظر المواد المستحدثة من شأنه أن يشلّ قطاعًا من الصناعة.

أما مراقبة الطاقة وحدها فلن تعطي قراءة دقيقة.

وتبيّن رويدًا رويدًا أن الخطر لا يصدر عن شيء واحد.

إنما ينشأ من اجتماع قدرات كثيرة.

لم تتكلم نيراي إلا قليلًا في أثناء النقاش.

تذكّرت من أيامها في الطبقة إحساسًا شديد الشبه بهذا.

لم تكن المعاملة النقدية بذاتها تثبت شيئًا.

ولا الصندوق يثبت شيئًا.

ولا المختبر يثبت شيئًا.

ولا المال المدفوع لقاء البحث يثبت شيئًا.

إنما تولّدت الكارثة من العلاقات بينها.

قال تارين ذات يوم إن الناظر إلى الكوكب بكامله لا يجد إلا بضعة عقود تفصل بين أي إنسان وأي إنسان سواه.

وأجابته نيراي يومها بأنهما لا يبحثان عن صلة.

بل يبحثان عن وجهة.

والآن احتاجوا إلى شيء من ذلك القبيل.

إلى نظام ينتبه حين تبدأ أعمال اقتصادية كثيرة اعتيادية تتّجه جميعًا صوب قدرة واحدة غير اعتيادية.

مع نهاية اليوم اتّخذ مقترح أوليّ شكله.

وأُطلق عليه اسم «**سجلّ القدرات الاستراتيجية**».

ولم يكن الاسم دقيقًا، فالأمر لم يكن سجلًّا بالمعنى المألوف.

لم يكن أحد يدوّن فيه عبارة من قبيل: تمتلك الشركة سلاحًا جاذبيًا.

كان الجسر يحسب باستمرار ما في وسع كل مجموعة اقتصادية بعينها أن تستوفيه فعلًا من الشروط التقنية.

ويقوم الحساب على فئات أُقرّت علنًا.

دقّة التصنيع.

المواد.

الطاقة.

الخدمات اللوجستية.

القدرة الحاسوبية.

الخبرة.

ملكية الأجهزة اللازمة.

وإمكان الانتفاع بمعدّات الشركات التابعة.

والعقود طويلة الأجل.

وفي أشد التقنيات حساسية كان الحساب يراعي كذلك موارد عدّة موزّعة على مناطق مختلفة.

لم يكن تجاوز الحدّ في ذاته يجعل أحدًا مذنبًا.

لكن بلوغ درجات أعلى كان يُلزم بالإفصاح عن غرض المشروع وإخضاع بعض التجارب لرقابة مستقلة.

وكان الاطّلاع على البيانات المفصّلة يُدوَّن.

وترى الجهة أي مؤسسة فحصت قدراتها.

وأُخضعت القواعد التي يستند إليها النظام في تقدير الخطر لمراجعة أهل الاختصاص على الملأ.

وظلّت التفاصيل التقنية التي قد تتحوّل إلى دليل عمليّ محميّة.

حاول إلاريون أن يفصل بين شيئين يسهل التباس أحدهما بالآخر.

خصوصية الإنسان.

وخفاء السلطة.

ظهرت المشكلة الحقيقية بعد سبعة أشهر.

رصد الجسر تغيّرًا في إحدى المجموعات الأربع عشرة.

كانت شركة أستيرون داينامیکس.

عرفها الناس مصنّعةً لأنظمة النقل الثقيل. وكانت لها مصانع في ثلاث قارّات، وحصّة في شركة طاقة، ومساهمة أقلية في شركة على ثايرون تنتج مواد مستحدثة.

قُدّرت قدرتها التقنية في مجال حقول الجاذبية بدءًا بثلاثة وثمانين في المئة.

وفي أربعة أشهر ارتفعت إلى اثنين وتسعين.

ولم تكن وراء الارتفاع صفقة ضخمة واحدة.

فقد وسّعت أستيرون نشاطها الصناعي.

وظهر في أوراق المجموعة التزام جديد.

واستثمار آخر.

واتّسع فريقها العلمي.

كان لكل حادثة من تلك الحوادث تفسيرها الاقتصادي الخاص.

لكنها أحدثت مجتمعةً وضعًا جديدًا.

أرسل الجسر تنبيهًا إلى لجنة التقنية.

وطلبت اللجنة تفسيرًا من أستيرون.

فورد الجواب في اليوم نفسه.

كانت الشركة تطوّر لسفن الشحن نظام جاذبية جديدًا.

كان العمل مشروعًا.

وظهرت المشكلة لدى فحص خصائصه التقنية.

كانت أستيرون تعتزم صنع عدد من الأجهزة الكبيرة للاختبار.

قال أوران: «هذا العدد لا يكفي لإحداث حقل على مستوى إقليم».

كانت نيراي جالسة إلى جانبه.

«وكم يلزم؟»

«لهذا التصميم؟ أكثر من ذلك بكثير».

«إذًا انتهى الأمر».

«لا».

وأشار أوران إلى خريطة علاقات الملكية.

ظهرت على الخريطة أجهزة أستيرون.

وإلى جوارها أدوات مشابهة.

بعضها كان لا يزال قيد التطوير.

وامتدّت الخريطة حتى ثايرون.

كانت السجلات القانونية تعدّها أربعة مشاريع متمايزة.

وكشف الجسر، من واقع الأدلّة المالية، ما يجمعها في الحقيقة.

وكان مجموع الأجهزة أكبر مما بدا لأيٍّ منهم.

طالت وقفة نيراي أمام العدد.

«أكانوا يعرفون؟»

«مَن؟»

«إدارة أستيرون».

هزّ أوران كتفيه.

«هذا ما لا تخبرنا به البيانات المالية».

استدعت اللجنة رئيس مجلس الإدارة.

كان اسمه ديران فوس.

وجاء بنفسه.

حين عُرضت عليه الخريطة بدت عليه الحيرة أولًا.

ثم الغضب.

«لا علاقة لهذه الأجهزة بعضها ببعض».

وأشارت نيراي إلى المجموعة الأولى.

«هذه من مشروعكم».

«نعم».

«وهذه من شركة الطاقة التابعة لكم».

«تلك شركة مستقلة».

«لكنكم تسيطرون عليها».

«اقتصاديًا. أما عملها التقني فلسنا نحن من يديره».

«وهذه تموّلها مؤسستكم».

«للمؤسسة إدارة مستقلة».

«واثنان وسبعون في المئة من إيراداتها تأتي منكم».

أسند ديران ظهره إلى كرسيه.

«أما التي في ثايرون فلا صلة لنا بها إطلاقًا».

فتحت نيراي العقد.

كانت أستيرون قد تعهّدت بضمان قرض لتلك الشركة.

وفي حال تعذّر السداد تنتقل إليها حقوق في بعض أصولها.

قرأ ديران العقد برهة.

«لم أكن أعرف بهذا».

«أصدّقك».

باغته ذلك.

«فلماذا أجلس هنا إذًا؟»

«لأن مجموعتكم تكتسب قدرة لعلّ إدارتها نفسها لم تزَها».

ساد الصمت في الغرفة.

كانت العبارة أشدّ إيلامًا من اتّهام.

ونظر ديران إلى الخريطة مرّة أخرى.

«أتقولون إن شركتي تستطيع أن تُنشئ نظامًا يعمل على نطاق إقليم من دون أن أدري؟» أجاب أوران.

«ليس بعد. ما زالت هناك شروط لم تُستوفَ. وبالوتيرة الحالية قد يتحقّق ذلك في غضون سنة».

«وإذا تحقّقت لدى إحدى الشركات التابعة؟»

«يحسبها الجسر ضمن المجموعة الاقتصادية إذا كان لكم فعلًا أن تتصرّفوا بتلك القدرة».

ابتسم ديران قليلًا، ولم يكن في ابتسامته هذه المرّة شيء من التسلية.

«إذًا يعرف النظام عن شركتي أكثر مما أعرف».

نظرت نيراي إلى الخريطة.

«لعلّه يعرف أكثر منك في هذه المسألة الواحدة».

أُغلقت قضية أستيرون من دون عقوبة.

وأتاحت الشركة مشاريعها في مجال الجاذبية للرقابة المستقلة وجمعتها تحت مظلّة برنامج تقني واحد.

أما الصدمة الكبرى فجاءت في ما بعد.

طلب مجلس الكوكب محاكاة تاريخية.

أراد أن يعرف ما كان سيجري لو نشأت التقنية نفسها في الزمن السابق للثلث.

أعاد المحلّلون تمثيل الظروف التقنية اللازمة في البيئة المالية القديمة.

ثلاثون عملة.

سرّية مصرفية.

صناديق لا يُعرف مالكوها الفعليون.

مؤسسات.

ولايات ضريبية.

أسرار تجارية.

أنظمة تراخيص متفاوتة.

وتبادل ضيّق للبيانات بين الدول.

ثم أُسندت إلى النموذج مهمّة:

قدّر ما إذا كان يمكن لقدرة على تغيير الجاذبية إقليميًا أن تنشأ من دون أن تدرك المؤسسات حجم الخطر.

كشف الذكاء الاصطناعي آلاف الاحتمالات.

وظهر في المحاكاة وجه الصناعة القديمة.

ووجه المال.

ووجه قطاع الطاقة.

ووجه التجارة مع ثايرون.

وكان للجامعات مكان في الصورة.

وكذلك للمعدّات الصناعية.

وللمنشآت العامة التي اعتمد عليها الجميع.

كانت كل هيئة سترى شيئًا.

وما من هيئة ترى ما يكفي.

تابعت نيراي المحاكاة من دون كلمة.

كانت تعرف تلك الصورة حقّ المعرفة.

تغيّرت الألوان.

وتغيّرت التقنية.

وبقيت الآلية.

كان الخطر العظيم قائمًا، وظلّ العالم عاجزًا عن تبيّنه.

ثم اختبر المحلّلون المسألة نفسها في بيئة الجسر.

اختبر النموذج إلى أيّ مدى تبقى صورة الملكية واضحة.

جمع الجسر أسماء المالكين الفعليين.

ثم نظر المحلّلون في صلات الشركات.

فظهرت لهم الصورة الواسعة.

وجاء الدور على مؤسسة.

وعرفوا ما الذي يشدّها إلى تلك الصورة.

وعُرضت على الجسر التزامات أخرى.

فلم يغب أثرها عن الحساب.

ثم تغيّرت الأرقام من جديد.

وظلّت أمامهم الحدود الفعلية لما في وسع أصحاب المشروع.

ثم شمل الاختبار دولًا مختلفة.

ولم تعد العملة تحيل الحدود إلى بقاع عمياء.

ظهرت أولًا إشارة خافتة.

ثم بدأت رقابة تلقائية.

ثم وجب تقديم إفادة تقنية.

وفي الدرجة الأعلى حال النظام دون إتمام المشتريات الحسّاسة من غير إذن مناسب.

حين انتهت المحاكاة طال الصمت في القاعة.

جلس دارين فولتر إلى جانب نيراي.

قال أخيرًا: «فهذه إذًا حجّتك».

«ليست حجّتي».

«حجّة مَن إذًا؟»

وأشارت نيراي إلى النتائج.

«حجّة الفيزياء».

مسح فولتر وجهه بيديه.

«بدأ جيساير بالدخل الأساسي الشامل».

«أعلم».

«كان يتحدث عن حصّة عادلة».

«أعلم».

«ثم تناولنا الفساد. والضرائب. والسياسة. والحرب».

نظَر إلى خريطة حقل الجاذبية.

«وتقولين الآن إننا نحتاج إلى النظام نفسه حتى لا يأتي أحد فيطفئ الجاذبية فوق نصف قارّة».

ابتسمت نيراي ابتسامة خفيفة.

«حين تضعها بهذه الصورة تبدو فيها مسحة من المبالغة».

«أفيها مبالغة؟»

نظرت إلى نتيجة المحاكاة.

«لا».

لم يعلم الناس بإمكان نشوء حقل جاذبية على نطاق إقليمي إلا بعدما أُقرّ إطار ضوابط السلامة.

وظلّ الاطّلاع على التفاصيل مقيّدًا.

عرف الناس ما تستطيع التقنية فعله.

وعرفوا فئات القدرات اللازمة لها إجمالًا.

أما التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن يُستنبط منها تصميم عمليّ فلم تُنشر.

واحتدم النقاش.

أراد فريق من الناس أن تنفرد الدولة بملكية تقنيات الجاذبية جميعًا.

واعترض العلماء على ذلك.

وطالب آخرون بإعلان التفاصيل كلّها عن كل جهاز.

ونبّه أهل الصناعة إلى أن أنظمة الجاذبية ستصبح قريبًا جزءًا مألوفًا من النقل والإنتاج.

وقرّر إلاريون أخيرًا أن ينظّم القدرة بحسب مداها.

فبقي جهاز المناولة الصغير أداة عادية.

وخضعت المولّدات الصناعية للتسجيل التقني.

واحتاجت المنظومات القادرة على بلوغ درجات أعلى من الحقل إلى ترخيص.

وحين تقترب القدرة من التأثير على مستوى إقليم، تتدخل رقابة الكوكب تلقائيًا.

لم يكن أهم ما في النظام يتصل بالجهاز بعد اكتماله.

كان الجسر يرصد نشوء **الشروط** التي تتيح صنعه، أينما نشأت.

وهذا غيّر مفهوم الأمن نفسه.

كانت الحضارات السابقة تحرس مستودعات السلاح.

وتعلّم إلاريون أن يرصد نشوء القدرة على صنع السلاح.

ولم يحتج الجسر، في ذلك، إلى معرفة ما يفكّر فيه الإنسان.

ظلّت النيّة خبيئة الرأس.

أما القدرة الاقتصادية فلها آثار في العالم المادّي.

تحتاج إلى مادة.

وطاقة.

وآلات.

ومبانٍ.

وناس.

ونقل.

وحسابات.

وهذه الأشياء جميعًا تمرّ بالاقتصاد.

مساء أحد الأيام بقيت نيراي وفولتر وحدهما بعد جلسة.

وامتدّت نيترا وراء النوافذ.

كانت مسارات النقل تعجّ بالحركة فوق النهر، وبين المباني تعبر منصّات الشحن الجديدة العاملة بالجاذبية. قبل سنوات قليلة ما كانت واحدة منها لتبدو إلا معجزة.

أما الآن فقلّما كان أحد يلتفت إليها.

تابع فولتر إحداها بعينيه.

كانت تحمل جزءًا من هيكل جسر.

قال: «ما زلت أعتقد أنك فتحت الباب لشيء خطر».

«لأيّ شيء؟»

«لنظام يعرف ما يمكن للإنسان أن يفعله قبل أن يفعله».

صمتت نيراي برهة.

«ليست عنده هذه المعرفة».

«رأينا للتوّ جدولًا بأربع عشرة شركة».

«يعرف ما تقدر، من الناحية التقنية، على فعله. ولا يعرف ما ستفعله».

«لعلّ الفارق ضئيل في نظر من تبدؤون بمراقبته».

«لهذا نراقب الرقابة نفسها».

ضحك فولتر.

«عندك جواب واحد لكلّ شيء».

«لأن المشكلة تظلّ هي نفسها».

«السلطة».

«أجل».

واستدار فولتر إليها.

«ولو لم يكن لدينا الجسر؟»

نظرت نيراي إلى المدينة.

«مع وجود هذه التقنية؟»

«نعم».

أطالت التفكير أكثر مما توقّع فولتر.

«لكانت لدينا تراخيص. وتفتيش على المصنّعين. وسجلّات للمعدّات. وأجهزة أمنية. وأرقام تسلسلية».

«لا يبدو الموقف ميؤوسًا منه».

«ليس كذلك».

والتفتت نيراي إليه.

«لكنّ مَن عقد النيّة على تجاوز النظام كان سيستفيد من عمى كلّ جهة عمّا يفوتها».

صمت فولتر.

«كان في وسع كثيرين أن يُسهموا، كلٌّ من موضعه، في عمل واحد. وقد يمضي بعضهم فيه طويلًا بغير أن يعرف حتى ما الذي يعمل عليه».

«كما فعل أريين».

«نعم».

وعبرت في الخارج منصّة شحن أخرى.

تابعت نيراي: «كان النظام القديم سيبحث عن الجهاز. أما الجسر فيرى أن الشروط التي قد يتولّد منها جهاز بدأت تجتمع في مكان ما».

وحدّق فولتر في أضواء المدينة.

«ويومًا ما ستزداد التقنيات قوّة».

«بلا شك».

«أقوى من هذه؟»

ابتسمت نيراي.

«لو سألنا سؤال اليوم قبل مئة عام لبدا لنا عبثًا».

أومأ فولتر.

«إذًا فالمال، في آخر الأمر، ليس بيت القصيد في المال الشفّاف».

نظرت نيراي إليه.

لم تنتظر أن تسمع هذه العبارة منه.

«المال لم يكن قط مجرّد مال».

«فما هو إذًا؟»

تتبّعت نيراي برهة سيل الأضواء على الضفّة الأخرى من النهر.

«خريطة لما يستطيع إنسان فعله في العالم المادّي».

ولم يتكلم فولتر.

تابعت نيراي.

«بالمال تشتري طعامًا. وبيتًا. وسفينة. ومصنعًا. وبحثًا. وطاقة. ونفوذًا. وجيشًا. واليوم، جهازًا يغيّر الجاذبية أيضًا».

«إذًا من يرى المال يرى السلطة».

«بعضها».

«ومن يمسك بزمام المال يمسك بزمام السلطة».

«ولهذا لا يجوز أن ينفرد إنسان واحد بزمام الجسر».

ابتسم فولتر ابتسامة باهتة.

«لقد فهمتِ أخيرًا، بعد كل شيء، اعتراضاتي القديمة».

«فهمتها على الدوام».

«لكنّك تجاهلتِها».

«لا. لهذا جعلنا كل اطّلاع مرئيًا».

ضحك فولتر.

ومن القلب هذه المرة.

«لا سبيل إلى الفوز عليك».

«هذا ما كنت تقوله لي قبل سنوات».

وفي غضون بضع سنوات غدت أنظمة الجاذبية جزءًا من الحياة.

ومضت الحمولات الثقيلة فوق الطرق.

وانخفضت كلفة النقل المداري.

وعلى ثايرون نشأت مدن في أماكن ما كان لبنائها من قبل أيّ جدوى اقتصادية.

وفي المستشفيات استُخدمت الحقول الضعيفة في علاج أناس تعجز أجسادهم عن احتمال أوزانها.

وأخذ الباحثون يفكّرون في سفن تمضي نحو نجوم أخرى.

التقنية التي يمكن أن تقتل الملايين فتحت لإلاريون أيضًا طريقًا إلى عالم كان بالأمس يعجز عن أن يدفع ثمنه.

لم ترَ نيراي في ذلك تناقضًا.

النار تدفئ بيتًا وتحرق مدينة.

والطاقة تُبقي مستشفى على قيد الحياة وتمدّ سلاحًا بما يحتاج إليه.

والذكاء الاصطناعي يستطيع أن يبحث عن دواء، وأن يبحث عن طريقة أجدى للقتل.

وكلما زادت التقنيات التي يتقنها إلاريون، قلّ ما للسؤال وحده، أهذا الاختراع خير أم شرّ، من أهمية.

وبقي الفيصل أن يُعرف من يكتسب القدرة على استخدامه على نطاق واسع، ومن يعلم بأمر هذه القدرة، ومن يستطيع وقف سلطة كهذه.

وكانت حقول الجاذبية بالذات هي التي غيّرت، بصورة نهائية، النقاش العام بشأن الجسر.

فقبلها كانت فئة كبيرة من السكان لا تزال ترى في المال الشفّاف إصلاحًا اقتصاديًا.

يعين على حساب الحصّة الأساسية.

ويحدّ من التهرّب الضريبي.

ويكشف الفساد.

ويصعّب تمويل السلطة السياسية في الخفاء.

وبعد اكتشاف حقل الجاذبية الإقليمي أخذ النظام معنى آخر.

أدرك الناس أمرًا بسيطًا.

إذا امتلكت حضارة تقنيات يستطيع بها فرد أو شركة أو دولة أن يؤثّر في ملايين البشر، فلا بدّ لها أن تعرف كيف تتبيّن نشوء هذه السلطة قبل اكتمالها.

الفكرة السرّية وحدها لا وزن لها.

ولكي تتحقّق كان لا بدّ من حمل العالم على أن يتحرّك.

والعالم يتحرّك بالموارد.

كان لا بدّ أن يدفع أحد ثمن المصنع.

وأن يأتي أحد بالمادة.

وأحدٌ أمدّه بالطاقة.

وآخر صنع الآلات.

وأحدٌ دفع للعلماء أجورهم.

وآخر أجر المكان.

وأحدٌ تكفّل بسنوات كاملة من العمل في وقت لم تكن على المشروع فيه أمارة خطر واحدة.

كل تقنية كبرى كانت تترك أثرًا اقتصاديًا قبل أن تُشغّل لأول مرة بزمن بعيد.

وكان إلاريون القديم يفرّق هذه الآثار بين المصارف والدول والعملات.

أما إلاريون الجديد فاستطاع أن يراها جنبًا إلى جنب.

عندئذ فقط انفتح لكثير من الناس، في عبارة جيسايير، معنًى أرحب مما فهموه أيام منتدى نيترا.

لا يجوز أن تمضي القيمة في الظلّ.

فلم تكن القيمة مجرّد ثروة.

كانت قدرة على تغيير العالم.

وحضارة بدأت تملك القدرة على أن تغيّر الجاذبية نفسها، لم يعد في وسعها أن تجهل بين يدَي مَن تنمو قدرة كهذه.

درس للأرض

لا بدّ أن القارئ المتنبّه قد لاحظ أن مشكلات إلاريون التي ورد وصفها هنا هي أيضًا مشكلات الأرض اليوم. وأعتقد أن بوسعنا أن نعالجها بأمان، وأن نظل ممسكين بزمام الأمور، على نحو يشبه ما جرى على إلاريون، وذلك بإنشاء نظام معلومات مركزي موحّد وشفاف للتسويات المالية على الكوكب بأسره. وسأعدّد هذه المشكلات بإيجاز، وأبيّن في بضع جمل ما الذي سيتغيّر في معالجتها إذا اعتُمد هذا النظام.

تعاظم سلطان التكنولوجيا على الكوكب واستعصاؤه على الضبط

يدفع التقدّم العلمي بالبشرية، يومًا بعد يوم، إلى وضع يمكن فيه للجمع بين تقنيات كالذكاء الاصطناعي والتقنيات الحيوية أن يعرّض الكوكب بأسره لخطر وباء يُدبَّر في الخفاء. ويقلقني أن الإمكانات التي يتطلّبها إحداث أذى بهذا الحجم أخذت تصبح في متناول أفراد. إذا دخلت اليوم مستودع مصنع حديث وسألت مديره كم قطعة من صنف معيّن لديه، وأين يجدها، كفته نظرة واحدة إلى نظام المعلومات ليجيبك. وأنا مقتنع بأن إدارة المجتمع الحديث ينبغي أن تعمل على هذا النحو أيضًا. فعند الحاجة، يجب أن يستطيع القائمون على شؤونه أن يعرفوا بنظرة إلى نظام التسويات أين تلتقي المصالح المالية وراء أنشطة قد تعرّض الناس للخطر. وقد تكون القدرة على الإجابة عن سؤال كهذا هي الفارق بين بقاء حضارة وزوالها. أما المقولة إن الأصل أن يملك السياسيون والقائمون على شؤون المجتمع أقلّ قدر ممكن من السلطة، فلا يحفظ لها وجاهتها في رأيي إلا بقاء حركة الأموال والممتلكات محجوبة عن الأنظار. ففي مجتمع شفاف لن يجد السياسي موضعًا يواري فيه مآربه الخفيّة. وما إن يخطر له أن يسيء استعمال سلطته ويترك ذلك أثرًا في حركة أمواله

حتى ينكشف أمره. وستكون الشفافية ضمانة تتيح لنا أن نعهد بأمورنا إلى سياسيين أجدر بكثير ممّن يتولّونها اليوم على كوكبنا.

إذا انكشفت حركة الأموال، استحال إنشاء مختبر حيويّ في الخفاء، إذ سيعرف كلّ منا عن تدبير شؤون الآخرين أكثر بكثير مما يعرفه اليوم. وذلك جوابي عمّن يسأل كيف نسوس عشرة مليارات إنسان على كوكب واحد من غير أن يأكل بعضهم بعضًا. سيكون في وسع أيّ إنسان، من حيث المبدأ، أن يراقب أيّ إنسان آخر، وفق آلية موحّدة لها ضوابطها، ومستقرّها في صميم المجتمع نفسه، وبذلك نضمن جودة هذه الرقابة.

الفساد والدولة قليلة الكفاءة

سلْ خبيرًا اقتصاديًا معاصرًا عن أشدّ المشكلات التي تواجهها البشرية، وسيكون من أوائل ما يذكره أننا لم نفلح بعدُ في جعل الدول تعمل بالكفاءة التي تعمل بها الشركات. وفي مجتمع شفاف يتعامل بعملة واحدة، لن يحدث أبدًا أن ينشأ بوتين جديد على تربة الفساد، لأن الفساد ببساطة سيغدو مستحيلًا. وستنكشف كل إساءة لاستعمال السلطة في اللحظة التي تقع فيها تقريبًا، ويعقبها العقاب فورًا. وبعد هذا التغيير ستأخذ الدول في أداء وظائفها على نحو أفضل بكثير، شيئًا فشيئًا. وستُبنى المستشفيات والطرق السريعة بوتيرة أسرع مما تُبنى في الصين. ولن تكون ثمة عقودٌ تُضخَّم أثمانها، إذ يكفي إنسان واحد يعرف أن السعر مبالغ فيه، فيلقي نظرة على النظام ويُسمع العالمَ كلّه احتجاجَه في الحال عبر قنوات التبليغ المعتمدة.

مشكلات التهرّب الضريبي

للضرائب في العادة حالان. فإمّا أن تكون مرتفعة فيسلك الناس كل سبيل ليتجنّبوا دفعها، وتقلّ الحصيلة، ويميل السياسيون لهذا السبب إلى زيادتها مرة أخرى، فتقلّ الحصيلة أكثر. وإمّا أن تكون معقولة نسبيًا فيرضى الناس بأدائها، وتكثر الحصيلة، فيصبح من الممكن

خفضها أكثر. وأسوأ من الضرائب المرتفعة ضرائبُ قد تكون أقلّ، لكن أبواب الإفلات منها كثيرة. فما من شيء يشوّه بيئة الأعمال كتلك المنظومة الضريبية الرديئة المبهمة التي تكثر فيها المخارج. وفي تقديري، فإن أقصى ما يُعقل أن يُفرض ويُحتمل من الضرائب هو ٢٥٪، بما فيها ضريبة القيمة المضافة. وما يُستوفى في سلوفاكيا مثلًا من ضرائب واشتراكات من إجمالي تكلفة الأجر على ربّ العمل أمر صارخ. فعبء الضرائب الفعلي يتجاوز قليلًا نطاق ٥٥ إلى ٦٠٪ إذا احتُسبت ضريبة القيمة المضافة والضرائب الانتقائية أيضًا. وقد استحدث السياسيون في سلوفاكيا فوق ذلك استثناءات تتيح، مثلًا، لأصحاب الشركات ذات المسؤولية المحدودة الذين لا يتجاوز رقم أعمالهم ١٠٠ ألف يورو أن يدفعوا ضريبة لا تزيد على ١٠٪. وكان من الطبيعي أن يؤدّي هذا إلى نزوح هائل، فأخذ الناس يتركون وظائفهم وأعمالهم الفردية أفواجًا وينشئون شركات ذات مسؤولية محدودة.

وأنا مقتنع بأن ضريبة واشتراكات يبلغ مجموعها ٢٥٪ كانت لتكفي وزيادة لتسيير الدولة لو لم يكن ثمة سبيل إلى الإفلات من أدائها. ولو كان المال مرئيًا لأمكن أيضًا معرفة مقدار ما دفعه كلّ شخص من الضرائب. ولأصبح أداء المرء ضرائبه، وإسهامه بذلك في تسيير شؤون المجتمع، مدعاة إلى الاعتزاز ومصدرًا للمكانة بين الناس.

إنهاء النزاعات المسلحة والكشف الفوري عن كل تلاعب بالأموال

حين تصبح الأموال مرئية في المجتمع، لن يكون من الممكن تكرار ما استطاعت حماس فعله في خريف عام ٢٠٢٣، حين أعدّت لهجمات مسلّحة بأسلحة حصلت عليها خفية. ولن يكون بالإمكان، في نظام شفاف، أن يُدوَّن في خانة الغرض من الدفع شراء صواريخ متوسطة المدى. بل ما كان ليُسمح للأمور أصلًا بأن تبلغ هذا الحدّ من التصعيد، إذ ما كان مجتمع شفاف ليتيح للإسرائيليين أن يأخذوا أرض الفلسطينيين ويضعوا أيديهم، بوقاحة القردة، على ما ليس لهم. وحين يصير المال مرئيًا، سيفقد كلّ وغد يستغلّ اليوم ما يكتنف المال من سرّية السِّترَ الذي يحميه، وتُعرض أفعاله على حكم المجتمع.

إقرار الدخل الأساسي الشامل بعدالة وشفافية

يشهد الكوكب اليوم وضعًا سيُعاد فيه تشكيل النظام الاجتماعي بفضل ثورة الذكاء الاصطناعي، سواء اعتُمد المال المرئي أم لم يُعتمد. وأظن أن نسبة كبيرة من الناس، تُعدّ بعشرات النقاط المئوية وتقع في طرفها الأعلى، سيصبح من المتعذّر إيجاد عمل لهم بسبب الذكاء الاصطناعي. وستتهدّد الكوكب اضطرابات جماهيرية تؤجّجها معاناة أناس فقدوا العمل ولم يعودوا يجدون ما يقيم أودهم. وسيتعيّن ابتكار سبيل عادلة لإعادة توزيع ما ينتجه الذكاء الاصطناعي من ثروة على من لا دخل لهم. وحتى نحدّد من يستحقّ أيّ مبلغ بطريقة شفافة ومنصفة يمكن التثبّت منها لاحقًا، لا بدّ من نظام في قلب المجتمع يُظهر أين تتوزّع موارده وكيف. ولا سبيل إلى إنجاز هذه المهمّة على نحو مُرضٍ من غير هذه المعطيات. إن إنشاء نظام مركزي للتسويات على الكوكب كلّه سيجعل قطاعات مصرفية بأكملها زائدة عن الحاجة، لأننا سنستغني عن العملات البديلة وعن الأعمال المالية المتصلة بها. ولعلّ ذلك يملأ أهل هذه الصناعة رعبًا في بادئ الأمر، لكن علينا أن ندرك أن الذكاء الاصطناعي سيغيّر النظام الاجتماعي من جذوره على أيّ حال. وفي ظنّي أن التحوّل الذي سيُحدثه لن يترك في المجتمع حجرًا فوق حجر. وما سيأتي بعد هذه التغييرات كلّها سيختلف عن واقعنا اختلافًا جوهريًا. سيكون مجتمعًا يقوم على أسس تكنولوجية جديدة، ويعامل كلّ إنسان بعدل وشفافية. وحين تهدأ إلى حدّ ما رجّة التغيير العنيف الآتي، سيبدأ الناس بالبحث عمّا يضفي على حياتهم معنى جديدًا ومشاعر جديدة بالامتلاء. وسيكون للتقنيات الجديدة، في صورة واقع افتراضي متطوّر وواجهات متقدّمة تصل الإنسان بالآلة، دور حاسم في ذلك. وسيمضي الناس معظم أوقاتهم في عوالم افتراضية تتيح من ضروب التجارب ما يجعل الواقع المادّي الأوّل يبدو إلى جوارها باهت الألوان. ويصبح نصيبُ هذا الواقع أن يُبقي الإنسان حيًّا ليتمكّن من الاستمتاع بمحتوى تلك العوالم بأقلّ قدر ممكن من المتاعب.

تحدّيات الحياة الأبدية وحلّ مشكلات السكّان على الكوكب بشفافية

أعتقد أن البشرية لا يفصلها سوى بضع خطوات عن التحكّم في الآليات الحيوية للشيخوخة وتجدّد الجسم، إلى حدّ تكفّ معه الأمراض والشيخوخة نفسها عن أن تكون من أسباب الموت.

وإذا بات من الممكن أن يعيش البشر إلى الأبد، برزت بقوّة مسألة قدرة الكوكب على إعالة سكّانه على المدى البعيد. ففي مثل هذه الظروف سيأخذ عدد البشر في التزايد على نحو أُسّي. وكلّ من يولد، ولو مرة واحدة، سيكون على الكوكب أن يضمن له عيشًا كريمًا لمدّة قد لا يكون لها حدّ. ومن المرجّح جدًا أن تظهر اتجاهات تدعو إلى ثني الناس عن الإنجاب لما سيلقيه من أعباء هائلة على الكوكب. وأرى شخصيًا أن موارد الأرض، إذا أُحسن استخدامها، تكفي لإعالة عشرات أضعاف سكّانها اليوم. على أن الناس إذا رغبوا في إنجاب الأبناء فسيكون عليهم أن يجدوا متّسعًا لهم باستيطان الفضاء. فيقصدون أولًا ما يصلح، ولو بقدر ما، من كواكب المجموعة الشمسية، ثم ربما يتيسّر لهم السفر بين النجوم مع تقدّم تقنيات الفضاء. وحين نحسب كم من المواليد الجدد يستطيع الكوكب إعالتهم على المدى البعيد، سيكون للبيانات المستمدّة من نظام التسويات المركزي دور أساس هنا أيضًا.

الحركة السياسية https://HumanityUnitedMovement.org

منذ سنة ٢٠١٩، وبعد ما يقارب عشرين عامًا من التفكير والتروّي، وأنا أعمل على نظام معلومات في هيئة تطبيق على الإنترنت. يستطيع أيّ مستخدم للإنترنت أن يسجّل فيه ثم يقدّم إقرارًا بممتلكاته، ويستطيع بعد ذلك، وفق شروط معيّنة، أن يُخضع البيانات المسجّلة لتدقيق مستخدمين آخرين في البوّابة.

التطبيق متاح على العنوان https://app.visiblemoney.org

وتقوم الفكرة كلّها على مبدأ بسيط. فمن يُخضع جميع ممتلكاته لمثل هذا التدقيق العلني على الإنترنت يكون إقراره في الأرجح صحيحًا وكاملًا. وإلّا لكفى مستخدم واحد يعرف شيئًا إضافيًا، فيصيح به في جزء من الثانية على منتدى التطبيق، حيث يطّلع عليه العالم كلّه على الفور.

كانت النسخة الأولى من التطبيق جاهزة في عيد الميلاد سنة ٢٠٢٣. كنت آمل أن أوفّق في الوصول إلى سياسي نزيه قبل الانتخابات الرئاسية في سلوفاكيا، التي جرت في شباط ٢٠٢٤. غير أن التطبيق قوبل باللامبالاة. فحتى ذلك الجناح من الطيف السياسي الذي كان، على الورق، أهلًا لأن تكون أمواله نظيفة، وجد حرجًا في كشف ممتلكاته بهذه الطريقة. والأرجح أن المشكلة لم تكن في التطبيق. فالمرشّح الذي أجابني مساعده وتواصل معي بعض الوقت سلك مسلكًا غريبًا حين سأله الصحافيون عن إقراره المالي. وبعد محاولات أخرى للتعريف بالتطبيق، منها محاولات لدى نوّاب البرلمان الأوروبي، أدركت أنني إن أردتُ للسياسة أن تبدأ العمل وفق هذه المبادئ فعليّ أن أؤسّس حركة سياسية تلتزم بها منذ لحظة ولادتها.

هكذا وُلدت فكرة Humanity United Movement.

الحسّ السليم أساس السياسة

سيكون الحسّ السليم مبدأ الحركة الأول. ولا أقصد بهذه العبارة قدرة مبهمة لدى الإنسان على الاهتداء بالحدس إلى الحلّ الصائب. إنما أقصد، قبل كلّ شيء، طريقة في التفكير نسعى بها إلى فهم حقيقة المشكلة، ونجمع ما يتاح من معلومات، ونزن سبل الحلّ المختلفة، ونختار ما كان أرجى منها أن يبلغ بنا النتيجة المنشودة.

فكثيرًا، بل أكثر مما ينبغي، ما نرى الرأي في السياسة يتكوّن أولًا، ثم يُبحث بعد ذلك عمّا يسنده من حجج. يتعلّم السياسيون ما يحبّ ناخبوهم سماعه، وعلى أساسه يصوغون تصريحاتهم. وينصرف همّهم عن حلّ المشكلات إلى إخراج حلولهم في صورة حسنة أمام الإعلام، وجني المكاسب السياسية من ورائها.

وأنا أعدّ هذا المسلك خطأً جوهريًا. فإذا أردنا للمجتمع أن يحسن تدبير شؤونه فعلينا أن نكون مستعدّين للتفكير حتى في الحلول التي لا تروق لنا للوهلة الأولى. وعلينا أن نقبل احتمال أن يكون صاحب الرأي المخالف مصيبًا، وأن تكون قناعاتنا نحن قائمة على مقدّمات خاطئة.

لذلك أودّ أن تتميّز Humanity United Movement بموقف ثابت في مواجهة الشعبوية. ولا يعني ذلك أن تدافع الحركة عن حلول لا تحظى برضا الناس لمجرّد أن تتميّز عن غيرها. بل يعني أن شعبية الحلّ لن تكون المعيار الفاصل في الحكم على صحّته.

ينبغي أن يرتكز كلّ قرار سياسي مهمّ على حجج يمكن للناس جميعًا تمحيصها. وعلينا أن نقدر على بيان المشكلة التي نسعى إلى حلّها، والبدائل التي نظرنا فيها، وسبب اختيارنا سبيلًا بعينها، والمخاطر الملازمة لها. وحيثما أمكن أن نحاكي آثار القرار سلفًا أو نختبرها بالتجربة وجب أن نفعل.

وعلينا في الوقت نفسه أن ندرك أن المشكلات لا تقبل كلّها جوابًا قاطعًا. فقد يختلف الخبراء، وتنقص بعض المعطيات، ويكون لكلّ حلّ مزايا ومآخذ تختلف عمّا لسواه. وليس من الضعف في هذه الحال أن نقرّ بعدم اليقين. الضعف أن ندّعي اليقين حين لا نملكه.

ومن المهمّ أيضًا أن نستطيع تقييم القرارات في ما بعد. فإذا تبيّن أن تدبيرًا ما لم يُجدِ، فلا ينبغي أن ندافع عنه لمجرّد أننا نحن من أقرّه. بل ينبغي أن نعدّله أو نتخلّى عنه.

فالغاية ليست أن نشكّل جماعة من الناس يحسبون أنفسهم حَمَلة الحقيقة المعصومين. بل أريد، على العكس من ذلك، أن أهيّئ بيئة تغدو فيها مراجعة المرء آراءه ومساءلتها على الدوام جزءًا طبيعيًا من اتخاذ القرار.

الأكاديمية السياسية

مما أفتقده في الحياة السياسية اليوم إعدادُ الناس إعدادًا منهجيًا لإدارة الدولة.

فلنتصوّر أننا أردنا بناء بيت. لن نعوّل على الأرجح على أن يتعلّم المشرف على البناء كلّ ما يلزمه في أثناء العمل نفسه. بل سنتوقّع منه أن يلمّ بمبادئ البناء الأساسية، وأن يعرف كيف يقيّم عمل كلّ مختصّ، وأن ينتبه إلى الخلل حين يقع.

غير أننا في إدارة الدولة كثيرًا ما لا نتوقّع شيئًا من ذلك. يتولّى المناصب العامّة أناس قد تحسن نيّاتهم، أو تبرع ألسنتهم، أو تكون لهم خبرة في الأعمال، من غير أن يكون لديهم ما يكفي من المعرفة بكيفية عمل الاقتصاد أو الصحّة أو التعليم، أو سائر الميادين التي سيتحمّلون مسؤوليتها.

وبالطبع لا يستطيع إنسان أن يكون خبيرًا في كلّ شيء. ولا أتوقّع من السياسي أن يُحسن تشخيص الأمراض أكثر من الطبيب، أو وضع المناهج الدراسية أكثر من مربٍّ خبير. لكنني أتوقّع منه أن يفهم المبادئ الأساسية لكلّ ميدان، وأن يقدر على وزن حجج أهل الاختصاص، وأن يعي الآثار الأوسع لقراراته.

لذلك أريد أن تؤسّس Humanity United Movement أكاديمية سياسية خاصة بها.

ستتوجّه الأكاديمية في المقام الأول إلى الشباب، إلى أناس يرحّبون بالشفافية، ويتابعون الشأن العام، ويرغبون في أن يكون لهم يومًا نصيب في إدارة مجتمعهم. وليس عليهم أن يحسموا سلفًا إن كانوا يريدون أن يصبحوا نوّابًا أو وزراء أو رؤساء بلديات أو اختصاصيين في الإدارة العامة. ما يهمّ أن يرغبوا في فهم الطريقة التي تسير بها الدولة وكيف يمكن تحسين إدارتها.

وستوفّر الأكاديمية تعليمًا منهجيًا في جميع الميادين المهمّة لعمل الدولة. فيدرس طلابها مبادئ الاقتصاد والمالية العامة والصحّة والتعليم والقانون والعلاقات الدولية والأمن والطاقة والبيئة. وتحظى آليات الإدارة العامة وإدارة المؤسّسات والعمل بالبيانات وتقييم نتائج القرارات السياسية بعناية خاصة.

لكن الأهمّ أن يتعلّم الطلاب من أجود ما هو متاح من معرفة في كل ميدان. فليس المقصود أن يحفظوا بضعة تعريفات مدرسية. إنما عليهم أن يفهموا كيف تعمل المنظومات المختلفة، وما العوامل التي تؤثّر في نتائجها، وما الخيارات التي تملكها الدولة لمعالجة مشكلات بعينها.

أتصوّر مثلًا أن يُكلَّف الطالب بتقييم اقتراح لإصلاح نظام الرعاية الصحية. فلا بدّ له من فهم سبل تمويله، وأهمّ أسباب نفقاته، ودور الوقاية فيه، وكيف تُقاس فاعلية العلاج، وما قد يترتّب على تغيير النظام من آثار في المرضى والعاملين في القطاع الصحي والمالية العامة.

وبطريقة مماثلة يمكنه تحليل نظام المعاشات التقاعدية، أو إصلاح ضريبي، أو عمل المدارس، أو إدخال الذكاء الاصطناعي إلى الإدارة العامة. ولن تقتصر الدراسة على الجانب النظري، إذ ستشمل حالات عملية وتمارين محاكاة وصياغة مقترحات يضعها الطلاب بأنفسهم لسياسات عامة.

وسيكون من المهمّ جدًا أن تُحدَّث المواد التعليمية باستمرار. فالعلم والتكنولوجيا يمضيان قُدمًا، وما كان يُحسب قبل عشرين عامًا أفضل المعارف المتاحة قد لا يكون كذلك

اليوم. ومن ثمّ سيكون على الأكاديمية أن تواكب التطوّرات في كلّ تخصّص وأن تتعاون مع خبراء يستطيعون نقل أحدث ما بلغه العلم.

وفي الوقت نفسه سيتعلّم الطلاب التمييز بين ما تقوم عليه أدلّة علمية متينة، وما لا يزال موضع نقاش بين المختصّين، وما صار من مسائل القيم أو السياسة. فحتى أفضل الخبراء لا يملك أن يختار عن المجتمع جميع أولوياته القيمية، وإن كان يستطيع أن يعينه على فهم ما يترتّب على كلّ خيار.

لذلك سيُخصَّص جانب من برنامج الأكاديمية لمنهجية اتخاذ القرار. سيتعلّم الطلاب التعامل مع عدم اليقين، وتبيّن الخلل في الاستدلال، والموازنة بين البدائل، واختبار فرضياتهم. وعليهم أن يتعلّموا أن جودة القرار ليست في أن تحضرك الإجابة على الفور في كل مرة، وإنما في أن تعرف كيف تتوصّل بالوسائل المتاحة إلى أفضل إجابة ممكنة.

وأتصوّر أن تفتح الأكاديمية أبوابها أيضًا لمن ليسوا أعضاء في الحركة. فلا ينبغي أن تكون مهمّتها تخريج جماعة من السياسيين على رأي أيديولوجي واحد. بل ينبغي أن تتيح للمرء تعليمًا يعينه على أن يفهم مجتمعه على نحو أفضل أيًّا كانت آراؤه السياسية.

وإذا نجحنا في بناء مؤسّسة كهذه، أمكن أن يتخرّج فيها تباعًا أناس مهيّأون لتحمّل مسؤولية قطاع أو آخر من الحياة العامّة. لا لأنهم بالضرورة أدرى من غيرهم بكلّ شيء، بل لأنهم نالوا تأهيلًا متينًا، وعرفوا كيف يعملون مع المختصّين، وفهموا تبعات قراراتهم.

وأعتقد أن هذه إحدى السبل إلى الارتقاء بالسياسة على المدى البعيد. فبدلًا من الانتظار لنرى إن كان سيظهر أناس أكفاء، يمكننا أن نبني عن قصد البيئة التي تُعِدّهم.

حركة عالمية لعالم مترابط

ولحركة Humanity United Movement مبدأ أساسي آخر، هو عالميّتها.

يقوم نظامنا السياسي اليوم في المقام الأول على الدول القومية. فلكل دولة حكومتها ومصالحها وأولوياتها السياسية. ولهذا الترتيب ما يبرّره. فالناس بحاجة إلى مؤسّسات تعرف أحوالهم المحلّية ولغتهم وثقافتهم وما يختصّون به من حاجات.

غير أن المشكلة تنشأ حين تتعارض المصالح الوطنية مع مصلحة البشرية جمعاء، أو حين يتعذّر إيجاد حلّ فعّال للمشكلات على مستوى دولة واحدة.

لا يعرف تغيّر المناخ ولا الأوبئة ولا الفساد الدولي ولا الأخطار الأمنية ولا تبعات التقدّم التكنولوجي حدود الدول. وكذلك لن يقف الذكاء الاصطناعي عند حدود البلدان، إذ سيتأثّر الناس في كلّ أنحاء الكوكب بتطوّره وتبعاته الاقتصادية.

لذلك أرى من المهمّ أن تنشأ حركة سياسية تفكّر منذ البدء على نطاق العالم.

وينبغي لحركة Humanity United Movement أن تنشئ بالتدريج تنظيمات في بلدان العالم المختلفة. وسيعمل كلّ منها في ظلّ الظروف المحلّية ويحترم قواعد الديمقراطية في بلده. وتجمع بينها في الوقت نفسه مبادئ مشتركة هي الحسّ السليم والشفافية والمسؤولية والسعي إلى حلّ المشكلات بما يخدم مصلحة البشرية الأوسع.

وأتصوّر أن تتعاون التنظيمات الوطنية في المسائل التي يؤتي فيها تنسيق الجهود فوائد كبيرة. وهكذا يُفتح مجال لتبادل الخبرات ومقارنة نتائج السياسات والتعرّف إلى الحلول التي أثبتت جدواها في بلدان مختلفة.

ولا تعني العالمية في نظري أن يبتّ مركز واحد في كلّ شيء. بل يجب أن تكون المنظّمة قادرة على التمييز بين المسائل التي تستدعي عملًا مشتركًا وتلك التي يحسن ترك القرار فيها للجهات المحلّية.

ومن ثمّ ستحتاج الفروع إلى قدر كافٍ من الاستقلال، وإلى آليات تضمن في آن واحد التزامها بالمبادئ المشتركة للحركة. وسيُفصل في الخلافات الجسيمة بشفافية، مع إتاحة النقد ومراجعة ما يُتّخذ من قرارات.

ولن تكون الغاية إنشاء جهاز سلطة آخر ينافس غيره على أكبر قدر من النفوذ. بل ستكون بناء شبكة دولية من أناس قادرين على العمل معًا لحلّ مشكلات يعجز كلّ بلد بمفرده عن حلّها.

الشفافية أساس الثقة

ستكون شفافية الذمّة المالية للسياسيين من أبرز ما يميّز Humanity United Movement.

وممّن يطمحون إلى التصرّف في المال العام والتأثير في حياة الآخرين، أتوقّع استعدادًا يفوق المعتاد لأن يُظهروا ما يملكون، وكيف آل إليهم، وأيّ صلات مالية قد تؤثّر في قراراتهم.

لذلك سيكون على أعضاء الحركة أن ينشروا إقراراتهم المالية عبر مشروع «المال المرئي»، وأن يُخضعوها لتدقيق مستقلّ وفق قواعد محدّدة سلفًا. ويجب أن يتناسب نطاق الرقابة مع قدر المسؤولية العامّة التي يحملها كلّ فرد.

ولا ينبغي أن يقتصر الأمر على ملء استمارة استيفاءً للشكل. فالغاية إتاحة التحقّق من البيانات والتنبيه إلى ما يستدعي تفسيرًا من التباينات. وهكذا تتاح للجمهور معلومات أوفى يستند إليها في الحكم على مدى جدارة ممثّليه بالثقة.

وغنيّ عن القول إن الشفافية وحدها لا تضمن أن يكون المرء سياسيًا جيّدًا. فقد يكون كسب ماله بشرف ومع ذلك يتّخذ قرارات سيئة. وقد يكون خبيرًا ويعجز عن العمل مع غيره. وقد تحسن نيّته ويقصر علمه.

ولهذا بالذات أرى من المهمّ أن نقرن الشفافية بعمل الأكاديمية السياسية وبالتقييم الدقيق لنتائج عمل أصحاب المناصب العامّة. فكلّ أداة تعالج جانبًا من المشكلة. تـتيح الشفافية رقابة أفضل على المصالح المالية، ويرتقي التعليم بالكفاءة المهنية، ويبيّن تقييم النتائج ما إذا كانت القرارات المتخذة تؤتي ثمارها حقًّا.

وفي الوقت نفسه لا أودّ أن تتحوّل شفافية السياسيين شيئًا فشيئًا إلى مطالبة كلّ إنسان بكشف حياته كلّها للناس. فالحقّ في الخصوصية مهمّ، ويجب أن يتناسب مدى الرقابة

مع الغاية منها. والمسؤولية العامّة تقتضي قواعد أشدّ مما تقتضيه شؤون الحياة الخاصّة العادية.

على أن مبدأ جوهريًا ينبغي أن يبقى ثابتًا، وهو أن مؤسّس الحركة وقيادتها يخضعون هم أيضًا للرقابة. وإذا أريد للشفافية أن تكون موضع ثقة، وجب أن تسري على من يدعون إليها.

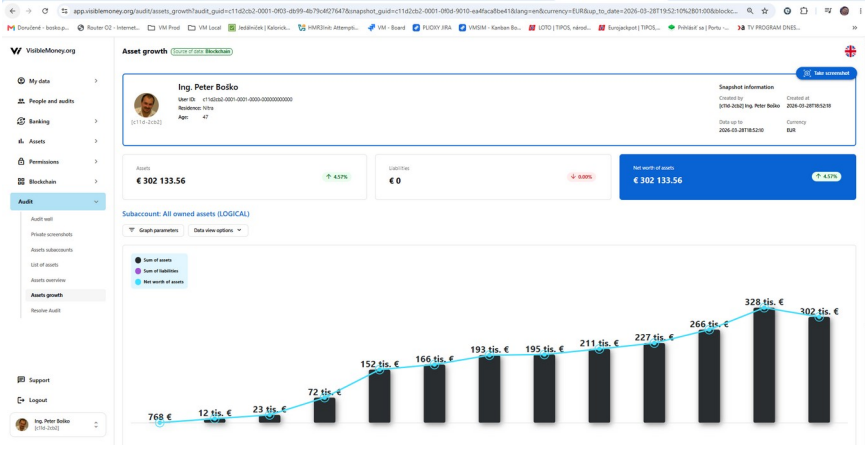

تطوّر قيمة ممتلكاتي بمرور الوقت كما يعرضه تطبيق «المال المرئي»

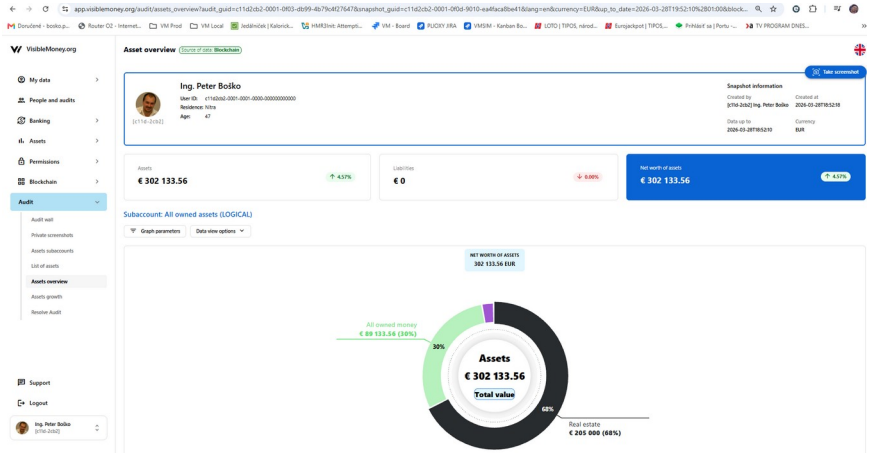

توزيع الممتلكات كما يعرضه التطبيق

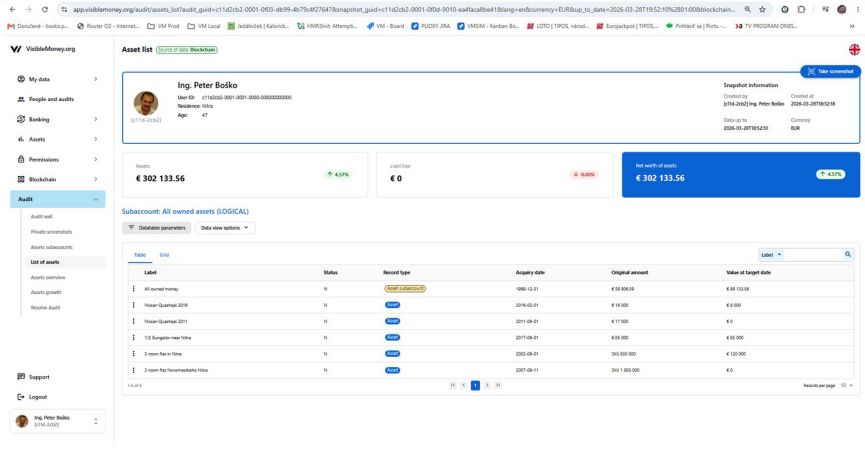

قيود الممتلكات المفردة

التقدّم التكنولوجي ومستقبل العمل

من أكبر التحدّيات التي ستواجه البشرية في العقود المقبلة تطوّر الذكاء الاصطناعي والأتمتة.

ففي وسع التكنولوجيا أن تزيد الإنتاجية زيادة كبيرة، وتخفض تكلفة كثير من الخدمات، وتتيح حلولًا نراها اليوم باهظة الثمن أو شاقّة التنفيذ من الناحية التقنية. لكنها قد تغيّر كذلك سوق العمل والطرق التي يكسب بها الناس أقواتهم تغييرًا جذريًا.

وإذا استطاعت الآلات والأنظمة الذكية أن تتولّى نصيبًا متزايدًا من العمل الذي يؤدّيه البشر اليوم، فسيكون علينا أن نجيب عن سؤال كيف نوزّع ثمار هذا التقدّم.

يرتبط دخل أغلب الناس اليوم، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، بعملهم. فإذا أمكن تأمين قسط كبير من الإنتاج بقدر أقلّ بكثير من العمل البشري، فقد لا تكفي الآليات المعتادة لتوزيع الدخل.

لا نعرف على وجه الدقّة كم ستستغرق هذه التغييرات من الوقت، ولا الصورة التي ستتّخذها. لكنني أرى من قلّة المسؤولية أن نتجاهل احتمال أن تكون لها آثار اجتماعية عميقة.

ومن الحلول التي لا بدّ من دراستها بعناية الدخلُ الأساسي الشامل. وغايته أن يضمن للناس مقوّمات العيش المادّية الأساسية حتى حين يتعذّر إيجاد عمل تقليدي لهم.

لكن هذا الحلّ يطرح أسئلة كثيرة تستوجب الجواب. كيف نُموّله؟ وكم ينبغي أن يكون مقداره؟ وما علاقته بالإعانات الاجتماعية القائمة؟ وكيف سيؤثّر في الدافع إلى العمل والاستهلاك والأسعار والمالية العامة؟

ولا ينبغي أن نطلب الأجوبة في تصوّرات أيديولوجية مسبقة. بل ينبغي أن تنبني على النماذج الاقتصادية والتجارب والمشروعات التجريبية والتقييم المتواصل لنتائجها.

وهنا بالذات يمكن أن تجتمع مبادئ Humanity United Movement الأساسية الثلاثة. فالحسّ السليم يعيننا على تمحيص الحلول، والشفافية تتيح لنا إحكام الرقابة على حركة الموارد العامة، والتعاون العالمي يعيننا على حلّ ما يتخطّى حدود الدول من مشكلات.

تكافؤ الفرص وكرامة الإنسان

أودّ أن تتبنّى Humanity United Movement قناعة مؤدّاها أن قيمة الإنسان لا يحدّدها مسقط رأسه ولا أصله ولا لون بشرته ولا جنسه ولا ميوله الجنسية.

يأتي الناس إلى العالم في ظروف شديدة التباين. فمنهم من يتاح له منذ الطفولة تعليم جيّد وبيئة آمنة وفرص ينمّي بها قدراته. ومنهم من عليه أن يتغلّب على عقبات لم يخترها، وقد تضيّق عليه آفاق الحياة تضييقًا شديدًا.

وأرى من المهمّ أن نبني مجتمعًا يجد فيه كلّ إنسان فرصة لتنمية ما لديه من إمكانات. ولا يعني ذلك أن يبلغ الجميع النتيجة نفسها. وإنما يعني أن نزيل العوائق التي لا موجب لها، وأن نعين من يتعذّر عليهم بلوغ أبسط الفرص من غير دعم يناسبهم.

ويشمل ذلك تعليمًا جيّدًا، ورعاية صحّية في المتناول، وعونًا فعّالًا للمحتاجين، وشروطًا عادلة لمزاولة الأعمال والعمل بأجر.

وعلينا أن نصون للجميع الكرامة نفسها حتى حين نعالج قضايا اجتماعية أشدّ تعقيدًا تتقابل فيها قيم ومصالح مختلفة. وبدل أن نردّ الرأي المخالف من تلقاء أنفسنا، علينا أن نمحّص حججه وتبعاته ومدى اتساقه مع حقوق الإنسان الأساسية.

ولا يعني هذا أن الآراء كلّها سواء في الصواب، أو أن علينا أن نتّفق في كلّ شيء. إنما يعني ألّا نحكم على الناس بأحكام مسبقة، وأن تكون لقواعد المجتمع أسباب نستطيع بيانها حتى لمن تسري عليهم.

التفكير على المدى البعيد والمسؤولية عن المستقبل

ومن مبادئ الحركة أيضًا أن نسعى عند اتخاذ قراراتنا إلى النظر في عواقبها البعيدة.

فكثيرًا ما تتأثّر السياسة بدورات الانتخاب. وقد يكون تدبير يحقّق منفعة فورية أشدّ إغراءً للسياسي من حلّ لا تظهر ثماره إلا بعد عشر سنوات أو عشرين. غير أن ذلك لا يجعله بالضرورة أصلح للمجتمع.

وحين نبتّ في شؤون المالية العامّة أو الطاقة أو البيئة أو التعليم أو التطوّر التكنولوجي، علينا أن نحسب حسابًا لما ستتحمّل تبعاته الأجيال القادمة.

سندعم البحث العلمي والابتكار التكنولوجي والبحث عن حلول ترتقي بجودة الحياة من غير تبذير للموارد. وعلينا في الوقت نفسه أن نحذر الظنّ بأن التقدّم التكنولوجي سيحلّ كل مشكلة من تلقاء نفسه. فإذا عوّلنا على اختراعات مقبلة، وجب أن نهيّئ البدائل أيضًا، تحسّبًا لتأخّرها أو لإخفاقها في أداء ما نتوقّع منها.

وينبغي أن نسلك المسلك نفسه في النظر إلى النزاعات الدولية. فالحروب كثيرًا ما تُلحق بنا خسائر بشرية واقتصادية فادحة تلازم آثارُها الناس أجيالًا. لذلك أرى من المهمّ أن نبحث عن آليات تقلّل خطر النزاع وتشجّع الدبلوماسية، وتصون في الوقت نفسه حقّ الشعوب في تقرير مستقبلها.

كيف ينبغي أن تعمل الحركة نفسها؟

سيتعيّن على Humanity United Movement أن تبني نفسها على المبادئ ذاتها التي تدعو المجتمع إلى اعتمادها.

لا يكفي أن نطالب سياسيّي الأحزاب الأخرى بالشفافية. علينا أن نأخذ بها في صفوفنا أيضًا. ولا يكفي أن نتحدّث عن الكفاءة إذا كنّا نُقدّم الولاء الشخصي على القدرة عند اختيار مرشّحينا. ولا يكفي أن ندعو إلى الرقابة الديمقراطية إذا تعذّر انتقاد قيادتنا نحن.

لذلك لا بدّ من وضع قواعد واضحة لاختيار القيادة وعزلها، ومراقبة التمويل، ومعالجة تضارب المصالح، والبتّ في المسائل الجوهرية لبرنامج الحركة.

لا بدّ لحركة عالمية أن تحسن التعاون بين البلدان، وأن تحترم في الوقت نفسه مسارات الديمقراطية المحلّية. وستشكّل المبادئ المشتركة أساس هويّتها، لكن التدابير العملية لا بدّ أن تتكيّف مع ظروف كلّ مجتمع.

ومن المهمّ أيضًا أن يكون في الحركة متّسع للاختلاف. فمن ينبّه إلى خطأ في البرنامج أو إلى أثر غير مرغوب فيه لقرار اتُّخذ، ينبغي ألّا يُعدّ عدوًا للحركة. بل ينبغي أن تتاح له فرصة عرض حججه وأن تحظى بالنظر الذي تستحقّه.

فما من تنظيم محصّن ضدّ شهوة السلطة أو الانسياق وراء رأي الجماعة أو اتخاذ القرارات الخاطئة. وليس الفارق بين التنظيم الناجح والتنظيم السيّئ أن أحدهما لا يخطئ. الفارق في قدرته على اكتشاف أخطائه، وتصحيحها، والحيلولة دون تكرارها.

لهذا أريد أن تكون Humanity United Movement منظّمة قادرة على محاسبة نفسها أيضًا.

ما الذي نريد حقًّا أن نحقّقه؟

لو كان عليّ أن أوجز المشروع كلّه في فكرة واحدة، لقلت إننا نسعى إلى تهيئة الظروف التي تُمكّن البشرية من أن تُحسن الانتفاع بقدراتها.

لدينا علماء قادرون على استكشاف ما تجري عليه الطبيعة. ولدينا تقنيات يمكنها أن تؤتمت عددًا متزايدًا من الأنشطة. ولدينا أنظمة اقتصادية تستطيع أن تنتج قدرًا هائلًا من الثروة. وبين أيدينا من سُبل الوصول إلى المعرفة ما لم يخطر للأجيال السابقة حتى في أحلامها.

ومع ذلك كثيرًا ما نعجز عن أن نحوّل هذه الإمكانات إلى قرارات مسؤولة، وخدمات عامّة جيّدة، وظروف عيش كريم لأكبر عدد ممكن من الناس.

لا أرى أن العلّة مشكلة واحدة، ولا أن العلاج في تطبيق واحد أو حزب سياسي واحد أو إصلاح واحد. إنما هي جملة من المشكلات المتشابكة تستلزم مؤسّسات أصلح، وتعليمًا أجود، وشفافية أكبر في صناعة القرار، وقدرة على التعاون.

«المال المرئي» أداة عملية محدّدة لتحسين الرقابة على المصالح المالية في الحياة العامّة. والأكاديمية السياسية سبيل إلى إعداد الناس لتحمّل تبعات القرار. أما الغرض من Humanity United Movement فهو بناء إطار سياسي وتنظيمي يقدر على أن يجمع بين هذه الأدوات وأدوات أخرى، ويدفع بها إلى حيّز العمل.

ولكلّ عنصر من هذه العناصر مهمّته. وليس منها ما يكفي وحده.

لا أتوقّع أن نفلح في بناء نظام كامل، ولا أن تكون مقترحاتنا كلّها صائبة. لكنني أتوقّع أن نكون قادرين على تفسير قراراتنا على الملأ، والاعتراف بأخطائنا، والمثابرة على البحث عن حلول أفضل.

وإذا أريد لمشروع كهذا أن يكون له معنى، فلا بدّ أن يبدأ بأناس يقبلـون أن يتحمّلـوا المسؤولية، وأن يستعدّوا لها، وأن يُخضعوا أعمالهم للمحاسبة.

ولا بدّ أن يظلّ مفتوحًا أيضًا أمام من يختلفون معنا. فالغاية ليست إقناع البشرية جمعاء بالانضمام إلى منظّمة سياسية واحدة. وإنما الغاية أن نسهم في تمكيننا، نحن البشر، من معالجة مشكلاتنا المشتركة على نحو أفضل.

ولهذا تحديدًا تحمل الحركة اسم Humanity United Movement.

لا لأن آراءنا قد توحّدت منذ الآن، بل لأن لنا، على اختلافنا كلّه، مستقبلًا واحدًا ومسؤولية مشتركة عن العالم الذي سنتركه من بعدنا.

نداء إلى الجيل الجديد

إذا كنت في مقتبل العمر ويخالجك أحيانًا شعور بأن العالم يمكن أن يسير على نحو أفضل بكثير، فلعلّ الآن هو الوقت المناسب لتكفّ عن الفرجة وحدها وتبدأ بالتفكير في ما تستطيع فعله.

ليس عليك أن تكون سياسيًا متمرّسًا. ولا يلزم أن تكون قد درست الاقتصاد أو القانون أو العلاقات الدولية. ولا يلزم أن يكون لديك جواب عن كلّ سؤال. إنما يهمّ أن ترغب في فهم العالم، وترضى بأن تتعلّم، وتقدر على مراجعة آرائك، وتملك شجاعة تحمّل المسؤولية عمّا يمسّك.

وهؤلاء بالذات هم الناس الذين أودّ دعوتهم إلى Humanity United Movement.

تخيّل سياسة لا يضطرّ المرء إلى أن يقضي عشرين عامًا في عمله ويبني شبكة من العلاقات قبل أن يدخل معتركها. سياسة يمكنك أن تبدأ الاستعداد لها منذ اليوم. سياسة تتيح لك أن تتعلّم كيف تعمل الدولة، وتحاور أناسًا من شتّى الاختصاصات، وتحلّل مشكلات المجتمع، وتتهيّأ على مهل لمسؤولية قد تحملها يومًا.

لهذا نريد بناء أكاديمية سياسية تُعين على إعداد جيل جديد يفهم مشكلات المجتمع الحديث المعقّدة. لا نطلب منك أن تقبل آراء مؤسّسي الحركة من غير تحفّظ. نريدك أن تتعلّم كيف تفكّر بنفسك، وتستند إلى الوقائع، وتميّز الحجّة الجيّدة، ولا تخشى القول إن فلانًا مخطئ، ولو كان من قادة حركتنا نفسها.

غير أن ثمّة شرطًا واحدًا نريد به أن نتميّز عن السياسة المألوفة.

إذا أردنا الشفافية من السياسيين، وجب أن نبدأ بها من أنفسنا.

على كلّ من يعزم على الانضمام إلى Humanity United Movement أن يكون مستعدًّا، منذ البداية، للتصريح بممتلكاته علنًا عن طريق مشروع «المال المرئي»، وإخضاع إقراره

المالي للتدقيق المقرّر. لا حين يترشّح في الانتخابات. ولا حين يتولّى منصبًا مرموقًا. من البداية.

ولا يعني ذلك أن في امتلاك المال، في ذاته، ما يثير الريبة. بل على العكس. فما كسبه المرء بنزاهة ليس مدعاة للخجل. ولكننا إن أردنا أن نُنشئ بيئة سياسية لا تخفى فيها المصالح المالية عن أعين الناس، وجب أن نكون مستعدّين لأن نضرب المثل بأنفسنا.

ولا تعني الشفافية أيضًا أن نحسب أنفسنا خيرًا ممّن لا ينضمّون إلينا. بل تعني أن نقبل طوعًا رقابة أشدّ، وأن نتيح للآخرين أن يحكموا بأنفسهم على مدى التزامنا بها حقًّا.

لعلّك تتساءل أيّ أثر يُرجى أصلًا من حركة صغيرة إلى جانب الأحزاب السياسية الضخمة والدول والمصالح الاقتصادية العالمية.

بيد أن كلّ تغيّر كبير لا بدّ أن يبدأ من مكان ما. ولسنا بحاجة إلى أن نعرف اليوم على وجه الدقّة كيف سيبدو العالم بعد ثلاثين سنة. لكننا بحاجة إلى أن نبدأ بناء مؤسّسات ووضع قواعد وتنمية طرائق في التفكير تتيح لنا أن نواجه تحدّياته المقبلة على نحو أفضل مما نفعل اليوم.

وإذا استطعنا بناء منظّمة يلتقي فيها أناس مستعدّون للتعلّم والعمل بشفافية والتعاون عبر الحدود ومراجعة آرائهم في ضوء المعرفة الجديدة، كان ذلك في حدّ ذاته خطوة ملموسة في الاتجاه الصحيح.

ولا يهمّ إن أصبحت يومًا نائبًا أو وزيرًا أو خبيرًا في السياسات العامّة أو صاحب أعمال، أو ظللت إنسانًا معنيًّا ببساطة بالطريقة التي تسير بها شؤون مجتمعه. فلكلّ إنسان سبيله إلى الإسهام.

فإذا لامستك هذه الفكرة أدعوك إلى أن تخطو الخطوة الأولى. سجّل في مشروع «المال المرئي»، وتعرّف إلى مبادئه، وفكّر في الانضمام إلى Humanity United Movement. وانضمّ وأنت تدرك أنك لن تكتفي بمطالبة غيرك بالتغيير، بل ستكون مستعدًّا لأن تبدأ بنفسك أيضًا. وتجد استمارة التسجيل على العنوان الآتي:

https://app.visiblemoney.org/register

لا أطلب منك ثقة عمياء. أطلب منك أن تمعن التفكير في هذه الفكرة، وأن تطرح الأسئلة المحرجة، وأن تحكم بنفسك هل تستحقّ أن تهبها من وقتك وقدراتك.

فلعلّ سؤالك أنت يكشف عيبًا غاب عنّا. ولعلّ فكرة منك تعيننا على حلّ مشكلة أعيتنا. ولعلّك تصبح يومًا أحد الذين يقرّرون كيف تسير شؤون مجتمعنا.

والمستقبل ليس شيئًا نرثه عن الأجيال التي سبقتنا وحسب. إنّه أيضًا شيء نصنعه بقراراتنا للأجيال التي تلينا.

وإذا أردنا له أن يكون أفضل، وجب أن نكون مستعدّين لأن نبدأ العمل من أجله اليوم.

Humanity United Movement — بشرية واحدة، ومستقبل مشترك.